لحظات خارجة عن الزمن

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz
*

مزيّن يعقوب برقان
"لحظات خارجة عن الزمن"
(رواية)
*

الطبعة الثانية (2012)

*

دار الكتب والوثائق القومية المصرية
رقم الإيداع: 2011/13090

التصميم والمونتاج والإخراج
الريشة

*

رواية

مزيّن يعقوب برقان

لحظات خارجة عن الزمن

AL JUNDI
دار الجندي للنشر والتوزيع
PUBLISHING HOUSE

إشارة

أحداث وشخصيات هذه الرواية خياليّة تمامًا،
وإن أي تشابه بين هذه الأحداث والواقع،
فإن ذلك محض صدفة.

إهداء

إلى كلّ مَنْ له أمل بالعودة..

إلى أعظم مَنْ عرفتُ، لأن القلم لا يحرّكه إلاّ العظماء..

المُلْهم حزنًا، وفرحًا، وحبًّا.. إليكَ أنتَ.

إلى أبي..

(مزيّن)

الفصل الأول

ممارسة الحبّ، كما الحياة، لغز تغيب كل تفاصيله. لا أدري لماذا يجتاحني التفكير العميق في هذه الحياة بعد ممارسة الحبّ. ما العلاقة بين ممارسة الجنس والحياة؟ كلاهما متعة مشوّشة. لا أدري لماذا يتملّكني هذا الشعور الغريب.

تململتْ زوجتي، وخشيتُ أن تستيقظ من نومها الذي شعرتُ أنه ينقذني من ألم الكلام، أو يجتاح مساحات صمتي. نومها أشعرني بشيء من الارتياح وسط تساؤلات وحيرة وأرق.

تململتْ، لكنها لم تستيقظ. كأنّ السماء استجابت لدعواتي الصامتة. بقيتْ غارقة في نومها.. بعيدة عن ما يجول في داخلي من أفكار ومشاعر غريبة. أعرف رجالاً كثيرين يمارسون الجنس دون شهوة ولا حبّ. هل

استقطبتني دائرة هؤلاء الرجال دون أن أدري؟ ما معنى أن يحبّ الرجل زوجته دون أن يشتهيها؟ لا أدري إن كانت المشكلة مشكلتي، أم أنها الطبيعة البشرية. كم يلزمني من الانضباط حتى أكون زوجًا صالحًا حسب المفاهيم النسائية أو الأنثوية للصلاح! كم يلزمني من الصبر حتى استمرّ في حياة زوجية، لا مشكلة فيها سوى الشعور العميق بالملل.

يحدث لنا، في وقت من الأوقات، أننا لا نجد معنى؛ أي معنى لأشياء كثيرة مثل: الحياة، والموت، والزواج، والإنجاب. هل أقف عند هذه النقطة الآن؟ نقطة تجرّد الحياة من كل معانيها، أو تجرّد الأشياء من كل مضامينها؟ كم يؤلم الأعماق شعور كهذا! ولكن.. لماذا يراودني هذا الشعور؟ سؤال يبتلعه غياب الجواب.

نهضتُ من سريري الذي بدا قيدًا مؤلمًا، ففي الأسرّة يكون الألم، أو تكون المتعة، فالآلام تقودنا إلى السرير، والمتعة تدفعنا نحوه. ما هذا التناقض؟ السرير ننفض آلامنا ومتعتنا عليه، ففي الغرفة التي لا سرير فيها، تبقى الآلام معلّقة بثقلها على أجسادنا كالملابس على المشجب، وتبقى المتعة، واللّذة، في دائرة الاحتقان.

توجهت إلى غرفة مكتبي. الهدوء يغلّف الغرفة، ويغزو ظلامها ضوء خافت موضوع على الطاولة. من الهدوء ما يؤلم خوفًا أو وحدة، ومنه ما يلُفّ الجسد بالراحة، والطمأنينة؛ فالهدوء يستقطبه التناقض أيضًا.

في تلك الغرفة الغارقة في الهدوء، وتحت مظلّة الضوء الخافت، رأيت القلم، والأوراق البيضاء.. العارية رغبة لجسد قلم. شعرتُ أن القلم يناديني.. يجذبني حبره، وتدّفقه، وثورته، وتمرّده، وجنونه. تقدّمت نحو الطاولة متهيّبًا، ولا أدري لماذا شعرت بالتهيّب في الوقت الذي اجتاحتني ثورة القلم. ربما لأن مشاعري، وأفكاري المدفوعة بآلة الانطلاق، كان ينقصها الترتيب، والتسلسل.

خلال سنواتي العشر، أي منذ بدأت كتابة الشعر، لم أجد أحدًا، أو شيئًا، يحتوي، أو يحتضن ثورتي، إلا الأوراق البيضاء. مَنْ يستطيع أن يحتضن جنون شاعر؟ مَن يستطيع أن يخترق أعماق الشاعر غير القلم؟

زوجتي، التي درست علم الاجتماع في إحدى الجامعات، لا تعير أي اهتمام للشعر والأدب. كل ما يهمّها الإنجاب، وأعمال البيت. لا أدري ما معنى أن يجلس شاعر جوار زوجة تناقش أعمال البيت، وشؤون الطبخ، ولا أدري لماذا لم ننجب بعد خمس سنوات من الزواج الثاني، فزوجتي الأولى رأت أن لا حياة بيننا بسبب عدم الإنجاب، فتركتني، ولم أعد أعلم عنها شيئًا، ولا أدري، أيضًا، لماذا يقول الأطباء إنه لا توجد أسباب لعدم الإنجاب.

ما تفسير كل ما يجري معي؟

عندما أسأل زوجتي: ما معنى أن لا ينجب الإنسان أطفالاً؟ فتجيب باندفاع: "معناه أن يشقى". وعندما تسألني: ما معنى أن ينجب الإنسان أطفالاً؟ أجيبها بعد تفكير: "أن يزداد شقاءً."

استيقظتْ آلامي، وأحزاني، في تلك اللحظة. أكانت ممارسة الحبّ سبب ذلك؟ فمتعة ممارسة الحُبّ تنتهي بفتورٍ وحزن مواريْن، كأننا نُعاقَب على متعة ابتلعناها خلال فترة قصيرة.

أمسكت بالقلم، وقد خُيِّلَ إليّ أنه يقفز نحو أصابعي كي يستنطقني على طريقته، كأنه لا يعجبه صمتي، أو كأنه ضاق بالحبر الذي فيه، كما تضيق بي الحياة. رحت أكتب قصيدة تحت عنوان:

"حزين كالمطر"

حزين كالمطر

يتساقط المطر كاللآلئ،

وخلف نافذتي عصفور

يرتعش، ويئنّ

كما تئنّ أعماقي.

على هيئة اللاشيء أنا...

لن يغسل المطر أعماقي،

فأنا حطام هذه الدار،
وربما حطام هذا الكون.
فأنا شبه موجود،
وشبه لا شيء.
إنّ اسمي العدمية.
أشتهي أقحوانة تدثّرني،
وأشتهي رغبة تزلزلني،
ومطرًا غزيرًا يغسلني.
وُجِدتُ...
لأن قدري أن أكون،
وسأموت عندما أشتهي
الظلام، أو لا أشتهيه.

وضعت القلم على الطاولة، وعدت أقرأ ما كتبتُ. تحتاج القصيدة إلى القافية والوزن، وإجراء بعض التعديلات. ولا أدري لماذا شعرت أن القصيدة التي تخرج عن قانون القافية، والوزن، تنفض أعماق الشاعر بشكل أصدق. القافية، والوزن، هما سلاسل تلتفّ حول كلمات القصيدة كما تلتفّ السلاسل حول الأيدي، والأقدام. القافية، والوزن، يقتلان

حرية الكلمات، وقد يعيقان حرية الكلمات، وتدفّقها، وجنونها، وثورتها. ولكن، مَنْ أنا كي أقلب كيان الشِّعر؟ مَنْ أنا كي أضع الشِّعر في قوالب جديدة؟ مَنْ أنا كي أقتل القافية، والوزن؟ فللقافية رونقها، وسحرها، وللوزن جماله الأخّاذ.

نظرت حولي، فشعرتُ بسكون، وهدوء، مريحيْن. أن يكون الإنسان مع قلمه، وبين كتب مكتبته، معناه أن يكون في عالم لا يخصُّ أحدًا غيره.. في عالم للخلْق.

الكتب تخترق حواجز النفس كي تغلّفها بالراحة، والهدوء، وبسعادة لا مثيل لها. ولكن، لماذا لا أشعر بالسعادة الآن، وأنا بين كتبي، وأوراقي، وقلمي؟ لماذا أشعر بالفراغ؟ لماذا لا ينفضني القلم على الرغم من كل ما يخطّ على الأوراق البيضاء؟ لماذا يُهزم القلم أمام صمتي، وأمام هذه الفوضى الداخلية التي تجتاحني؟ لماذا يسحقكَ صمتي، أيها القلم؟

أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت حولي كأنني أتأمّل الفراغ حولي. أستهجن أحزاني، وأوجاعي، وتناقضاتي، وثورتي، وهمومي المتشابكة. إني ألتحف شبه الظلام هذا وحدي.. أستنشق هواءً لا يصل أعماقي. لماذا كل هذا الضيق؟

وعلى الرغم من الضيق الذي كنت أشعر به، بدا لي المكان جميلاً.. جميلاً، بالظلام الذي يرتديه.. بالهدوء الذي يتزيّن به.

وقفت، وتوجهتُ نحو إحدى النوافذ، ونظرت إلى بيروت الغارقة في ظلام الليل. إنها الثانية بعد منتصف الليل. رائعة هي المدينة بثوب الهدوء الذي ترتديه. هذا هو الأسبوع الأول على وجودي في بيروت، فقد جئت من مخيم عين الحلوة كي أنشر ديوانًا شعريًّا في إحدى دور النشر.

عدتُ إلى حجرة نومي، حيث كانت زوجتي غارقة في نومها الذي كان دائمًا يقودني إلى تفاصيل نفسي؛ فالوحدة تقودكَ إلى تفاصيل نفسكَ. كم يلزمك من الهدوء كي تتصالح مع نفس مجبولة بالثورة، والاحتجاج؟

أثور على نفسي. أتصالح معها على طريقتي. أخاصمها. ألعنها. أروّضها. أقيّدها. أطلق سراحها. أحاسبها.. كل هذا على طريقتي.

هنيئًا لك نومك، يا زوجتي. لك هدوء النوم، ولي صراع الفكر.

ارتميت بحزني على السرير، ثم نظرتُ إلى زوجتي، واخترقني شعور بالحسد لأنها غارقة في النوم. يحدث لنا، بعض الأحيان، أننا نحسد الآخرين على أمور تافهة، أو أمور لا نبذل أي جهد للحصول عليها. ليت النوم يأتي.. ليته يغلّفني.. ليته ينقذني مما أنا فيه. كي أنام، يحتاج عقلي إلى الاستقالة.. الاستقالة من التفكير، والتدقيق. في الفترة التي تقع بين النوم واليقظة، يبدأ العقل بتسليم الأفكار إلى اللاوعي. ما أعظمك أيها النوم عندما تجرّد عقلاً من تفكير يقهر الجسد! ما أصغركَ عندما تهزمك الهموم، والأحزان!

زوجتي نائمة، فمتعة ممارسة الحبّ قادتها إلى النوم. أما أنا، فممارسة الحبّ قادتني إلى القلق، والأرق. عجيبة هي ممارسة الحُبّ في دائرة المألوف.. حُبّ لا حُبّ فيه.. رغبة حيوانية تعمل بطريقة ديناميكية، دون لهفة، ودون حرقة، ودون مشاعر تضرب القلب، والصدر.

الهدوء يُطلق سراح الأفكار. لم أدرِ كم من الوقت مضى كي أغطّ في النوم.

***

ما أن يستيقظ الإنسان من نوم عميق، حتى يشعر بفراغ الجسد من الهموم، والأحزان. جسد فارغ من الهموم، كما الوعاء الفارغ، سرعان ما تملؤه أحداث النهار. هكذا شعرت في ذلك اليوم من أيام أيار. زوجتي في المطبخ تعد طعام الفطور، وألم في إحدى أسناني ينخر رأسي.

سمعت زوجتي تنادي:

– بهاء.. بهاء. أعددتُ الطعام.

زوجتي تعتقد، كغيرها من النساء، أن لا شيء يُسعِد الرجل غير إغراقه في الطعام والجنس. على الرغم من أنني لا أنكر هذا الاعتقاد تمامًا، فإنني أتساءل: لماذا لا أؤمن بهذا تمامًا؟ الطعام والجنس ليْسا هدفي، ولا قمة سعادتي، ولا درجة الإشباع عندي. الطعام لا يُسعد إلا رجلاً يملؤه فراغ المعدة، والجنس لا يسعد إلا رجلاً يملؤه احتقان رغبة متوحشة.

نهضت من سريري، وتوجهتُ إلى غرفة الطعام. ابتسمتْ زوجتي عندما رأتني، فأسعدتني ابتسامتها أكثر من الطعام الموجود على الطاولة. عجيب أمري، كأنني كنتُ أشعر بالجوع إلى الابتسامات، وليس إلى الطعام. لم أدرِ لماذا أسعدتني ابتسامتها وقتئذ، كأنها تبتسم في وجهي أول مرة. ابتسامتها غلّفها الحنان والحُبّ. لعنتُ نفسي في أعماقي على ذلك الفتور العاطفي تجاهها، في الوقت الذي لم أجد ما يبرّر شعوري بالذنب على ذلك الفتور العاطفي لأنه خارج عن سيطرتي، فخمس سنوات على هذا الزواج، فترة كافية كي تجعل جسد زوجتي كجسد الدمية. أيثير سكون جسد دمية رجلاً مسكونًا بثورة المشاعر، وعنفوان الأحاسيس؟

تلاشت الأفكار عندما رأيت زوجتي تضع فنجان الشاي أمامي كأنها شعرت بشرود ذهني. أحبّ أن أتناول الشاي على الريق. تناولت الشاي دون أن أتناول الطعام.

سألتْ زوجتي:

- لماذا لا تتناول الطعام أولاً؟

أجبتها:

- الشاي أولاً.

تناولت زوجتي طعامها، وقد خيّم الصمت، كأن الكلام بيننا يلفّه الفتور أيضًا. يحدث للكلام بين الناس أن يلّفه الفتور كالمشاعر تمامًا. ماذا

تقول لزوجة تعرف كلّ معتقداتها، وتصرفاتها، وتحركاتها، وكل تفاصيل تفاصيلها؟ تعرف متى تأكل، ومتى تنام، ومتى تغتسل، ومتى تثور، ومتى تهدأ.

ماذا تقول لشخص مكشوف أمامك كالورقة البيضاء؟ مع كل هذا، هناك نوع من الحُبّ في أعماقي تجاهها؛ فهي تمنحني الحنان، وتحرص كل الحرص على إرضائي، وعلى كل ما تعتقد أنه يسعدني.

قلتُ:

- كتبتُ قصيدة ليلة أمس.

توقعت أن تقول: "ألقها، أو أطربني بها." لكنها قالت بلا مبالاة:

- قصيدة؟ عن ماذا؟

تساءلتُ لماذا سألتني: "عن ماذا؟"، ولم تسألني: "عن مَنْ؟"

أجبتها:

- قصيدة بعنوان، "حزين كالمطر."

سألتْ:

- وهل المطر حزين؟

توقعت أن تسألني: "هل أنت حزين؟ ولماذا؟"

لذت بالصمت، فجهلها بمعاني الشعر، والتشبيهات، والاستعارات، أخرسني. يحدث، بعض الأوقات، أن الجهل يهزم العلم. شربتُ الشاي

بصمت لعلّ صمتي يخبرها بأنها لا تسير في الاتجاه الصحيح في حوارها معي. وضعتُ فنجان الشاي الفارغ على الطاولة.

قلت بكل ما أوتيت من تفاهة:

- كيف يتمّ عمل الكعك؟

لم يفاجئها التحوّل من الشعر إلى الطعام، وأجابت بسرعة توقعتُها. تحدثتْ عن طريقة عمل الكعك بكل تفاصيلها. تساءلت في أعماقي وهي تتحدث عن عمل الكعك: "ما الذي جعل زوجة كهذه تتعثر في طريقي؟ ولماذا ألوم الأيام على زوجة كهذه؟ فأنا اخترتها". يحدث لنا، بعض الأوقات، أننا نختار ما يجب أن نختار. أين حرية الاختيار عندما يكون الاختيار مغلّفًا بالإرغام؟ ما معنى أن يكون الإنسان مرغمًا على الاختيار؟ مرغم على الاختيار.. تناقض عجيب! يخيّل إليّ أن شقاء الإنسان وليد هذا التناقض الذي أُقحمَ به. نُقحَمُ في التناقض كما نُقحم في هذه الحياة.

أخذتُ نفسًا عميقًا، فقد ضاق صدري من التحليل، والتدقيق، والتمعّن. عجبتُ لأمري. لماذا لا تستقطب عقلي قشور الأشياء، وسطحيّتها؟ ولماذا أتجه نحو التفاصيل، والأعماق المُتعِبة؟

***

في وقت لاحق من ذلك النهار، اشتدّ ألم أسناني، فتوجهتُ أبحث عن عيادة للأسنان. الألم فينا قد يقودنا إلى استصغار عجيب للحياة، واستصغار أعجب لأنفسنا. لم أجد عناءً في البحث، وهذا نادرًا ما يحدث معي. وجدت عيادة للأسنان قريبة من منزلي في بيروت. عيادة الدكتورة لينا. شعرت بالارتياح، لأن العيادة على بُعد مائة متر تقريبًا من منزلي، وهذا سينقذني من عناء الذهاب إلى عيادات بعيدة.

يجتاحك التساؤل عندما تذهب إلى مكان أول مرة: مَنْ سترى؟ ماذا ستقول؟ هل سيسرّك المكان، أم يسوءك؟

إنني الآن في العيادة، أجلس بين بعض المرضى، بالقرب من رفوف للكتب في غرفة الانتظار. الانتظار يوحي بالوقوف عند باب المجهول. إنها الخامسة عصرًا الآن.

رفعتُ عينيّ قليلاً، ونظرت إلى جهاز التلفاز المثبت في الحائط. الهدوء في غرفة الانتظار أشعرني بالارتياح، وبينما كنت أنظر إلى التلفاز، انتابتني رغبة في إلقاء نظرة على الكتب الموجودة على الرفوف. تشدّني الكتب الموضوعة على الرفوف، وأشعر أنها كألغام معرفة تحتاج إلى التفكيك؛ تفكيكها يكون بقراءتها.

أمسكت بأحد الكتب. عدتُ مكاني، ورحت أقلب صفحات الكتاب دون أن أنظر إلى عنوانه. كيف ذلك؟ أقلّب صفحات كتاب دون أن ألقي

نظرة حتى على عنوانه! ما لفت انتباهي في الكتاب هو موضوعه. إنه يتحدث عن أصول الفلسطينيين، والعبرانيين، في فلسطين. ما سرّ هذا الصراع بين الطرفين؟ صراع قديم- حديث؟

كلاجئ حُرِمَ من وطنه، ينتابكَ شعور بأنك أنتَ ضحيّة صراع.. ضحيّة صمت.. نقطة نسيان في صفحة الذاكرة.. صفحة مزّقتها يد الظلم من كتاب التاريخ.

أنقذني ألم أسناني من ألم التفكير في عمق المعاناة.. ألم أن تكون على هامش الدول، وفي أسفل سلّم الأولويات، وألم أن تكون كل الأماكن، والدول، مفتوحة أمامكَ، إلاّ وطنكَ.

شعرتُ بالارتياح عندما رأيت باب غرفة الطبيبة يُفتَح. إنه دوري الآن. وضعت الكتاب على الرفّ في الوقت الذي خرجتْ فيه مريضة من غرفة الطبيبة.

دخلت غرفة الطبيبة التي كانت في ثلاثينيّاتها. انتابني شعور أنها غير متزوجة. بدت مشرقة، ومتألّقة، ورشيقة، يغلّفها النشاط والحيوية.

في البدء، لم تسألني عن ألم أسناني كما توقعتُ. جلستُ قبالتها، ونظرت إليها وهي تقلب مجموعة من الأوراق أمامها على الطاولة.

سألتني بابتسامة جميلة:

- ما اسمك؟

أجبتها:

- بهاء.

سألتْ مرة أخرى:

- كم عمرك؟

قلت:

- خمس وأربعون سنة.

سجّلَتْ المعلومات على جهاز الكومبيوتر، ثم سجلت رقم هاتفي الخليوي. بعد دقائق، قامت بفحص أسناني.

قالت وهي تنظر إلى فمي:

- أسنانك وضعها جيد.

قلتُ:

- إني أعتني بها.

قالت:

- هناك مشكلة بسيطة في الفك العلوي.

قلتُ:

- أُريد أن أتخلّص من الألم.

قالت:

- يجب أن تتناول دواءً مُسكّنًا هذه الأيام. سأحدّد لك موعدًا الأسبوع القادم.

بعد أن انتهت من فحص أسناني، جلستُ قبالتها، وأخبرتها أنني أُقيم في بيروت، وأنني من مخيم عين الحلوة في جنوب لبنان. عرفتُ أنها تقيم في بيروت. وصفتْ لي الدواء المسكّن، وغادرتُ العيادة كي أشتريه.

في المساء، عُدت إلى المنزل. زوجتي، كعادتها، تشاهد التلفاز، فهي إمّا تشاهد مسلسلاً سوريًّا، أو فيلمًا مصريًّا. هي دائمًا تقع بين هذا وذاك. جلستُ على الأريكة دون أن أجد رغبة في الكلام. نظرت إلى جهاز التلفاز كي أداري عدم رغبتي في الكلام. جهاز التلفاز هذا له فوائد كثيرة، فكّرت في أعماقي. بعض الأحيان يستحوذ على تفكيرنا، وربما أجسادنا أيضًا، فنجلس أمام هذا المربع الناطق. بعض الأوقات، يأخذنا من أنفسنا، ويأخذنا من الآخرين.

كم من الأفكار تتسرّب من رؤوسنا عندما ننظر صامتين إلى هذه الشاشة نفكّر بما نسمع، وبما نرى! إنها الشاشة التي تهرب إليها عيوننا عندما لا نرغب أن نرى أحدًا، أو عندما تحرجنا نظرات الآخرين، وتساؤلاتهم. عظيم هذا الذي اخترع هذا الجهاز. عرف كيف يستقطب نظراتنا، ويبعدها عما يحرجنا، ويضايقنا، عندما لا نجد ما يستحق النظر إليه. كم من الأشياء لا تستحق النظر إليها! وكم من الناس مَنْ لا

يستحق التفكير! شعرتُ وقتها أن جهاز التلفاز يحجبني عن نظرات زوجتي. ولكن، لماذا أنا هارب من نظراتها؟ ماذا فعلتُ كي ينتابني شعور كهذا؟ هل هي عدم رغبتي في الكلام؟ ولماذا هذا الصمت بيننا يطول ويتعمّق؟

في مساحة الصمت الواسعة، سألتْ زوجتي:

– كيف أسنانك الآن؟ هل وجدت طبيبًا؟

أجبتها:

– وجدتُ طبيبة بالقرب من بيتنا.

فسألتْ ثانية وهي تهزّ رأسها:

– وكيف أسنانك الآن؟

أجبتها وأنا أخرج زجاجة الدواء من جيبي:

– وصفتْ لي هذا المسكّن. سأتناوله لبضعة أيام، ثم ستحدّد لي جلسات للعلاج.

عادتْ زوجتي إلى صمتها. نظرتْ إلى جهاز التلفاز، ربما لأن كلامي لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليها، وربما لأنها وجدتْ في جهاز التلفاز ما هو أكثر أهمية. صمتها أراحني، سواء أكان السبب عدم اهتمامها بكلامي، أم رغبتها في متابعة ما يجري في هذا المربع الناطق.

تناولتُ دوائي، وبعد عشر دقائق تلاشى الألم. رأيت أن أفجّر الصمت بالصمت، فتوجهتُ إلى غرفة مكتبي. أشعرني الهدوء بالارتياح. الهدوء المُسيّج بالكتب يقود النفس إلى النشوة، كما يقود جسد امرأة جميلٍ الرجلَ إلى ذروة المتعة. لا أدري كيف يعتقد البعض أن الهدوء العميق يبثّ الكآبة في النّفس، أو الملل. إن الهدوء الذي يقتل صمتَه الكتابُ هو متعة.

على أحد الرفوف، نظرت إلى رواية سومرست موم، بترجمتها العربية، "حافة السكين". قرأتُ تلك الرواية قبل بضع سنين، ووجدتُ نفسي أرغب في أن أقلب صفحات الكتاب.

إنّ مَنْ يقرأ عنوان الرواية يعتقد أن الرواية تتحدث عن القتل والذّبح، ويستبعد تمامًا أن يكون التعمّق الشديد في المعرفة هو كحافة السكين، يقطع ويذبح.

هذا ما أراد سومرست موم أن يقوله من خلال الشخصية الرئيسة في الرواية، ففي هذه الرواية، يتحدّث موم عن شاب أميركي يعود من حرب استمرت سنتيْن. يعود غريب الأطوار، ويرفض العمل، والزواج، ويصبّ كل اهتماماته على القراءة، ثم يقضي سنوات طويلة في الهند للبحث في الفلسفة الهندوسية، ويزيده التعمّق في المعرفة، وفي قضايا فلسفية، انطواءً وعزلة، ولم يحقق الشاب، حسب رأي موم، شيئاً ذا قيمة،

على الرغم من قضاء عشرين سنة في القراءة، والبحث عن المعرفة، ومطاردة أسئلة فلسفية عجز عن إجابتها المفكّرون، والفلاسفة.

إن شخصية "لاري" في رواية "حافة السكين" طعنة في أعماق كل كاتب؛ فقد يجد الكاتب نفسه في شخصية "لاري"، وينتابه شعور بالخوف من الفشل، الذي يجتاح الكتّاب بين الحين والآخر، فما معنى أن يقضي شخص سنوات طويلة في البحث عن المعرفة، والعلم، دون أن يحقّق شيئًا ذا قيمة؟

تنتهي رواية موم عندما يعود "لاري" من لندن إلى أمريكا للعمل فيها كميكانيكي، فأي فشل في البحث عن المعرفة، والعلم، هذا؟

أثارت فيّ رواية موم خوفًا شديدًا من الفشل عندما قرأتها، أول مرة، قبل بضع سنين في مخيّم عين الحلوة، حتى أنني قمتُ بوضعها على أعلى الرفوف كي أبعدها عن عينيّ، على الرغم من إعجابي الشديد بها. ثمّة أشياء كما الأشخاص، لفرط عشقكَ، وتعلّقكَ بها، ترغب في الابتعاد عنها. ولكن.. لماذا؟ ربما كي تُنْقِذ شيئًا ما في أعماقكَ.. أو كي تنقذ ذاتكَ من ذاتكَ.

***

أيامي في بيروت تتأرجح بين منزلي ومحل لبيع الكتب أعمل فيه، وندوات شعرية تُعقَد بين الحين والآخر.

ذات يوم، ذهبتُ مع صديق لي في بيروت لحضور ندوة حول الشعر العربي الحديث. صديقي عماد، في الثلاثين من عمره، تزوج امرأة، ثم طلّقها بعد سنتين من الزواج. لم أرغب في أن أعرف تفاصيل الطلاق عندما أخبرني حكايته.

غريب أمر الزواج...

يوهم الإنسان أنه سيدخل عالم السعادة والكمال، فإذا به يجد نفسه غارقًا في الحزن والنقص.. تائهًا بين قوائم طويلة من الأسئلة، مثل: لماذا أرتبط بهذا الشخص؟ ولماذا في هذا الوقت؟ ولماذا تسير الأمور بهذا الاتجاه، وليس بذلك الاتجاه؟ ولماذا أنجب؟ ولماذا لا أنجب؟ ولماذا؟ وألف لماذا؟ ومتى؟

وغريب أمر الطلاق أيضًا...

فهو يجعل القريب بعيدًا، والخليل عدوًّا، والمكنون مكشوفًا، والخاص عامًّا.

على الرغم من تجربة الزواج التعيس، والطلاق، إلاّ أن عمادًا كان مرحًا. كيف استطاع أن يتجاوز همومه، وأحزانه، بكل هذا المرح؟ أم أنه يتظاهر بسعادة لا وجود لها في أعماقه؟ يحدث لنا، بعض الأحيان، أننا نغلّف آلامنا، وأحزاننا العميقة، بقشرة سعادة رقيقة قابلة للكسر، والتفتّت، في أية لحظة. ما سرّ هذه السعادة المعطوبة الأعماق؟

جلس عماد إلى جواري، وسألني جادًّا:

– هل تعتقد أن الشعر العربي آخذ في الارتفاع أو الهبوط؟

عجبتُ لسؤاله. قلتُ بعد صمت:

– أتعتقد أن الشعر يقع في هذين الاتجاهين فقط؟

رفع حاجبيه متعجبًا، ثم قال:

– لا أفهم ماذا تقصد.

أجبته:

– لا يمكن للشِّعر أن يظل في ارتفاع مُطْلَق، أو هبوط مُطْلَق. الإبداع الفكري لا ينحصر في فترة معينة.

لاذ عماد بالصمت، كأن جوابي لم يكن مقنعًا، أو كان مقنعًا. لم أدرِ.

أردفتُ أقول:

– أعتقد أن القافية، والوزن، نوعان من القيود، لكنني لا أرى الأمر كما تراه أنت.

قال:

– في النثر جمال أخّاذ، وقوّة...

قاطعته:

– وفي الشعر أيضًا.

سأل:

- أكتبتَ شيئًا جديدًا؟

أجبته:

- أحاول.. سحر بيروت يثير رغبة القلم في الكتابة، لكنني أشعر أن شيئًا ما ينقصني.

قال متسائلًا:

- وما هو؟

أجبته:

- لا أدري بالتحديد. الأفكار لا تأتي، كأنها أُصيبت بالعُقْم. شيء ما ينقصني كي يقتل عقمها.

قال عماد:

- لا يمكنك أن تصطاد الأفكار وهي تحلّق في الفضاء. انتظرْ حتى تهبط. انتظرْ.. ستأتي وحدها.

قلتُ:

- هي لا تأتي وحدها. لا بدّ من قوة دافعة تحركها، كالمطر تمامًا، لا ينزل دون قوة الرياح التي تحرك الغيوم...

قاطعني:

- في كل الأحوال، يجب أن تنتظر.. تنتظر الأفكار، أو القوة، التي تحرّكها.

اقتربت منّا امرأة في أواخر عقدها الثاني تقريبًا. علمتُ، فيما بعد، أنها امرأة سورية متزوجة من رجل لبناني. اسمها إلهام. شاركتنا الحديث عن الشعر.

قالت:

- في شعر نزار قباني جماليّة أخّاذة، وفيه ثورة شعرية رائعة.

إنها تتحدّث بشكل حالم عن شعر نزار. تتدفّق في أعماقها رقّة جذابة، وإحساس شاعريّ، وهي تردّد بيتَين من الشعر لنزار قباني:

"لم أعد داريًا إلى أين أذهبْ

كل يوم أحس أنك أقربْ

كل يوم يصير وجهك جزءًا

من حياتي، ويصبح العمر أخصبْ"

ما أروعك يا نزار !

أَأنتَ قلتَ هذا الكلام الذي يسبي العقل؟

أتنطلق كل هذه الروعة منكَ!

تساءلت في أعماقي عن سبب اهتمام هذه المرأة بالشِّعر، على الرغم من عملها في شركة طيران.

قلت متعجبًا:

- كيف يمكن للشِّعر والطيران أن يلتقيا؟

ابتسمت إلهام، ثم قالت:

- المسافة بينهما ليست بعيدة، بل إنهما يلتقيان حد الالتصاق. الشعر يحلّق ويرتفع بقرّائه كما ترتفع الطائرة بمسافريها.

سألتُ:

- أتكتبين الشِّعر؟

أجابت:

- كم أتمنّى أن تكون لديّ عبقرية شاعر.

قال عماد:

- أنت معجبة بشعر نزار قباني كما يبدو؟

أجابت وهي تنظر إليّ مبتسمة:

- إنه ساحر النساء، كالشاعر الإنجليزي لورد بايرون.

بدا اسم الشاعر الإنجليزي مألوفًا لديّ، لكنني لا أعرف عنه الكثير.

قلتُ:

- بايرون؟

هزّت رأسها وقالت، وقد انطلقت من عينيها الجميلتين نظرات حالمة:

- لورد بايرون، مؤلف الرائعة الشعرية "دون جوان"، فتن النساء بجماله وشِعْره. كان رقيقًا مع النساء، وسيمًا جدًّا حدّ أن النساء كانت

تركع أمامه. أحبّ العرب، لكنه، كما قال، لم يستطع أن يرتدي ثيابهم، بمعنى لم يستطع أن يتكيّف مع عاداتهم وتقاليدهم.

قلت معجبًا بمعرفتها:

– تعرفين عنه الكثير...

قاطعتْني:

– مات بايرون شابًّا، في السادسة والثلاثين، وهو يقاتل مع الجيش اليوناني ضد الدولة العثمانية. يُقال إن اليونانيين يعشقونه حدّ التقديس. له العديد من التماثيل في اليونان.

تساءلتُ:

– لا أدري كيف اشترك بايرون في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل. هو إنجليزي، فكيف، ولماذا قاتل في صفوف الجيش اليوناني ضد الدولة العثمانية؟

قالت:

– ذهب إلى الحرب كي يموت ميتة جندي مقاتل، لكنه لم يحصل على ذلك، أصابته حمّى جعلته طريح الفراش لمدة شهور.

قلتُ متعجبًا:

– حتى عندما يبحث الإنسان عن الموت، لا يجده كما يشتهيه. كان بايرون يبحث عن موت سريع، ففاجأته الأيام بموت بطيء...

قاطعتني بلهفة، كأن الحديث عن بايرون أثار عندها رغبة في الكلام.

- هو الذي قال: "استيقظتُ صباح يوم فوجدتُ نفسي مشهورًا".

قال عماد مستاءً:

- إنكما تتحدثان عن الشعر الإنجليزي، ونسيتما أننا في ندوة حول الشعر العربي.

قلتُ:

- لا أدري لماذا أشعر أن الشِّعر لا جنسية له. الشِّعر ينطلق من نفس إنسانية فقط. ما الفرق بين قصيدة تتحدث عن الموت نظمها شاعر غربي، وقصيدة تتحدث عن الموضوع نفسه نظمها شاعر عربي؟ هل قضية الموت هنا تختلف عن قضية الموت في الغرب؟

قالت إلهام مؤيّدة:

- أصبتَ، يا بهاء.

عندما قالت اسمي، خُيّل إليّ أنها تغنّيه غناءً. لم أدرِ إن كانت تتعمّد ذلك، أم إنه بسبب تأثير شعر نزار عليها في تلك اللحظة. عشقتُ اسمي عندما انطلق من حنجرتها. نظراتها إليّ جعلتْني أشعر أن عمادًا لم يعد موجودًا بالنسبة إليها. تحادثني.. تبتسم لي.. تنظر إليّ بنظرات جميلة، حتى اعتقدتُ في لحظة جنون، أنني لورد بايرون، ذلك الشاعر الولهان الذي كانت النساء تركع أمامه، ويتسابق الرسامون لرسمه. أحد الرسامين

قال: "إن بايرون أجمل رجال الأرض في عصره". أكان بايرون أسطورة جمال، وأسطورة عشق، وأسطورة شِعْر؟

مرّت دقائق، ثم بدأت الندوة. عدد من الشعراء من لبنان، وسوريا، ومصر، يشارك فيها. بقيتْ إلهام إلى جواري.

بينما كنت أنظر إلى المشاركين في الندوة، خطر ببالي ذلك الشاعر الشاب، تميم البرغوثي. كم كنت أتمنى أن أراه هنا، في بيروت، في هذا المكان، يلقي قصيدته "في القدس". دفء بيروت يحتضن حزن وآلام القدس. قلتُ في أعماقي كلمات قفزت إلى ذاكرتي:

"في القدس آلام..
وفي القدس أحلام..
وفي القدس نزاع.. وأمل في السلام..
وقلوب تنبض بالإصرار على الاستمرار..
مَنْ أنتَ؟!
مَنْ أنتَ كي تنسف أحلامي؟
مَنْ أنتَ كي تمحو حروف وجودي؟"

وبينما كنت أردّد هذه الكلمات في أعماقي، سمعت صوت إلهام يقول بهمسات عذبة:

- أودّ أن أقرأ كلّ ما تكتب من الشِّعر، يا بهاء.

قلتُ:

- هناك أشياء لا يمكنكِ قراءتها.

تساءلتْ:

- مثل ماذا؟

أجبتها:

- مثل الشِّعر الذي لا يمكن لقوة القلم أن تستخرجه من أعماق شاعر. أحيانًا، يقف القلم عاجزًا أمام إحساس إنسان.

قال عماد:

- اصمتا. أرغب في الاستماع إلى هذه القراءة الشّعرية، وإن لم تكفّا عن الكلام، فسأغادر المكان.

قلتُ مازحًا:

- خيرًا تفعل...

غرقت في صمتي، وعطر إلهام يخترق أنفي، ويتغلغل في أعماقي. أحبّ عطر النساء. يخيلّ إليّ أنّك تستطيع أن تستدلّ على المرأة من نوع العطر الذي تضعه. أشعر برغبة إلهام في الحديث إليّ، لكنها صمتت على مضض. احتبست كلماتها في أعماقها بسبب صوت الشاعر، الذي كان يلقي قصيدة بعنوان "أنوار الليل". تساءلت في داخلي: لماذا ترغب إلهام

في قراءة كلّ ما أكتب؟ تعرّفنا قبل ساعة تقريبًا، وتدفّق حديثها معي كأنها تعرفني منذ سنين. نظرتْ إليّ إلهام، وابتسمتُ إليها، كأنني وجدتُ في الابتسامة وسيلة الحوار الوحيدة بيننا في تلك اللحظة. وضعتُ يدي اليمنى على رقبتي، وهمستُ إلى إلهام:

- أشعر بالاختناق. أعتقد أنني يجب أن أذهب.

عجبتُ لعماد الذي سمع كلامي مع إلهام، فصوتي كان منخفضًا، حتى أنني كدتُ أن أسمع ما قلتُ. ابتسمت إلهام ابتسامة شاحبة، ومن عينيها انطلقت رغبة في بقائي إلى جوارها.

اقترب عماد مني وقال:

- هيّا نذهب.

بملل شديد غادرت المكان مع عماد، الذي شعر بالضيق الذي يخترق أعماقي.

قلتُ مبتسمًا:

- إلى أين؟

أجاب:

- لا تسأل. رافقني فقط.

قلتُ متسائلًا:

- وكيف ذلك؟

أشار إلى سيارته، وقال:

- هيّا اصعدْ.

صعدتُ، وقد انتابني شعور بأنني طفل تقوده أمّه حيث تريد. رأيت نفسي طفلًا لحظتها، طفلًا لا يحمل من أعباء الحياة شيئًا. ما أروع أن تخلع ثوب عبء الحياة! يجتاحك شعور بارتياح عميق.

بقيتُ صامتًا كأنني لم أقوَ حتى على الكلام. عماد يتحدّث عن طموحه في شراء سيارة جديدة.

بيروت ترتدي ليلها بجمال أخّاذ. أشعة أضوائها تتراقص كأغصان يعانقها النسيم. يا لها من مدينة عريقة! يُدْهش الإنسان أن تكون هذه المدينة الهادئة، المسالمة، قد ذاقت مُرّ الحروب، ويصعق الإنسان أيضًا أن تكون بشاعة الحروب قد وضعت بَصْمتها على جمال هذه المدينة الفائق.

أفقتُ من ذهولي، وشرود ذهني، عندما شعرت بعماد يربت على كتفي ويقول:

- لقد وصلنا.

نظرت من نافذة السيارة، التي أوقفها عماد أمام ملهى ليليّ، تتلألأ الأنوار على مدخله. نزلت من السيارة. تأملت الملهى من الخارج.

قلتُ:

- أتعتقد أن هذا المكان يليق بشاعر؟

ضحك وهو يقودني نحو الملهى، ثم قال:

– هذا هو مكان الشعراء. هنا ستتدفّق المشاعر بطريقة عجيبة. ألم يكن امرؤ القيس في بيئة كهذه؟ نساء، وخمر...

قلتُ ونحن نتقدّم نحو باب الملهى:

– أهذا هو رأيك في الشعراء؟

قال:

– شهوانيّون. أليس كذلك؟

قلتُ:

– ربما، ولكن في بيروت أماكن أجمل من هذا المكان...

قاطعني:

– ستفسد علينا ليلتنا بكلامك هذا. اعتقدتُ أنك ستطير فرحًا.

قلتُ:

– ذلك لأنك لم تعرفني جيدًا على الرغم من الصداقة التي تربط بيننا.

أمشي مع عماد دون هدف محدد. أمشي لأن قدميّ تمشيان، كأنّ دماغي لم يعد يسيطر على جسدي.

دخلنا الملهى الليليّ. موسيقى، ونساء، ورجال يترنّحون من السُّكْر. مكان تفوح منه رائحة المتعة، والشهوة. جلسنا إلى طاولة مستديرة. كم كان يلزمني من اللامبالاة كي أبقى في مكان كهذا. لم أدرِ كيف اعتقد

عماد أن مكانًا كهذا سيجعلني أطير فرحًا. أم إنه أراد أن يرافق أحدًا إلى هذا المكان فوجدني أمامه.

قلتُ:

- هذا المكان ليس فيه السحر الذي وصفته لي...

ضحك عماد، وقال:

- أنت شاعر عجيب. الشاعر الذي لا تشدّه ولا تثيره أجساد هذه النساء ليس شاعرًا.

قلتُ:

- انطباعك خاطئ عن الشعراء. إنهم مفكّرون...

قال:

- وما الذي يمنعك من أن تفكّر هنا؟ أنظر حولك؛ ألا تجد في كل هذا المكان ما يثير تفكيرك؟

ابتسمتُ. لم أجِبْ لأنني شعرت أن كلامي لن يقنعه بشيء.

اقتربتْ من طاولتنا امرأة جميلة ترتدي تنّورة قصيرة، أما القسم الأعلى من جسمها فشِبه عارٍ. جلستْ قبالتنا. راح عماد ينظر إليها بنظرات غريبة. شعرتُ أنه يعرّيها بخياله.

سألتها:

- ما اسمكِ؟

أجابت:

- نتالي.

قلتُ:

- اسم فرنسي، أليس كذلك؟

قالت ضاحكة:

- هو كذلك.

سألتها:

- ماذا يعني؟

أجابت:

- لا أدري.

قلتُ:

- لا أستطيب فكرة أن يحمل إنسان اسمًا دون أن يعرف معناه.

سألتْ:

- ما اسمكَ أنتَ؟

أجبتُ:

- بهاء.

سألت وهي تنظر إلى عماد:

- وأنتَ؟

أجاب وهو ينظر إلى ما بين نهديها:

- عماد.

قلتُ كأنني أردتُ أن أخبرها بأننا لا حاجة لنا بها:

- أتينا إلى هنا مصادفة.

كدتُ أضحك على نفسي بعدما قلتُ ذلك. كيف يأتي إنسان إلى مكان ما مصادفة؟ فهو يرى شخصًا مصادفة، ويتعثر بشيء مصادفة، ولكن أن يأتي إلى مكان ما، فهذا ليس مصادفة. أين المصادفة عندما تفكّر، وتقرر، أن تذهب إلى مكان ما؟ غادرت المرأة، كأنها أدركت ما قصدتُ.

استاء عماد وقال:

- عرفتُ أنك ستفسد سعادتي منذ دخلتَ الملهى. لا أدري كيف ترفض امرأة في غاية الجمال. أنت غريب يا بهاء. ألا تشتعل من الإثارة؟ نهداها يثيران اهتمامًا رجاليًّا...

قاطعته ضاحكًا:

- ويثيران اهتمامًا دوليًّا كجندي إسرائيليّ مخطوف، وربما جنونًا دوليًّا كمفاعل نووي في بلد عربي.

ضحكنا معًا. شعرت أن ضحكتي تنطلق من أعماقي. قد تكون ضحكتي هي الفائدة الوحيدة التي استفدتها من مجيئي إلى هذا الملهى. فجأة، سمعت نتالي تصرخ. التفتُّ خلفي، فرأيتها تتشاجر مع امرأة

أخرى. توجّهت مع عماد نحوها. ذهبت المرأة التي كانت تتشاجر مع نتالي وقد غرقت في البكاء.

قلتُ:

- لا حاجة للبكاء.

قالت وهي تجفف خديها بيديها:

- تكرهني النساء، ويشتهيني الرجال...

قاطعتُها:

- هذا شأن كل امرأة جميلة.

ما أهمّني أن أسأل نتالي عن أسباب شجارها مع المرأة الأخرى التي كانت أقل جمالًا وإثارة، فربما كان سبب الشجار رجلًا، أو مالًا، أو غيرة.

ذهبت نتالي.

نظر إليّ عماد وقال:

- أثار اهتمامك بكاؤها، ولم يثر اهتمامك نهداها. أكاد لا أفهمك...

قلت مبتسمًا:

- رأيتُ في بكائها مسألة إنسانية...

قاطعني:

- ونهداها؟

قلت:

- لا شأن لي بهما.

ضحك عماد، ثم غادرنا المكان.

الفصل الثاني

أيامي في بيروت تصطبغ بلون الورود أحيانًا.. تفوح منها رائحة السعادة أحيانًا أخرى.

أتردّد على عيادة الطبيبة لينا بين الوقت والآخر. الحديث بينها وبيني يتجاوز الحديث عن الأمراض والعلاج. أحدّثها عن نفسي، وأجد عندها رغبة في الاستماع. أشعر بسعادة عندما أحدّثها عن نفسي، وأجد عندها رغبة في الاستماع.

الملل.. شعور مؤلم.. شعور يُقيّد الأعماق. ربما هو شعور ناتج عن اعتقاد راسِخ لدى الإنسان من أن الأشياء حوله، وفي أعماقه، قد فقدتْ قيمتها. أخشى الشعور بالملل، لذلك جعلت من القراءة وسيلة لسحقه.. لنزعه من أعماقي.

زوجتي حصلت على عمل في إحدى المؤسسات الاجتماعية الخاصة. أسعدني ذلك، لأن عملها سيزيد دخلَنا.

بخطى متثاقلة، توجهت إلى الحمام كي أستحمّ، وأحلق ذقني. عندما خرجت من الحمام، جاءت زوجتي من عملها. بدت متعبة. جلستْ على إحدى الأرائك، ولم تتكلم، كأن التعب شلّ لسانها. أحبها عندما تدخل بيت الصمت، فالصمت يساعدنا على ترتيب الفوضى الداخلية. هي، على العكس، صمتي يشعلها غيظًا.

ذهبتُ إلى حجرة النوم، واخترتُ ملابسي التي أرغب في ارتدائها. هناك متعة في اختيار ملابسك. إني ذلك النوع من الناس الذي لا يعجبه اختيار الآخرين له، حتى زوجتي.

عدتُ إلى غرفة الجلوس. زوجتي في المطبخ تعدّ طعام الغداء. جلستُ على الأريكة التي كانت زوجتي تجلس عليها. تساءلتُ: "لو كان لدينا طفل، هل سيغيّر كثيرًا في حياتنا؟ ولماذا لم أنجب حتى الآن؟" لم يُقلقني كثيرًا عدم وجود طفل في حياتنا قدر ما كان هذا الأمر يقلق زوجتي.

اقتربت زوجتي مني وقالت:

- الطعام جاهز.

كم أذهلني أن يكون السرير، وطاولة الطعام، المكانيْن اللذيْن يجمعاننا! كم كرهت ذلك الفتور بيننا.

أيامنا تمرّ.. بفتورها.. بالملل الذي يغلّفها.. بصمت يطعن الأعماق.. تمرّ.

تناولنا طعام الغداء بصمت تخلّله القليل من الكلام مثل: "الطعام لذيذ،" ، وأفضلّ الطعام الساخن." كلمات ساذجة.. تافهة.. ربما وجدت زوجتي فيها بعض الدفء.

عصر ذلك اليوم، قررّتُ أن أذهب إلى لينا كي أكمل علاج أسناني. يجتاحني شعور بالارتياح عندما أزورها. جلست أقرأ في أحد الكتب حتى يحين موعد الزيارة.

لم أدرِ كيف مرّت الدقائق، ولم أدرِ كيف ابتلعتْ صفحات الكتاب بين يديّ الوقتَ. كان في ذلك الكتاب تحايل على الوقت.

إنها الساعة الخامسة عصرًا. إني في غرفة الانتظار.. عند لينا. غرفة الانتظار لا يوجد فيها ما يسرّ النفس. يحدّق المرضى في بعضهم كأنهم يفحصون بعضهم. نظراتهم تثير استياء الأعماق. نظرات تعرّيك وأنتَ ملفوف بألحفة السكون.

جهاز التلفاز المثبّت في الحائط أشعرني بأنّ الآخرين غير موجودين، وأنه لا يوجد في غرفة الانتظار أحد غيري، كأنه يغطّيني، ولا يسلّيني. هذا ما شعرت به لحظتها. لا أدري إنْ كانت الطبيبة قد وضعت الجهاز في غرفة الانتظار كي تسلّينا أم تغطّينا.

جاء دوري.. إني أدخل غرفة الطبيبة مرتاح البال. يشرق وجهها بابتسامات جذّابة، ويغلّفها المرح. قد يستطيب الإنسان الألم الذي يقوده إلى مكان تشرق فيه الابتسامات الحميمة، والمرح.

سألتني وهي تجلس خلف مكتبها:

- كيف حالك؟

أرغب أن أقول لها إنني أشتاق إلى هذه الدقائق القصيرة التي تجمعنا، لكنني ابتلعت مشاعري على مضض.

قلتُ:

- بخير.

حتى عندما نكون في أسوأ حال، فإننا نجيب بهذه الكلمة على سؤال يستفسر عن حالنا. كيف نكون بخير ونحن في أسوأ حال؟ كأن هذه الكلمة تنطلق بطريقة لا شعورية.

في ابتساماتها دعوة صامتة للحديث.. في مرحها جاذبّية لا تقاوَم، وفي صوتها عذوبة.

سألتني:

- أكتبت شيئًا جديدًا؟

فاجأني سؤالها. توقعتُ أن تسألني عن الألم في فمي، لكنني سُرِرْتُ. ما سرّني هو اهتمامها بما كنتُ أكتب.

أجبتها:

- أكتب بين الحين والآخر.

سألتني مرة أخرى:

- وما هي آخر قصائدك؟

أجبتها:

- ليس شيئًا يستحق الذِّكْر.

قالت:

- سأرى أسنانك.

جلست على كرسي الفحص، ثم استلقيتُ كي تتمكّن لينا من فحص فمي. إنها تقترب مني وهي تحمل إبرة التخدير. تؤلمني إبرة التخدير في الوقت الذي تثيرني فيه لمسات يديها. ما هذه الازدواجية في لمسات يديها؟ يداها تعملان بطريقة مزدوجة.. تؤلمني.. تثيرني.

خدّرتْ الفك العلوي، على عكس ما كنت أتوقع؛ لم تطلب مني أن أنتظر في غرفة الانتظار بضع دقائق كي يسري التخدير في الفك. عادة ما تطلب من مرضاها الانتظار في الغرفة المجاورة. شعرتُ بالسعادة لأنني رأيت في ذلك معاملة خاصة. يسري التخدير في فمي والكلمات تتثاقل.. تتشابك في بعضها.

لا أحبّ أن أتكلّم وأنا في حالة تخدير، لكنني لم أدرِ لماذا شعرتُ أنني أرغب في الحديث معها، حتى عن أمور لا تعنيها، ولا تخصّها كطبيبة. فيها شيء عجيب يثير الحديث. لم أدرِ ما هو بالتحديد. ربما مرحها.. ربما ابتساماتها.. ربما معاملتها اللطيفة، وربما ألف ربما، ففيها أشياء كثيرة أكاد لا أحصيها.. أشياء تستنطق صمتي.

تحدّثتُ عن ميولي في الشعر وقلتُ:

- أحبّ الشِّعر.

سألتني:

- منذ متى وأنت تكتب الشِّعر؟

أجبتها:

- منذ كنت طالبًا في الجامعة. كانت محاولات بسيطة في الكتابة. لكنني بدأت بكتابة القصائد قبل عشر سنوات تقريبًا.

قالت:

- إن كتابة الشِّعر أمر رائع.

جاء كلامها مختصرًا، قليلاً، في الوقت الذي تدفّقت فيه كلماتي. أهي تقيس كلامها كما تقيس المادة المخدّرة التي تعطيها لمرضاها؟ كيف لها أن تقيس الكلمات أمام شاعر يُمطر كلامًا.. يمطر أحاسيس، ومشاعر؟

قلتُ:

- في كتابة الشِّعر متعة لا يبلغها إلاّ مَنْ يكتب الشِّعر.

قالت:

- ربما...

"ربما" هذه جعلتني أتأرجح بين اهتمامها وعدمه بالشِّعر، فلو كانت من المهتمّين بالشِّعر لأجابت: "بالتأكيد"، ولو كانت من غير المهتمّين بالشِّعر لأجابت: "هذا غير صحيح". لكنها أجابت: "ربما". أكانت تقصد ربما نعم، أم ربما لا؟

لم أستوضح الأمر منها، لأنني أعلم من خلال معرفتي البسيطة بها أن أجوبتها ثابتة، فلو استوضحت الأمر فلن تخرج "ربما" التي قالتها من صندوق ربما. ولم أدرِ لماذا أردتها أن تكون مهتمة بالشعر؟ ألكي أجد شيئًا مشتركًا بيننا؟ أم لأنني لا أجيد التحدّث في أمر بعيد عن الشِّعر؟ بقيتْ الأمور على حالها، فلا أنا أدركتُ معنى "ربما" هذه التي قالتها، ولا هي أدركتْ استيائي المُضمَر من كلمتها.

اقتربتْ منّي، وراحتْ تفحص التخدير في فمي. في لمساتها الأنثوية شيء يثير ما هو أكثر من الإثارة.. في اقتراب وجهها من وجهي أقصى درجات المتعة. لا أدري ما هي أقصى درجات المتعة. معها، ومعها فقط، تتداخل المشاعر والأحاسيس، وتذوب في بعضها بحيث تخرج عن قوائم التصنيف.

لم أدرِ ماذا تفعل هي في فمي. تُدخل أدوات، وتُبْعد أدوات أخرى. بدَا فكّي كأنه مفصول عن رأسي بسبب التخدير، وفي جهات أخرى من جسدي اهتزاز متصاعد سببه اقتراب وجهها من وجهي. وجهها على بُعد قُبْلة من وجهي. أطيل النظر إلى شفتيها المطبقتين. أطيل النظر وأتخيّل قُبْلة شرسة.. عنيفة. زلزال الإثارة يضربني، فأي دمار ألْحقتْ بأعضائي؟

أنا أدرس تفاصيل وجهها دون أن أحفظ منها شيئًا. إنها تجرح فمي بأدواتها.. تملأ أعماقي إثارة بلمسات يديها، فأي ضحية غدوتُ؟

غريب أمر هذا الجسد!

لماذا لم تُثِره نتالي الجميلة التي وهبت نفسها له؟ نتالي التي لم تجرح فمي، ولم تؤلمني.

ولماذا تثيره هذه المرأة التي تؤلمني بالإبر التي تغرزها في فمي؟ كيف للألم العميق أن يُنْجِب متعة أعمق؟

إني رجل المتناقضات إثارة..

هي امرأة الألم بمتعة..

وقفتْ لينا، وابتعدتْ عني كي تغسل يديها.

أثار غيظي ابتعادُها عني، وأثار مشاعري قربها مني.

لماذا؟

أهي استجابة فسيولوجية عادية؟ أم هو الحُبّ؟

هذه المرأة، كما الحياة، توجّه إليكَ دعوة كي تأخذ ما تشاء، وتشتهي، دون أن تقدّم لك شيئًا. يصعقني منطق الحياة هذا.

غسلتُ فمي، وجلستُ على كرسي قبالتها، بينما كانت تدوّن بعض المعلومات على ورقة أمامها.

في هدوئها ثورة تزلزل الجسد..

مِنْ صمتها تنطلق أروع القصائد. أي نوع من القصائد هذه التي يُطلقها الصمتُ؟

لم أدرِ لماذا بدتْ في عيني بذلك الجمال الفتّان.

حدّدتْ لي موعدًا آخر لاستكمال العلاج بعد أسبوع. سرّني ذلك.

أصبحت أسناني مصدر سعادتي.

❊ ❊ ❊

بعد يومين، اتصلتْ إلهام بي، وطلبتْ أن ألتقيها، في مكان ما، كي تناقش كتابًا معي. لم أجد سببًا لرفض اللقاء، فقبلتُ طلبها.

أخبرت زوجتي بأنني ذاهب كي ألتقي سيدة تريد أن تناقش كتابًا معي. كما توقعتُ؛ لم تطلب زوجتي أن تذهب معي، واستطابت فكرة البقاء في البيت بعد ساعات عمل طويلة.

أفضّل أن ترافقني، لكنّ الاهتمامات الأدبية لا تستقطبها. لم أدرِ لماذا لم يحرّك لقائي مع إلهام غيرة زوجتي. أكانت تعتقد أنني ذاهب لأسباب

أدبية محضة، لا تستدعي وجودها معـي؟ أم إن ثقتهـا بي وصلـت إلى حـدّ عدم الاكتراث؟ لم أسألها، ربما لأن إجابتها لم تعنِني، وربما لأنني وجـدت في صمتها حرية لي يجب أن أحسد نفسي عليها. لا تقودني الأسئلة أحيانًـا إلى استيضاح الأمور بقدر ما تقودني إلى الغموض.

وصلت إلى المكان. إنه أحد المطـاعم وسـط بـيروت. توقعـتُ أن أجـد إلهام تنتظرني، لكنني لم أجدها، فجلست أنتظرها. خصّصتُ خمس دقائق للانتظار، فإن لم تأتِ خلال هذه المدة فلا معنى لوجودي في ذلك المكان، عند طاولة خُصِّصت لاثنيْن.

لم أدرِ ما هو الكتاب الذي أرادت أن تناقشه معي. منذ أن رأيت إلهـام شعرتُ بالارتياح معها، ربما بسبب اهتماماتها الأدبية.

في وقـت مـن الأوقـات، ينتابـكَ شـعور بأنـك تحتـاج إلى شـخص مـا، بغض النظر عن اهتماماته، وطريقة تفكيره، وقدرته على التأثير فيكَ. ربـما يحدث ذلك عندما تقع في مستنقع الملل الذي يجاور اليأس. لكنني لم أكـن في حالة كهذه في تلك اللحظة. إني أخشى الملل حدّ الرعـب، لأنـه شـعور يقضي على قيمة الأشياء، والأشخاص.

لم أدرِ مـاذا يجـول في تفكـير هـؤلاء النـاس في المطعـم. الـبعض يأكـل، والـبعض يـشرب المـشروبات البـاردة أو الـساخنة، والـبعض يـضحك، والبعض يتحدّث، أما أنـا فأتيتُ إلى المطعـم كـي أنـاقش كتابًـا. لم أدرِ مـا

الذي جعل إلهام تدعوني إلى مطعم كي تناقش كتابًا معي. لماذا لم تدعُني إلى مكان آخر؟

رفعتُ عينيّ، فرأيت رجلًا وحيدًا مثلي، يجلس إلى طاولة يقرأ جريدة. ما أذهلني هو قراءة ذلك الرجل لجريدة عربية في مطعم.

خطرتْ ببالي فكرة جنونية لحظتها، وهي أن أذهب إليه، وأقول له: "إن الجرائد العربية لا تُقْرأ في المطاعم كي لا تُفْقِدنا الشهية للأكل، ولا تُقْرأ في المستشفيات كي لا يموت المرضى حُزنًا، ويفقد الأطباء تركيزهم في عملهم، ولا تُقرأ في المدارس كي لا تيأس الأجيال، فاختر مكانًا أنسب لقراءة جريدة عربية، وإنْ سألني: "أين مثلًا؟" فكنتُ سأجيبه: "النَقُلْ في مقبرة." وإنْ سألني: "لماذا؟ "، فسأجيبه: "لأنّ الذين تقرأ عنهم لا يختلفون كثيرًا عن الذين تقف عندهم."

لكنني لم أذهب إليه، ولم أقلْ له شيئًا خوفًا من أن يشكّ في سلامتي العقلية، فما الذي يجعلني أذهب إلى رجل لا أعرف عنه شيئًا، وأقول له كلامًا غريبًا؟

تُرى، ما الذي يقرؤه ذلك الرجل في الجريدة، وبهذا التركيز؟ إنه ينظر إلى الصفحة الأولى.. يا لهوْل مصائب الصفحة الأولى. إما إنّه يقرأ عن لبنان الذي فُرِضتْ عليه حروب ظالمة، وإما عن فلسطين الحزينة، وإما عن العراق الهزيل، وإمّا عن حوثيي اليمن. تصعقه مصائب وهموم

الشرق الأوسط بدقَّة. الصفحة الأولى؛ صفحة الرصاص المطاطي في الرأس، والرصاص الحي في القلب.

نظرتُ إلى ساعتي. مرّتْ عشر دقائق بدلًا من خمس دقائق، ولم تأتِ إلهام. أنستْني تلك الجريدة الوقت، وجعلت الدقائق تتداخل في بعضها. إنها تسبّب اضطرابًا زمنيًّا، وربما اضطرابًا مكانيًّا.

بعد دقيقة أو دقيقتين، سمعتُ صوتًا نسائيًّا يقول:

– بهاء...

التفتُّ خلفي. إنها إلهام. في إشراقتها، ومرحها، وابتسامتها الجميلة. وضعت حقيبة يدها على الطاولة.

ابتسمتُ، وقلتُ:

– اعتقدتُ أنّكِ لن تأتي.

أجابت باندفاع ولهفة:

– لا يمكن لي أن أتجاهل موعدًا معك.

أردتُ أن أستدرجها إلى اعتراف آخر فقلتُ:

– حقًّا؟

أجابت كأنها استجابت لاستدراجي لها:

– أشعر بسعادة معكَ. ما أجمل الدنيا وأنا معكَ!

ابتسمتُ، ونظرتُ إلى عينيها. عيناها تبرقان بسعادة عميقة. إنّ أصدق ما يقوله الإنسان يكون بعينيه، وليس بلسانه. لم تكن تحمل كتابًا كما أخبرتني. يبدو أنها، وعلى عكس توقعاتي، لم تأتِ من أجل كتاب، وإنما من أجلي.

سألتُ كأنني لا أريد أن أصدّق ما أرى، وربما لأنني أردت أن أبيّن لها أن الكتاب هو سبب وجودي معها:

- أين الكتاب الذي تريدين أن تناقشيه معي؟

لاذت بالصمت، كما توقعتُ. اختفت ابتساماتها، كأنها أدركت أنني أتيتُ من أجل الكتاب، وليس من أجل أن أكون معها. لم أدرِ كيف كان وقع كلامي عليها، ولم أدرك مدى الحزن الذي أصابها. لكنّ إثارة حزنها، ومضايقتها، لم تكُن هدفي. رأيتُ أن أتابع حواري معها بطريقة عشوائية. نحن لا نفكرّ بعمق في وقع الكلمات على أشخاص تربطنا بهم علاقة عادية. تفكيرنا العميق في وقع الكلمات يكون على مَنْ نُحبّ ونعشق.

سألتُ بابتسامة، كأنني أريد أن أضعها على أرجوحة الجدّ والفكاهة:

- أين الكتاب، أم إنه لا وجود له؟

فتحتْ حقيبتها بصمت، وعلى غير توقّع أخرجت كتابًا متوسط الحجم. فاجأتني احتياطاتها، وربما استصغرتُ نفسي بسبب سرعة الحكم عليها. يبدو أنها أخرجت الكتاب بعد أن شعرت بإصراري على مناقشته.

كم يبدو الإنسان صغيرًا أمام نفسه، وأمام الآخرين، بسبب سرعة الحكم بطريقة خاطئة على الأشياء، والأشخاص.

ما زلتُ لا أستطيع أن أحدّد: هل جاءت من أجل الكتاب، أم من أجلي؟ إنْ هي أتتْ من أجله، فلماذا صمتت طويلًا، واختفت ابتسامتها عندما سألتها عنه؟ وإن هي جاءت من أجلي فقط، فما معنى وجود الكتاب في حقيبتها؟ يحيّرني أمر نفسي التي تتسلّق بإصرار نحو تفاصيل الأشياء، والأشخاص. نفسي تحلّل، وتفحص، وتدقّق. فلماذا كل هذا؟ هي الأمور تبدو أجمل بكلّياتها، وليس بتفاصيلها أحيانًا. لا يهمّني إذًا.. لا يهمّني إنْ هي أتتْ من أجلي، أو من أجل الكتاب.

نظرتُ إلى الكتاب بين يديها. إنها رواية "باب الشمس"، للأديب اللبناني إلياس خوري. تساءلتُ في أعماقي عن سبب اهتمامها بهذا الكتاب بالتحديد، ورغبتها في مناقشته معي. هل تهتمُ بهذه الرواية لأنها تتحدث عن فلسطين؟ هل تجد علاقة بين هذا الكتاب وبيني لأنني لأجيء فلسطينيّ في لبنان؟

أمسكتُ بالكتاب، ثم سألتُ:

- هل قرأتِ الرواية؟

أجابت بسرعة، وبابتسامة جميلة:

- ثلاث مرات...

قاطعتها:

- رواية جميلة. أليس كذلك؟

أجابت:

- إنها رائعة. إنها تخترق معاناة شعب شُرِّد حتى أعماق الأعماق.

أعجبني تحليلها للرواية.

قلتُ:

- من سخرية الحياة أن يصبح وجودنا قضية رأي، ووجهات نظر. قضية الوجود لا تحتمل الوسطية؛ إمّا أنكَ موجود، وإمّا أنك غير موجود. فلماذا وجودنا نحن تلتهمه الموانع؟

قالت:

- حدّثني عن فلسطين.

عجبتُ لسؤالها، فمعرفتي عن وطني لا تتجاوز معرفتها هي. قلتُ بحزن:

- معرفتي عنها لا تتجاوز معرفتك أنت، فأنا لم أرها في حياتي. ولدتُ ونشأت هنا في لبنان. أقرأ عنها. سمعت حكايات جدّي عنها.. فلسطين جريحة.. حزينة.. لكنها باقية.. باقية إلى أن تستنطق صمت التاريخ.

وضعتْ يدها على الكتاب، الذي بين يديّ، بتعّمد موارب. راحت يداي تقلبان صفحات الكتاب هاربتيْن من لمسة لم تشعرا بدفئها. كأنها

شعرت بهروب يديّ، فوضعت إلهام يديها على الطاولة. أعجبني طلاء أظافرها.. اللون الذهبي.. لون الأشياء الثمينة.. لون يُبْهر العيون.

غرقتْ إلهام في صمت استمرّ دقائق. لا شيء يقتل أنوثة المرأة غير شعورها بأن الرجل لا يرغبها، ولا يشتهيها. لكنني لم أقصد أن أوصلها إلى هذا الشعور. إنها امرأة جميلة. لا يكفي أن تكون المرأة جميلة كي تثير مشاعر الرجل. هناك أشياء أخرى، لم أدرِ ما هي بالتحديد.

أقدّر مشاعرها تجاهي، لكنني لم أشعر أن تقديري لمشاعرها يستطيع أن يتجاوز حدّ الكلام.

قلتُ، كأنني أعتذر بطريقة غير مباشرة عن هروب يدي:

- أنتِ لطيفة، وجميلة، يا إلهام.

قالت، كأنها أدركتْ أنني أجاريها، أو أجاملها بكلمات لا تنطلق من الأعماق:

- ليست كل الأشياء الجميلة تثير حبّنا، وليست كل الأشياء تحمل صفات مُطْلَقة.

أصبحتُ أتساءل في أعماقي:"ما الذي يجعل جسدي ساكنًا أمام جمال ومشاعر هذه المرأة؟ لماذا لا تحّركه مشاعرها، ولا تزلزله أحاسيسها".

لذتُ بالصمت كأنني أردتُ أن أبيّن لها أنها على حق. تثير حبّنا، وإعجابنا، أحيانًا أشياء تافهة، ينقصها الجمال. لا أدري ما سِرُّ هذه

الغرابة في التكوين البشري. كم يلزمكَ من المنطق لتفسير أمور لا تخضع قطعيًّا للمنطق.

رفعت يدي إلى النادل، وطلبتُ كأسيْن من عصير الليمون. لم أسأل إلهام إن كانت تفضّل الليمون، أو شيئًا أخر، ربما لأنني اعتقدتُ أنها ستستطيب ما أطلب. إنها غارقة في الصمت والهدوء، ربما تفكّر في حقيقة ما يجول في داخلي تجاهها. لم أسألها. تركتها في هدوئها.

جاء النادل، ووضع كأسين من عصير الليمون على الطاولة.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وقلتُ وأنا أمسك بكأس العصير:

- كأس عصير الليمون هذا حقيقة مُطلقة...

قاطعتني:

- ربما الحزن في أعماقنا حقيقة مُطلقة أيضًا..

ابتسمتُ ابتسامة شاحبة، وقلتُ مؤيدًا:

- هذا أكيد.

نظرتُ إليها وهي تشرب العصير، ثم قلتُ:

- ولكن، ما الذي يعجبك في رواية "باب الشمس"؟

أجابت:

- كلها. قصّة شعب شرّد دون حق، وهذا يكفي كي يثير التعاطف. لكن أكثر شخصيات الرواية إثارة للتعاطف هي شخصية عدنان، الذي

كـان في سـجن إسرائـيلي، وأُفـرج عنـه في عمليـة تبـادل أسرى في العـام (1983)، وأصيب بعد ذلك بمرض عصبي في مخيمّ برج البراجنة.

قلتُ حزينًا:

– كأن الأيام استثنتْنا من عدالتها!

ردّت قائلة:

– كلامك تفوح منه رائحة الاستسلام، وهذا لا يليق بشاعر. الـشاعر معروف بثورته ورفضه وتمرّده. ألا تُسمعني إحدى قصائدك؟

وضعت كأس العصير الفارغ على الطاولة، ثم قلت:

– سأنـشر ديوانًـا شـعريًّا يحتـوي عـلى قـصائد جميلـة. سأنـشره هنـا في بـيروت. سـتقرئين القـصائد عنـدما يـصدر الـديوان الـشعري. لكـن، سأطربك بجزء من قصيدة محمود درويش "لاعب نرد":

"ومن حسن حظي أني أنام وحيدًا فأصغي إلى جسدي.

وأصدّق موهبتي في اكتشاف الألمْ

فأنادي الطبيب، قُبيل الوفاة، بعشر دقائق.

عشر دقائق تكفي لأحيا مصادفةً.

وأخيّب ظنّ العدم؟

منْ أنا لأخيّب ظنّ العدم؟"

رجعت إلهام إلى الخلف، وقالت بإعجاب:

- الله! ما أعظمك يا درويش! ولكن، هذا الشعر ملفوف بالحزن...

قاطعتها:

- ألم تقولي: إن الحزن في أعماقنا حقيقة مُطْلَقة؟

قالت:

- أهذه حالتك المزاجية الآن؟

أجبتُ:

- الحزن والشاعر متلازمان.

سألتْ كأنها تريد أن تخترق أعماقي:

- ما هو هدفك في الحياة، يا بهاء؟

سؤالها جعل عقلي يفرد مجموعة كبيرة من الأهداف على خشبة مسرح الحياة. الحرية، والنجاح، والشِّعر، والحبَّ، واللاحب، والشهرة، وربما.. ربما في وقت من الأوقات لا شيء.

أجبتُ كأنّ آخر هدف استقطبني:

- لا شيء.

صعقها جوابي. فغرت من الدهشة فاهًا، ثم قالت متعّجبة:

- لا شيء؟! أيعقل هذا؟! ولكن لماذا؟ لماذا هذا، يا بهاء؟ إنك شاعر، وسيكون لك شأن عظيم، فلماذا هذا الشعور؟

أجبتها:

- هذا ليس شعورًا. إنه فِكر...

تساءلتْ:

- أهناك فرق؟

أجبتها:

- ربما...

سألتْ مرة أخرى:

- ولكن، أخبرني.. لماذا تجد في اللاشيء هدفًا لك؟

أجبتها:

- ربما لأن اللاشيء يشكّل صفعة قوية لمنطق الحياة...

قاطعتْني:

- وصفعة قوية لوجودكَ أنتَ. كلامك غريب!

لا بدّ أنها تشكّ في سلامتي العقلية. نظراتها تقول إنني أهذي، وإنني أقول كلامًا يشكّل هجومًا شرسًا على العقل والمنطق. لم أكترث كثيرًا بما اعتقدتْ.

قلتُ كَمَنْ يرغب في الانسحاب:

- دعينا من هذا الكلام.

عادت تتحدث عن الشِّعر، فقالت:

- شِعْر محمود درويش يقود من الإدراك السطحي للأشياء إلى الإدراك العميق، ومن الشعور السطحي إلى الأحاسيس العميقة.

وضعت يدها عل الكتاب أمامها، وأردفتْ تقول:

- أريد أن تعلّمني الشِّعر، يا بهاء.

قلتُ:

- الشِّعر، كما الحبّ، ينطلق من الأعماق مدفوعًا بقوى لا سيطَرة لنا عليها. أرأيتِ شخصًا يعلّم أحدًا كيف يحبّ؟

نظرتُ إلى ساعة يدي. إنها الثالثة عصرًا. أعطتني رواية "باب الشمس" كي أقرأها، ثم غادرنا المكان بصمت، كأنها أدركت أنّ هدف "اللاشيء" أغلق باب الحديث.

* * *

مرّت الأيام، والشهور، وأعاصير الحبّ تجرفني نحو العشق.. عشق مشبّك بالممنوع.. عشق يرتدي ثوب اللامنطق.

البيت هو المكان الذي تكون فيه مع ذاتكَ، وحول ذاتكَ، وفي أعماق ذاتكَ، وفي بيتك ترتدي حقيقة نفسك. في مغاور أحزاني أحلل ما أنا فيه. إني بين امرأتين. الأولى طبيبتي التي أميل إليها، والثانية صديقتي التي تميل إليّ.

ولكن..

أين زوجتي؟ أين موقعها؟ ما هذه الفوضى التي سكنتْني؟ ما يؤلمني أن علاقتي مع زوجتي أصبح يحكمها التعوّد. كيف سارت الأمور هكذا؟

فتور يغلّف علاقتي مع زوجتي..

حبّ يتعمّق تجاه طبيبتي..

وإعجاب بصديقتي..

ما هذه الفوضى النسائية التي تجتاح جسدي؟ أي ثورة عاطفية هذه التي تندلع في أعماقي؟ شيء ما يصرّ على الانطلاق من أعماقي.. شيء ما يتوق إلى الخروج من عالم الكبت.. شيء ما يشتهي المساحات الفارغة.

إنها قصيدة "بين يديك". تأتي كلمات القصيدة متدّفقة كما لو أنني أنسخها، وتأتي مشتعلة بالإثارة. بينما كنت أكتب القصيدة لم يفارق وجه لينا عينيّ. وجهها، وعيناها، وشفتاها، ويداها، وصدرها، وابتسامتها، وضحكتها، وتفاصيل جسدها.

فالمرأة، كما الشِّعر..

وجهها عنوان قصيدة..

وجسدها أبيات شعرية..

تنطلق منه قافية أبديّة..

وفي دفئه تفعيلة نرجسية..

هي التفعيلات المجزوءة والكاملة معًا..

وهي رواية بكل أبطالها..

فمَن تكون هي؟

هي الشِّعر، والبحر، والرواية..

هي القصة، والخاطرة، والحكاية..

أكتب القصيدة عنها ومن أجلها. أكتب لأنني أشعر برغبة في الكتابة، وربما لأنني أريد أن أخبرها أنها ستكون موضوع قصائدي في الديوان الشِّعري الذي أنوي نشره، ولكن لماذا؟ ربما رشوة لقلبها كي تحبّني، وربما رشوة للأيام كي تقودني إلى قلبها.. رشوة للوقوف أمام جسدها..

أقف طويلًا..

آملًا.. متأملًا..

راجيًا.. باكيًا..

ثائرًا.. هادئًا..

صامدًا.. منهارًا..

لماذا هي؟ لماذا يمتزج دفئها بحبر قلمي، فتنطلق الكلمات دافئة دفء جسدها؟

فَلْيَكن الشِّعر رسولي إلى قلبها..

موعدي معها غدًا..

ما أجمل الغد!

ألم أسناني..

ومتعة جسدي..

سأخبر لينا بأنني أكتب ديوانًا شعريًّا، وبأنها سترى نفسها في ثنايا، وتفاصيل، وعناوين قصائده. ولذكائها أن يقرّر أين ستكون هي.

دخلتْ زوجتي وهي تحمل فنجان قهوة. قدّمته لي وهي تبتسم. ابتسمتُ في وجهها، وشعور بالذنب يسري في أعماقي. أتدري زوجتي أنني أنظم قصيدة لا تعنيها.. قصيدة لامرأة أخرى تزلزل أعضائي؟ أتدري أنه لا سيطرة لي على نفسي؟ أتدري زوجتي أنني أحبها، ولكنها لا تثيرني كما تثيرني لينا؟

كان في ابتسامتي في وجه زوجتي ما يخفّف من شعوري بالذنب. أيمكن أن نخفّف من شعورنا بالذنب بابتسامة؟ ما أشد بُخلي! لماذا لم أعانقها؟

جلست زوجتي أمامي، وسألتْ:

– ألا تشعر بالتعب؟

قلتُ:

- الكتابة تعبٌ مغلّف بالمتعة.

اعتدلت في جلستها، ثم ارتسمت ابتسامة ملفوفة بالاستياء كأنّ كلامي لم يقنعها.

سألتني:

- ألا تريد أن تنام؟

رجعت إلى الوراء في مقعدي. هي تريدني إذًا. لم تسألني ماذا أفعل، ولم تسألني ماذا كتبتُ. ولماذا ألومها على عدم اهتمامها بقصيدتي؟ أليست القصيدة موجهة لامرأة أخرى؟

رحتُ أحتسي القهوة بصمت. أما زوجتي فغادرت المكان، كأنها أدركت عدم مبالاتي. شربت قهوتي وعدتُ إلى القصيدة. أحذف كلمات، وأضيف كلمات أخرى. أضع فواصل، وأدقّق في المعاني، والقوافي، والتفعيلات. قصيدتي بدتْ لي أكثر أهمية من ليلة حبّ.. هكذا شعرتُ.

قضيتُ تلك الليلة مع كلمات القصيدة.. كلمات تسبح في العاطفة والعشق.. كلمات فيها دفء جسد المرأة، وفيها رعشة الحبّ، والعِشق المتطرّف.

ذهبتُ إلى سريري الساعة الخامسة صباحًا.

***

ثمة أشياء تبدو أجمل عندما لا تعرفها تمامًا، وتعرف تفاصيلها. ثمة أشخاص يبدون أجمل عندما لا تخوض في تفاصيلهم. ألا تبدو الشمس أجمل عندما لا نتعمّق في تفاصيل مكوّناتها، وألهبتها المحرقة القاتلة؟ ألا يبدو القلب أجمل دون التفكير في شرايينه، وأمراضه، وتفاصيل مكوّناته؟ هكذا بدتْ لينا بالنسبة إلي؛ أجمل، وأشهى دون معرفة تفاصيلها.

بينما كنت أجلس قبالتها في عيادتها، صعقتني صورة لولدين. تُرى مَنْ هما؟ ولداها؟ قريباها؟ لم أسألها في لقاءاتي السابقة معها إنْ كانت متزوجة أم لا. كنت أخشى من كلمة "نعم"، فرأيت أنْ لا أسألها كي تبدو أجمل. ولكن، ما الذي جعلها تضع الصورة في ذلك الإطار على مكتبها؟ تضعها بطريقة تمكّن الداخل من أن يراها. هل وضعتْها هكذا وكيفما أتّفق، أم كان الأمر خُبْثًا أنثويًّا متعمّدًا؟

لم أدرِ لماذا شعرتُ، وقتئذ، أنها وضعتْ الصورة هكذا كي أراها، كأنها تريد أن تخبرني بأن لها بيتًا وزوجًا، وعائلة، كأنها تقيم جدارًا عاليًا بيننا. تضع الحدود بيننا كما تُرسَم الحدود بين الدول كي لا تعتدي دولة على أخرى. أأصبحنا دولتيْن بحدود وُضِعَتْ من طرف واحد؟

لم أدرِ. خشيت أن أسأل مَن هذين الطفلين في الصورة خوفًا من إجابة لا تسرّني. بدا الطفل الأول في الخامسة من عمره، أما الطفل الثاني فبدا في الثالثة.

وضعت الكتاب الذي كان بيدي على الطاولة، وتجنبتُ النظر إلى الصورة. انتابني شعور غريب لحظتها، وهو أنني إذا أشحتُ النظر عن الطفلين، فإنهما لن يكونا موجودْين. أيقضي عدم النظر إلى الأشياء على وجودها؟ أيُعقل هذا؟ ما هو موجود فهو موجود، ولو أدرتَ له ظهرك العمر كله؛ فالبحر لا يلغي عدم النظر إليه وجوده، كذلك القمر، والجبال. لكن لماذا أتجنب النظر إلى صورة الطفلين؟ ربما لأنني لا أريد أن أرى شيئًا يثير حزني.

اعتلت وجهها ابتسامة جميلة، وسألت كعادتها:

- كيف حالك؟

لم أستطع أن أقاوم ابتسامتها. ابتسمتُ وأنا متألم؛ متألم بسبب تلك الصورة. معها، ومعها فقط تفرُّ ابتساماتي، وضحكاتي، بطريقة لا يمكنني السيطرة عليها. لكنّ سؤالًا ينطلق من أعماقي: مَنْ أنا كي أحاسبها على زواجها؟ أي منطق في أن أحاسبها على زواجها؟

استرقت النظر إلى الصورة، ورحتُ أقارن من حيث التشابه بينها وبين الطفلين. أردتُ أن أعرف علاقتها بهما في الوقت الذي كنت أخشى فيه المعرفة.

أجبتها محاولًا إخفاء ما يختلج في داخلي من مشاعر:

- على أحسن حال. سهرتُ ليلة أمس حتى وقت متأخر...

قاطعتني بابتسامة معذِّبة:

- ولماذا؟

أجبتها باندفاع:

- كنت أكتب قصيدة.

ابتسمتْ. هي دائمًا هكذا.. كلامها قليل.. تصعقني، وتدوّخني، بابتساماتها.

سألتْ مدفوعة بحبّ استطلاع.

- قصيدة؟ عن ماذا؟

أردت أن أخفي مشاعري تجاهها، لذلك لم أخبرها أن قصائدي لها، ومن أجلها. كم كان مؤلمًا أن أخفي مشاعري تجاهها! شعرتُ أن لساني عاجز عن التعبير عمّا يجول في أعماقي، فأردتُ قصائدي أن تتكلّم بالنيابة عني.

أجبتها بعد صمت، وبغموض متعمّد:

- عن أشياء كثيرة. عندما أنشر ديواني، سأعطيك نسخة منه.

ابتسمتْ كعادتها. شعرتُ بسعادتها في أن تأخذ كتابًا من تأليفي. أمّا أنا، فشعرت بفرحة جارفة لسعادتها.

سألتْ:

- ومتى سيصدر الديوان الشِّعري؟

أجبتها:

- بعد بضعة أشهر.

شعرتُ أنها تقف على حبال الانتظار. يبدو أن موضوع الكتاب قد أثار اهتمامها، وقد يكون الديوان الشِّعري طريقي إلى قلبها. أردتُ أن أخفي عشقي عنها، فتحدّثت عن زوجتي كي أبين لها أنني رجل متزوج، وأنني محصّن من الحُبّ. هكذا أردتها أن تفهم عندئذ. أردتها أن تدرك أنني مريضها فقط. ولكن، هل الزواج مناعة ضد الحبّ؟ ما أشد غبائي! إن الذين قالوا إن الزواج يحصّن ضد الحبّ أخطأوا. من الحبّ ما يخترق أكثر قلاع الزواج تحصينًا.. مِنَ الحُبّ ما يزلزل سكون الكلمات.. كلمات تتوق إلى جسد قصيدة يحتويها.. إلى عشق قارئ يفك تأويلها.

عيناها تشرقان بجمال أخّاذ..
شفتاها تشتعلان بحمّى مُحرقة.. تثيران ذكورتي..
وابتساماتها تضع جسدي على أرجوحة المتعة..

قلتُ:

- زوجتي لطيفة، وتتجنب إثارة غضبي. يخيّل إليّ أحيانًا أنها أطيب مَنْ عرفتُ، غير أن اهتمامها بالأدب محدود، وربما معدوم.

هزّت لينا رأسها مبتسمة ابتسامة لم أدرك معناها بالتحديد؛ أكانت ابتسامة سرور، أم ابتسامة تعجّب من كلامي عن زوجتي، أم ابتسامة لا مبالاة بكلامي؟ لم أستطع أن أحدّد، ولم أدرِ ما الذي دفعني إلى الحديث عن زوجتي أمامها. ربما لأنني أردتُ أن أظهر لها أنني طيّب المعشر، وربما لأنني أردتُ أن أبيّن لها أنني لستُ فارغ العاطفة، فزوجتي تحبّني، وتطلب ودّي، وتُرضيني، وربما لأنني رأيت أنه من غير اللائق أن أتحدّث عن زوجتي بطريقة غير لائقة أمام الغرباء. ربما كل هذه الأسباب مجتمعة.

لا يستغرقني وقت طويل في تحليل ابتسامات ونظرات الآخرين، ولكنْ مع لينا، فإن الأمر دائمًا مختلف.

لذتُ بالصمت، ونظرت إليها. ما أجمل نظراتها! نظراتها يلّفها الهدوء، والثورة، والتمرّد.. يلّفها الحب، واللاحب.. يلّفها الغموض. كم يشدّني غموض نظراتها!

ابتسمتْ مرة أخرى، ربما لتقطع حَبْل شرود ذهني في عينيها، وقالت:

- دعني أرى أسنانك.

طلبها هذا جعلني أشعر بالانفعال. فحص أسناني يقرّبها مني.. يقرّب وجهها من وجهي، وأنفاسي تعانق أنفاسها. تثيرني أنفاسها الساخنة عندما تلفح وجهي، فلا أشهى من ذلك إلاّ تقبيلها. تزداد ضربات قلبي

عندما أشعر بيديها الناعمتين الدافئتين على وجهي. يا إلهي.. كم كان يلزمني من الانضباط وقتئذ! كم كان يلزمني من الصّبر لحظتها! أكانتْ تشعر بمدى الألم في فمي، وبمدى الإثارة في جسدي؟ الألم، والإثارة، والرغبة الجامحة، في وقت واحد كما التناغم.

يا امرأة..

ماذا فعلتِ بهذا الجسد؟

كيف أصبح يرتعش بين يديكِ كعصفور مبتلّ؟

أكلّ هذه الإثارة أحدثتها ملامسة يديكِ؟

بربّكِ.. ماذا سيحدث بجسدي إذا لامست شفتاي شفتَيكِ؟ أي نار ستشتعل؟

إنها الآن تقترب مني، وتنظر في فمي، وأما أنا، فأحدّق في شفتيها المطبقتين لوعة، ولهفة، واحتراقًا. ما أشهاهما!

لن أكون غبيًّا فأقول إنني أشتهي أن أقبّل شفتيها، بل سألتهمهما، فلا تطفئ حرائق جسدي إلاّ فنون الالتهام..

أي منطق في أن يكون وجهي على بعد قُبْلة من وجهها دون أن أجرؤ على تقبيلها؟

كم كنت أتمنى أن تأتي قوى سحرية عجيبة تلقي بشفتيها على شفتيّ كي أكون في حِلٍّ من الاعتداء على أخلاقيات مهنتها.

جنون شاعر.. وحكمة طبيب..

أيها الجسد..

لماذا تصرّ على أن يلتقيا؟

أيمكن ذلك؟

مَنْ يستطيع أن يلاحق جنون شاعر؟

مَنْ يستطيع أن يخمد ثورة وتمرّد شاعر؟

انتهت من فحص أسناني، وكم كنت أتمنى أن يستمر علاجي العمر كله. جلستْ خلف مكتبها، وجلستُ قبالتها، ثم رحت أتأملها صامتًا وهي تدوّن بعض المعلومات.

أسترق النظر إلى الصورة؛ صورة الطفلين التي أثارتْ غيظًا ممزوجًا بالحزن في داخلي. تساءلتُ في أعماقي: "لماذا يغيظني، ويضايقني، وجود هذه الصورة؟ ألانني عرفتُ أنها متزوجة؟ وما الذي يضايقني في زواجها؟ ألأنّ الزواج يحصّنها من الحُبّ؛ حبّي أنا؟ ألنْ يكون في قلبها مكان للحبّ والعشق"؟ ولكن، الذي أراحني هو وجودي معها، مهما

كانت ظروفها. لن يمنعني زواجها من أن أراها وأتحدّث إليها كمريض، وكعاشق أيضًا، هكذا شعرتُ.

ابتسمت لينا، وقالت وهي تطعن قلبي بنظراتها:

- سلامتكَ.

عرفت أن لقائي معها قد انتهى، فهي عادة ما تقول ذلك عند انتهاء الزيارة. تجتاحني رغبة في أن أردّ عليها بقولي: "سلامتي بين يديكِ، ومعك فقط. يمزّقني فراقك". لكنني وقفت صامتًا مبتسمًا، وقلبي يودّ البقاء معها. كم يؤلم القلب هزيمته أمام منطق العقل!

غادرت المكان وصدري مشتعل بحزن فراقها.

عدتُ إلى بيتي أهذي بشفتيّ لينا. كنت في شهوانية عجيبة عندئذ إلى درجة أنني شعرتُ أن قُبْلة محمومة لشفتيها تعادل الدنيا وما فيها بالنسبة إلي!

جلست على إحدى الأرائك، أشاهد التلفاز كي أخفي شرود ذهني، وأتظاهر بألم أسناني. ألم الأسنان له منفعة أيضًا؛ إنه يغلق أبواب الكلام عندما لا تشعر برغبة في الحديث.

أحلل نفسي الآن.. إني أعتلي جسرًا بين امرأتيْن؛ زوجتي التي أحبّها، ولا تثير شهوتي، ولينا التي أهيم بها، وأشتهيها حدّ الجنون. ما معنى حبّي لزوجتي إذا كنت لا أشتهيها؟ أهو حبّ كحبّ الأم، أو الأخت؟ أهو

حبّ بحكم التعوّد عليها؟ وما معنى حبّي للينا التي لا أشعر أنها تبادلني الشعور نفسه؟ أتأرجح متألّمًا بين امرأة تشتهيني ولا أشتهيها، وامرأة لا تشتهيني وأشتهيها. أي شقاء هذا؟

ينخر قلبي الشعور بالذنب تجاه زوجتي بسبب مشاعري تجاه لينا. ما ذنبها في هذا الجنون العشقي الذي أصابني؟ ما ذنبها في هذا التطرّف العاطفي الذي يسيطر علي؟

ولكن.. مَنْ هي كي تحاسبني على أمر لا سيطرة لي عليه؟ ربما عِشْقنا كلون بشرتنا، وكلون عيوننا، يُخْلَقُ فينا ولا سيطرة لنا عليه. إن كان الأمر كذلك، فمَنْ له الحق في محاسبة عاشق؟

يمزّقني صمت زوجتي أحيانًا، ويزيدني تدليلها لي ألمًا، ربما يختفي شعوري بالذنب تجاهها لو كانت تطلق قذائف من الأسئلة مثل: ماذا؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟ وكيف؟ لكنها تداعب صدري، وترسم قُبُلاتها على صدري، ووجهي، وعنقي، وصدري، وتبذل جهدًا مضاعفًا كي تثيرني.

فأي الرجال أنا؟

رجل أستقطبه دور المتلقّي، بدلاً من المشاركة..

أتلقّى القُبُلات بصمت صنم، وأتلقّى مداعبتها لي بسكون جُثّة..

ما أسوأني!

لماذا تثيرني لينا بصمتها، وغموضها، ولا مبالاتها؟

ولماذا أتلقّى، كالأبله، قُبُلات ومداعبة زوجتي؟ ليتني أهتدي إلى الإجابة.

ربما في الجسد جوع نوعيّ للحب والعشق والإثارة كما فيه جوع نوعيّ للطعام.

في تلك الليلة، نهضت من سريري بعد ممارسة حبّ مع زوجتي. اتصال جسدي مدفوع بالواجب، وتجنّب اللّوم. توجهت إلى مكتبي. أفكر في كتابة قصيدة تتلاطم كلماتها في أعماقي كالأمواج.

الشِّعر، والبحور، والقصائد..

أي بحر يحتوي قصيدة مشتعلة بعشق صارخ.. بعشق متطرّف؟

أهو البحر المتدارك؟ أم البسيط؟ أم الكامل؟ أم الطويل؟ أم الهزج؟ أم الوافر؟

يا بحور الشِّعر..

كيف تحتوون عشقًا ثائرًا زلزل قوانينكم؟

كيف تحتوون جسد امرأة يمتد إثارة عليكم جميعًا في آن؟

يا تفعيلات البحور استقيلي..

لا يمكنكِ أن تحتوي كلماتي وأشعاري

فعشقي هذا ليس كعشق قيس، ولا جميل، ولا قبّاني.

عشق يعلن الحرب على قوانين الشِّعر..

عشق متطرف يسحق حماقة المنطق..

حبيبتي..

أي تفعيلة تدرك شفتيكِ؟

أي بحر يدرك جسدك الثائر ضدّ كل قوانين البحور؟

بعد منتصف الليل، عدتُ إلى سريري بعد أن غلّفني النعاس. أفكرّ في لينا قبل النوم كما لو كان التفكير فيها مهدّئًا يقود إلى الاسترخاء والراحة.

***

استيقظت ذلك الصباح من نومي، أسترجع ذلك الحلم وأنا أردّد بيتيْن من الشعر للشاعر قيس بن ذريح:

"وإني لأهوى النوم في غير حينهِ/ لعل لقاء في المنام يكونُ

تحدثني الأحلام أني أراكمُ/ فيا ليت أحلام المنام يقينُ"

كم غمرني ذلك الحلم بالسعادة. لم أجرؤ على تقبيل شفتيها في يقظتي، وقبّلت شفتيها في أحلامي. قُبْلة لم يدرك أكثر الشعراء عشقًا، وشهوانية، وصفَ إثارتها. كيف يصف الشعراء قُبْلة تعادل الدنيا؟

إني أسترجع تلك القُبْلة كما لو كانت درسًا أحفظه.. أسترجعها بتفاصيلها.. بإثارتها.. بحرائقها. أسترجعها بدقّة، وتركيز، وبأهمية بالغة، كما لو كانت قضيّة عالمية.

ها هي أصابعي الراعشة على شفتيها، فلا أشهى من ملامسة شفتيها إلاّ ملامسة شفتيها. وضعت رؤوس أصابعي، ثم أبعدتها، ثم وضعتها متأمّلًا تلك الإثارة المتصاعدة على وجهها المشرق. أحرقني انفعالها، وانتشرتْ في جسدي ذبذبات العشق والرغبة. تستقطبني حرائق شفتيها، ويشدّني دفء صدرها. برعشة متصاعدة، وببطء متعمّد، اقتربت شفتاي من شفتها السفلى، ثم العلوية، ثم عادتا إلى السفلى، ثم إلى العلوية، كما لو كانتا تراوغهما، ثم قبّلت شفتيها الحارقتين، وأما جسدي فتلتهمه حرائقهما. إني رجل تحييه الحرائق، وتطيل عمره براكين الإثارة.

شفتاها مشكلة أدبية..

فلا الشِّعر يرتقي إليهما..

ولا الرواية تخترق تفاصيلهما..

من معاني جسدها تصدر معاجم اللغة كلها..

أمرّغ وجهي في وسادتي، وأنا أتمنى لو استمرّ ذلك الحلم الدهر كله.

إنها تسكنني..

أصبحتُ أراها في كل الأماكن..

في سريري، وفي أحشاء وسادتي..

في وجوه الآخرين، وأراها في جسد زوجتي..

في ثنايا ملابسي، وفي زجاجة عطري..

أراها في الشوارع، وفي أعماق بيروت..

هي.. هي..

على رفوف الكتب، وفي كل الصفحات.. هي.

أسمع صوتها الذي أدمنتُ عليه في أصوات مآذن المساجد، وأجراس الكنائس. قبلها لم أكن أصدّق أن الإنسان يُدمن على صوت مَنْ يحبّ. الإنسان يُدْمن على الكحول، والمخدرات، ولكن كيف يُدمن على صوت مَنْ يحبّ؟

إنها نسفت معتقداتي بطريقة عجيبة. أشعر أن صوتها يخترق خلايا جسدي، ويستقرّ فيها، ويجدّدها، وينعشها. توتر، واضطراب، يجتاحان جسدي إذا غاب صوتها. هو صوتها الذي يقودني إلى هدوء الأعماق، ويقضي على اضطراب الذات. أصبحتُ أعيش بها وعليها، وأعيش.. أعيش من أجلها كأنها أصبحت هدفًا.

سيّدتي.. طبيبتي.. حبيبتي..

أدمنتُ صوتكِ..

بربّكِ أخبريني..

كيف أتناول جرعات صوتك؟

كيف تجعلين من صوتك وصفة طبية لمريض أصبح صوتكِ يشفيه ويحييه؟

الفصل الثالث

مُنْتَفِخًا بقصائد العشق غدوتُ..

مَسكونًا بالهيام أصبحتُ..

تتقافز القصائد على الأوراق البيضاء الواحدة تلو الأخرى، كما لو كانت حبّات سُبحة. رنّ هاتفي الخليوي فجأة. نظرتُ إلى الرقم على الشاشة. إنه رقم إلهام. ماذا تريد إلهام يا تُرى؟ أتودُّ أن تخبرني بشيء ما؟

عادة لا أستجيب للمؤثرات من حولي إذا كنت غارقًا في رغبة مستعرة للكتابة، لكنني وجدتُ نفسي مدفوعةً بفضول يَنْدر أن أشعر به عندما يكون قلمي مشغولًا في تفريغ أعماقي.

ضغطتُ على زرّ الاستقبال، وسمعتُ صوت إلهام يقول:

- ألو.. أين أنتَ يا بهاء؟ لم أركَ منذ شهرين.

ابتسمتُ ابتسامة حزينة، لأنني كنت أتمنى لو كانت لينا هي التي يقلقها غيابي، وليس إلهام. ما أعجب الدنيا! وما أعجب الناس! يتعلّق بكَ مَنْ لا يهمّك أمره، ويتجاهلك مَنْ تتعلّق به.

حاولتُ أن أكون لطيفًا مع إلهام، فهي امرأة طيّبة ولطيفة. أخذتُ نفسًا عميقًا، ثم قلتُ بصوت هادئ:

- أهلًا إلهام. كيـ...

قاطعتْني:

- أريد أن أراك. أيمكن ذلك؟

سألتها، كأنني سألتقي بها:

- متى؟

أجابت بلهفة:

- اليوم عصرًا، إن أردتَ، أو ليلًا، أو غدًا...

إنها تضع مجموعة من الخيارات، ربما كي تفوّت عليّ الاعتذار عن لقائها، كأنها تقول لي وبطريقة غير مباشرة: "اختر الوقت الذي يناسبكَ." لكنني على الرغم من احتياطاتها لم أشعر برغبة في ذلك اللقاء.

قلتُ بطريقة جادّة:

- أنا مشغول لبضعة أيام.

أجابت:

- يأتي على الشعراء وقت يغرقون فيه في العمل، لكن باب الإلهام ليس مفتوحًا دائمًا.

جاءت كلماتها كأنها لم تفقد الأمل في اللقاء في وقت آخر، أو هكذا أوحت إليها جملتي الأخيرة عندما قلت: "أنا مشغول لبضعة أيام." كأنني جعلتُ باب اللقاء مفتوحًا بعد أسبوعين، أو شهر مثلًا.

انتهت مكالمتي معها، ووضعتُ هاتفي على الطاولة. لم يكن انشغالي في قصائدي هو سبب عدم رغبتي في الالتقاء بإلهام.

شعرت لحظتها بإصرار جسديّ وعاطفيّ عنيد على أن تكون لينا وحدها معي، وحولي، وفي أعماقي. مشاعري تجاهها آخذة في العمق والتطرّف إلى حدّ يخرج عن كل المقاييس.. تسوق جسدي إليها.. تقود قلمي إلى أبجديّة جسدها.

ليس لديّ قدرة على أن أوزّع مشاعري على مجموعة من النساء، فأنا لست حلمًا أمريكيًّا ممتدًّا عبر القارات. هي لينا.. قارّة عشقي، وليس لي في قارّات عشقية أخرى مآرب، أو مصالح تغريني. انتابني شعور عجيب عندما رفضتُ أن ألتقي بإلهام في مكان يجمعنا أنا وهي فقط. شعرتُ أنني أخلص لامرأة أعشقها أكثر مما أخلص لامرأة أتزوجها. أهو إخلاص أم عبودية؟ لا أدري ما هو بالتحديد. كم أنا فاشل في إعطاء الأمور مسمّياتها الصحيحة!

عُدتُ أتأمّل القصائد التي كتبتها خلال بضعة شهور، أي منذ عرفتُ لينا. عشرون قصيدة.. عشرون قصيدة ستقول لها ما لم أستطع أن أقوله لها. ديوان شعري عنها، ومن أجلها. إنه كتابها. هكذا قلتُ في أعماقي. قرّرت لحظتها أن يكون إهداء الكتاب إليها لأنها هي الملهمة. اعتقدتُ، في لحظة عشقية مجنونة، أن الفضل يعود إليها في كتابة الديوان الشعري تلك.

يداي ترتعشان وأنا أكتب صفحة الإهداء، لأنني أخشى أن لا يعجبها ما أكتب فيها. وبعد أن ردّدت كلمات الإهداء في عقلي، وبرعشة متصاعدة كتبت: "إلى مزلزلة قلبي، ومزلزلة قلمي. حبيبتي." تجنّبتُ أن أذكر اسمها كي لا أسبّب لها الإحراج أمام الآخرين، فليس مقبولًا في أخلاقيات مهنة الطبّ أن يخاطب مريض طبيبته بكلمات كهذه.

كم كنت أتمنى أن أذكر اسمها في ديواني الشعري كي يرتبط اسمي باسمها على مرّ العصور. لكنني وجدت نفسي مقيّدًا برسن أخلاقيات مهنتها، وقيود زواجها، فماذا ستكون ردّة فعل زوجها إن هو رأى اسم زوجته متبوعًا بكلمات عشقية في ديوان شعريّ تشتعل عشقاً؟ أفكّر في جميع الاتجاهات، وأدرس جميع الاحتمالات.

***

بعد بضعة أيام، ذهبتُ إلى لينا. عدتُ إليها من أجل مراجعة طبية، وربما من أجل مراجعة عشقية. لم أعد قادرًا على أن أحدّد. إني في عذاب عميق تنطلق منه متعة العشق.

ما أبهى الوجود معها!

ما أشهى ملامسة يديها في مصافحة تمنيّتُ لو دخلت عالم التحنيط!

ما أجمل الحديث معها، والخلوة بها!

أما شفتاها، فحكاية أخرى..

إنهما تزيدانني احتراقًا كلما اقتربتُ منهما، فكيف أقترب؟!

وتزيدانني قهرًا وغيظًا كلما ابتعدتُ عنهما، فكيف أبتعد؟!

كنّا على أبواب شهر رمضان المبارك. في وقت سابق، قرّرت أن أنقطع عن زيارتها، احترامًا لشهر الصيام، فمشاعري تجاهها تهزم ضبط النفس.

قلتُ مبتسمًا وبحزن يسري في جسدي:

- سأكمل علاجي بعد شهر رمضان.

توقعت أن تسألني: "لماذا؟"، ولكنها فاجأتني بابتسامة مَنْ عرف السبب. ابتسامة جذابة انتشرت على وجهها كالأنوار. يا لذكائها! أهي تدرك ما يجول في داخلي تجاهها؟ كيف عرفتْ؟ هل قرأتْ عشقي في عينيّ؟ أم استَدَلّتْ عليه من تلميحاتي؟

بعض الأوقات، تجد في الإشارات الضمنية، والتلميحات، الأسلوب الأفضل كي تُضْعف قدرة الطرف الآخر على الردّ، فالكلام الموارب يجعلكَ تقف على مفترق طرق المعاني.. يتحدّى ذكاءكَ، لكن الكلام المباشر يوجّه لشخص عاديّ بسيط. لم يكن في كلامي الموارب عن مشاعري تجاهها رغبة في اختبار ذكائها، أو حتى مشاعرها، لكنني كنت أخشى من الصدّ، والرفض.

إني أجلس قبالتها الآن بعدما انتهتْ من العلاج. أتأمّل وجهها الذي كلما رأيته فقدتُ إحساسي بما حولي. سألتني:

- ما هي أخبار ديوانك الشِّعري؟

كدتُ أطير فرحًا لسؤالها، فقد شعرتُ بسعادة غامرة لاهتمامها بديواني، وشعرت برغبة شديدة للانتهاء منها كي تكون بين يديها، كي تقرأ ما يجول في داخلي تجاهها، لعلّ شعري يستطيع أن يخترق قلبها.

أجبت مبتسمًا:

- تأليف الكتاب ليس أمرًا سهلاً، لكن هناك متعة لا يمكن وصفها في التأليف إذا كان هناك مَنْ يُلِهم.

غرقتُ في الصمت وقلتُ في أعماقي: "تُراها أدركتْ ما أعني؟ تُراها أدركتْ أنها حبيبتي وملهمتي؟ أم تعتقد أنّ كلامي ينطلق هكذا، وكيفما اتفق؟"

اعتدلتْ في جلستها، ثم قالت، كأنها أدركتْ المعاناة التي يواجهها الكاتب في التأليف:

- إن القارئ يمكنه أن يقرأ الكتاب في ساعات، ولا يعلم مدى المعاناة التي يواجهها الكاتب، ولا الجهد الذي يبذله عند التأليف.

أعجبني أنها تقدّر ما أفعل، وأسعدني أنها وجدت في تأليف الكتب أمرًا عظيمًا يستحقّ الثناء والتقدير.

قلت مؤكّدًا كلامها:

- إن أعظم وأثمن ما يمكن أن يقدّمه الكاتب لِمَنْ يحبّ هو كتاب قضى شهورًا، وربما سنين، في تأليفه. قضى سنين في المعاناة، والألم. هل يمكنكِ أن تتصوري أنّ الكاتب الفرنسي فيكتور هوجو قضى أربع عشرة سنة في تأليف كتاب "البؤساء"؟

تساءلت متعجّبة:

- أربع عشرة سنة في تأليف كتاب؟! هذا وقت طويل..

قلتُ:

- وقت طويل، وشاق.

سألتني:

- في أي الأوقات تفضّل أن تكتب؟

سؤالها يشير إلى أنها بعيدة عن عالم الكتابة والأدب، لأنها لا تـدرك أن الكتابة ليس لها وقت محدد. أسعدني أنها تنـاقش الـشّعر معـي عـلى الـرغم من اهتمامها المحدود، وربما المعدوم بالأدب. ولكن لماذا تنـاقش مواضـيع أدبية معي؟ هل هي تجاريني؟ أم إنها مهتمة بالأدب حقًّا؟ أم إنهـا معجبـة بي؟ لم أستطع أن أحدد، ولم أسألها.

وضعتُ يدي على الطاولة، وقلتُ:

– ليس هناك وقت محدّد للكتابة، غير أن هدوء الليل يثير رغبة عجيبة في الكتابة، والحـبّ أيـضًا، فـلا يمكننـي أن أكتـب عـن شـخص لا أحبّـه. الحبّ العميق الصادق يقود إلى أعلى درجات الإبداع. هذا رأيي.

هزّتْ رأسها دلالة الإيجاب. أكانت تؤمن بما أقول، أم إن الأمر كله لا يخرج عن إطار المجاراة؟

افترضتُ أنها تؤمن بما أقول، لذلك أردفتُ أقول:

– كان الشاعر امرؤ القيس يستهويه عشق النساء المتزوجات...

قاطعتني ضاحكة:

– ولماذا؟

أجبتها:

– كان يثـيره أن تـترك المـرأة زوجهـا مـن أجلـه، كأنـه يـشعر بنـوع مـن الانتصار على أزواج عشيقاته.

كلامي عن امرئ القيس وعشيقاته جاء متعمّدًا، ففيه دعوة مواربة لها كي تحذو حذو عشيقاته، وتقتدي بهنّ. ولكن هيهات.. هيهات. لينا الطبيبة، والذكية، لا تؤثّر فيها كلمات كالتي قلتها عن امرئ القيس. هي امرأة يقودها العقل، أما أنا فتقودني العاطفة كالغيوم التي تسوقها الرياح. لكن، وعلى الرغم من كل هذا، ففي أعماقي إصرار قوي ينطلق بطريقة عجيبة على اختراق قلبها على الرغم من معرفتي بتحصيناته. إنه ليس ذلك النوع من الإصرار المدفوع بالتحدي، والرغبة في الإنجاز، أو الانتصار. إنه إصرار مدفوع بعشق عميق يتغلغل في خلايا الجسد.

سألتها كأنني أريد أن أتأكد من اهتمامها بديواني الشعريّ:

– هل ستقرئين ديواني الشعريّ؟

هزّتْ رأسها مبتسمة، وقالت بنبرة حاسمة:

– أجل.

قلتُ، كأنني أردتُ أن أستدرجها إلى جواب أكثر توضيحًا:

– لكنك تقولين إنك لا تهتمين بالأدب ولا بالشِّعر، فكيف ستقرئين ديواني الشعري؟

ابتسمتْ. هي دائمًا هكذا، تصعقني بابتسامات جميلة بغموضها عندما أكون متلهّفًا إلى الجواب. لم أدرِك معنى ابتسامتها. توقعتُ أن تقول: "على الرغم من عدم اهتمامي بالأدب، لكنني سأقرأ الكتاب لأنه

كتابكَ." لكنها لم تقل ذلك، وصعقتني بابتسامة غامضة معذِّبة، تمنّيْتُ لو أدركتُ معناها. ما معنى ابتسامتها يا تُرى؟ أتعني أن عدم اهتمامها بالأدب لن يجعلها تقرأ كتابي؟ أم إنّ لكتابي مكانة خاصة عندها، لذلك ستقرؤه؟ تُتعبني الاحتمالات.

سألتها، كأنني أردتُ أن أنتزع منها جوابًا دقيقًا:

- هل ستقرئين ديواني الشعري؟

أجابتْ وهي تهزّ رأسها دلالة الإيجاب:

- سأقرؤه بالطبع.

أسعدني جوابها، وفي أعماقي شعرتُ بالامتنان كأنّها في قراءتها للديوان الشعري تسدي لي معروفًا. اجتاحتني فوضى من الأفكار وقتئذ بحيث لم أدرِ مَنْ يصنع معروفًا مع الآخر، أنا أم هي؟ أيمكن أن تصنع معي معروفًا في قراءة ديوان شعري؟ ما أهمني مَن يصنع معروفًا مع مَنْ، بقدر ما أهمّني اهتمامها بالكتاب.

عُدتُ إلى منزلي ذلك اليوم. لم أنَم تلك الليلة إلاّ بضع ساعات. رحتُ أراجع عناوين القصائد، وأدقّق في القوافي، والتفعيلات، والمعاني. رأيت نفسي كطالب يعدّ نفسه للامتحان.

إني أراجع كلمات القصائد بدقّة متناهية وأنا أتساءل في أعماقي عن رأيها في كل كلمة. شعرتُ بأهمية رأيها في كل قصيدة. يهمّني رأيها في

الديوان الشعري أكثر مما يهمني رأي النقّاد والقرّاء، كأنني أكتب ديواني لقارئ واحد فقط؛ هي.. هي الناقدة، والقارئة، والملهمة.

***

ها هي بيروت تستقبل شهر رمضان، والناس يرتدون ثوب العبادة والغفران.

لكنني..

أتأرجح بين العبادة والعشق..

لينا تغزو تفكيري..

تجتاح جسدي بأسلحة أنوثتها الفتّاكة..

تلوح صورتها في ذهني أثناء إفطاري..

أثناء سحوري..

وتغزو عقلي..

في صلواتي.. وفي عمق دعواتي..

وفي الليل يستقطبها اللاوعي..

إنها تقتحم أحلامي بإغراء أنثويّ لا يُقاوم..

تقتحم أحلامي في الليل وفي النهار..

إنها تغزوني في منامي وفي يقظتي بشراسة العشق..

أهي تُبطل صيامي؟ أم تنْقضُ وضوئي؟ أم تنتزعني من عبادتي؟

يا امرأة..

كيف تقتحمين علاقتي مع الله هكذا، وبهذه الجرأة؟

كيف ولماذا ألقيتِ بي في بئر الضياع؟

يا رب.. يا الله..

كيف أقتلعها من تفكيري؟

كيف أقتلعها من خلايا جسدي؟

في الوقت الذي كنت أُرغم عقلي على نسيانها بكلّ ما أوتيت من إيمان وانضباط ولو لشهر واحد، أجد نفسي أتوق إلى رؤيتها، أو إلى سماع صوتها على الهاتف.

في الوقت الذي كنت أمقتها في أعماقي، أجد جسدي غارقًا في اشتهائها..

أمقتها لفرط اشتهائي لها..

وأكرهها لفرط عشقي لها..

وأبتعد عنها لفرط تقديسي لها..

يا امرأة المتناقضات..

يا امرأة المتاهات..

هزمتِ انضباطي..

"إن كنتُ لا أستطيع أن أراها، فلماذا لا أسمع صوتها؟ إني أعشق صوتها"، قلت لنفسي.

يحدث لي أنني عندما أرغب في أن أسمع صوتها، أقترب من الهاتف الخليوي بلهفة قوية، وبرغبة جامحة، وما أن أمسك بالهاتف كي أطلب رقمها، تغلّف يديّ وجسدي رعشة قوية إلى درجة أنني أخفق في الضغط على أزرار الهاتف. رؤوس أصابعي لا تضغط على رقم هاتفها بشكل صحيح. أحاول مرة أخرى، ومرّة ثالثة، إلى أن أسمع صوتها. وما أنْ تقول كلمة: "ألو"، حتى ينتفض جسدي فرحًا لأنها تردّ على اتصالي. وما أن تقول: "أهلاً بهاء،" حتى أشعر بسعادة مَنْ مَلَك الأرض. أهي تدرك أن كلمتين فقط، لا تكلفانها شيئًا، تَقْلبان كيان رجل سعادة؟ تغيّران مفاهيمه. إنه يؤمن الآن أن في الحياة، على الرغم من تفاهتها، ما يستحقّ..

بصوتها تفتح أبواب الأمل والسعادة. بنبرات صوتها تروي صحراء جسدي فتغدو حديقة غَنّاء.

لم يعد صوتها حالة إدمان وحسب، بل غريزة جسدية، كما النوم والجوع والعطش. أيمكن أن يعيش جسد إذا ماتت غرائزه؟!

أعشق صوتها كما لو كنتُ عبدًا له. أسعد كلما هاتفتها ووصلني صوتها مُغلِّفًا جسدي بالنشوة، فأشكر في أعماقي غراهام بيل، مخترع

الهاتف، الذي أتاح لي اختراعه أن أسمع صوتًا لا يسعدني فحسب، بل يحييني. وألعن بيل وأسبّ اختراعه عندما لا تردّ لينا على اتصالي. أهي بخيلة حتى في صوتها؟ أتستكثر قليل كلامها على شخص أعطاها بسخاء حبًّا أعلن الحرب على البُخل؟

مرّ شهر رمضان بين الاتصال بها هاتفيًّا، والتفكير فيها، ورؤيتها في المنام.

وجاء العيد..

جاء العيد خاليًا من البهجة والسعادة. هكذا رأيته. على غير عادة الناس، قضيت أيام العيد في منزلي أراجع ديواني الشعريّ. أدقِّقه. أنقّحه. أضيف وأحذف إلى أن أخذت الشكل النهائيّ. قضيت أيام العيد في منزلي كأنّ العالم لم يعنِني. لم يعنِني سوى ذلك الديوان، كتابها الذي وضعت عنوانًا له: "أزهار في حدائق جسدكِ".

في وقت لاحق تلك الليلة، زارني عماد. إنه، كعادته، مغلّف بالمرح أو هكذا بدا لي. جلسنا في غرفة مكتبي، وقدّمت زوجتي لنا قهوة مُرّة.

قال عماد مستاءً:

– ما هذا أيها الشاعر؟ تدفن نفسك بين هذه الأوراق ثالث أيام العيد، وتقدّم لي قهوة مُرّة؟! غريب أمركم أيها الشعراء.

نظرت إلى الأوراق أمامي على الطاولة، ثم نظرت إلى عماد، وقلت بنبرة حزن ممزوجة بالهدوء:

- لست أدفن نفسي بين هذه الأوراق، بل إنها وما فيها مدفون في أعماقي. سيصدر ديواني الشعريّ قريبًا، لذلك قضيت أيام العيد أدقق في تفاصيل القصائد.

نظر إليّ بصمت كأنه أدرك الجهد الكبير الذي أبذله في نشر الديوان. هل شعر بالشفقة عليّ، أم أدرك مدى الجهد الذي يبذله الكتّاب في التأليف؟ لم أدرِ؟

شرب قهوته، ثم سأل:

- ولكن أخبرني، ما هو عنوان ديوانك الشعريّ؟

قلتُ وأنا أضع يدي على الأوراق أمامي كأنني أخشى أن يأخذها:

- لا أتحدث عن دواويني الشعرية قبل النشر. يجب أن تصبر. ولكن يمكنني القول إنها قصائد حبّ.

قال:

- ذلك يعني أنك غارق في الحبّ. أأنت كذلك؟

ابتسمتُ، ليس لأنني عاشق، بل لأنه توقّع أن أُجيب بصدق على سؤاله. أضحكتْني سطحيّة تفكيره. إنها لينا.. إنها حبيبتي. لا أقوى أن أحدّث أحدًا عنها. الحبّ الحي العميق، كالجوهرة الثمينة، يخبأ في أكثر

الأماكن سرّية. حبي في أعماق أعماقي لا تصله نظرات الآخرين. إنه الحبّ الميّت الذي نحدّث الآخرين عنه. كيف أتحدّث مع صديقي عن حبّ يشتعل في أعماقي؟

ابتسامة عريضة انتشرت على وجهه كأنه وجد في صمتي ما يؤكّد اعتقاده.

قلت محاولاً أن أكون على درجة عالية من الإقناع:

- ليس كل ما يكتبه الكتّاب يعبّر عن تجاربهم وأوضاعهم، فلا يشترط على كاتب يكتب عن عاهرة أن يكون قد مارس العُهْر. ولا يشترط على كاتب آخر يكتب عن مجرم أن يكون قد دخل في عالم الإجرام. لدى الشعراء قدرة تخيلية تفوق قدرة الناس العاديين.

تأمّل عماد غرفة مكتبي، ثم قال مُغيّرًا مجرى الحديث:

- قضيتَ أيام العيد في المنزل كي تراجع ديوانك الشعريّ. هذا يكفي. لماذا لا تقضي الساعات الأخيرة للعيد في مكان آخر.

تساءلتُ:

- في مكان آخر؟

قال:

- أجل.

تساءلت وأنا أُدرك الجواب:

– أين مثلاً؟

أجاب:

– لنذهب إلى ذلك الملهى الذي ذهبنا إليه قبل سنة تقريبًا. هناك تعمل نتالي.. أتذكرها؟

أخذت نفسًا عميقًا. غلّفني الاستغراب. كيف يعتقد بأنني يمكن أن أجعل من ملهى ليليّ مكانًا أتردّد عليه؟ ومَنْ هي نتالي التي يتحدّث عنها؟ أيمكن لهذا النوع من النساء أن يحتلّ تفكير شاعر ومفكّر؟ هذا النوع من النساء يحتلّ تفكير لاهٍ وماجنٍ فقط.

ثمة نساء يمكنكَ نسيانهنّ في الوقت الذي تدير فيه لهنّ ظهركَ، وهناك نساء تبقى عالقة في ذاكرتكَ الدهر كلّه. فأيّ ذاكرة هذه التي تختزن امرأة مثل نتالي؟

قلتُ:

– ألا تعتقد أن مكانًا كهذا لا يليق بشاعر؟

أجاب بسرعة كأنه كان مستعدًا لسؤال كهذا:

– ولِمَ لا؟ ألم تخبرني ذات مرة أن امرأ القيس كان ماجنًا، ولاهيًا، وسكّيرًا، وعاشقًا، وبطلاً، فأخذ بثأر والده؟

أخرسني. كيف فاتني ذلك؟ امرؤ القيس هذا حيّر الناس في حياته، وحيّرهم في مماته. إذًا، فالشِّعر واللهو يلتقيان كما كان الأمر مع امرئ

القيس. لكنّ التفكير في الديوان الشِّعري يُبْعدني عن الآخرين، وعن كل الأماكن.

اعتدلتُ في جلستي، ثم قلت محاولاً أن أقنعه برغبتي في البقاء في البيت:

- أفضِّل أن أبقى في بيتي كي أدقّق القصائد مرة أخرى. أريد لهذا الديوان الشعري أن يُحدث نجاحًا...

قاطعني عماد متذمّرًا:

- فلترحم نفسكَ. لا تؤخذ الحياة بهذه الجدية.

شربت قهوتي بصمت. رحت أفكّر في كلامه. فجأة استطبتُ فكرة الذهاب معه. سرّته موافقتي، فذهبنا.

شوارع بيروت مزدحمة بالناس والسيارات فرحة وبهجة، كأن العيد جمع بين الديانتيْن، المسيحية والإسلامية.

قاد عماد سيارته، ولم يجرِ حديث بيننا كأننا لا نعرف بعضنا. نظرت من نافذة السيارة كي أخفي شرود ذهني. تظاهرت أنني أتأمّل الشوارع والناس واللافتات. وبينما كان يقود سيارته في الشارع المؤدي إلى الملهى، لاحت صورة لينا في ذهني. يجتاحني اشتياقها، وتنخر أعماقي لوعة الوصول إليها. لم أرها منذ شهر. شهر كامل بدا كالدهر. عندئذ تمنّيت لو كانت لديّ قوى خارقة تتحكّم في الزمن؛ لحظتها سأمزّق صفحات أيام

فراقها من كتاب الوقت.. سأمزّقها كما أُمزّق أوراقًا لا حاجة لي بها. لحظتها سأجعل أيام لقائي بها كالشعاع؛ ببداية دون نهاية.

أنتِ.. أنتِ يا بيروت الجميلة.. أنجبتِ مُعذِّبتي.. حبيبتي.. فأيّ عذاب ألحقتِ بي؟

أنتِ.. يا بيروت.. أنجبتِ مَنْ كانت بين يديها متعتي.. فأي لذّة في جسدي غرستِ؟

أنظر إلى الناس من نافذة السيارة، أُحدّق فيهم، وكلما رأيت امرأة جميلة قلتُ إنها هي، وربما قريبتها، وربما شبيهتها، وربما، وربما. أُحدّق في وجوه النساء كأنني أتوقع أن أراها. أتأمّل الأماكن كما لو كانت تنتظرني. أهذي برؤيتها في وقت لا يمكن أن تكون موجودة فيه. الحادية عشرة ليلاً. ينتابني شعور بأن الأقدار قد تقودها إليّ في تلك اللحظة شفقة على حالي. قد تقودها إليّ في تلك الليلة كي يستحقّ العيد اسمه.

لكنني.. لم أرها..

ولم تشفق الأقدار على حالي..

ولم يستحقّ العيد اسمه..

لم تُسعدني أضواء بيروت الراقصة وشوارعها على الرغم من جمالها الأخّاذ.

ولم تباركني ليلة العيد على الرغم من قدسيّتها..

شعرت بيد عماد تربت على كتفي كأنه يوقظني من النوم؛ نوم العشق.

سمعته يقول بنبرة ساخرة كأنه استاء من صمتي:

- أتفكّر في قصيدة جديدة؟ لم تقل شيئًا منذ صعدتَ في السيارة. أمسكْ بورقة وقلم، ومارس الحبّ مع القصائد إذا كنت لا ترغب أن تمارس الحبّ مع الفاتنات.

أجبته مبتسمًا وبكلمات لاذعة:

- لكَ الرغبة الجسدية، ولي الإنتاج الفكري يا صديقي.

على غير ما كنت أتوقع، ضحك عماد من الأعماق كأنني أهديته قصيدة مدح كتلك القصيدة التي قالها المتنبي في مدح سيف الدولة الحمداني على إثر بنائه قلعة الحدَث، وانتصاره على جيش الروم. فأي قلعة بنى عماد، وأي انتصار حقّق؟

نزلنا من السيارة، وتوجهتُ مع عماد إلى مدخل الملهى. رفعتُ عينيّ فقرأت اسم الملهى باللغتين العربية والانجليزية، "فانسي" ويعني الخيال. الخيال، والشعر، واللهو. ثلاثتهم يلتقون أحيانًا. لم ألتفت إلى اسم الملهى في المرة السابقة، والآن فإنه يشدّ ناظريّ ويقتحم تفكيري. ولماذا كُتِب باللغة الإنجليزية، وليس باللغة الفرنسية، وهي اللغة الثانية في لبنان بعد العربية؟ وماذا يقول الشِّعر في مكان اسمه الخيال، في مكان ملغوم باللهو؟ أيمكن أن يكون في هذا المكان مَن يُلهم؟

جلستُ، وعجبتُ من أمر عماد الذي جلس قبالتي، ولم يلاحق النساء في الملهى على الرغم من سحر جمالهن. هل فعل ذلك كي يثبت لي أنه لم يأتِ من أجل رغبة جسدية؟ فلماذا أتى إذًا؟ ولماذا أصرّ على أن أرافقه؟

راح عماد يحكي حكايته، عن فتاة مصرية وقع في غرامها أثناء زيارة له لمصر، وذلك قبل بضع سنوات، بعد أن أنهى الخدمة العسكرية في الجيش. ذهب إلى القاهرة مع والده الذي كانت له أعمال تجارية هناك. لم أعلم لماذا جاء عماد إلى هذا المكان كي يتحدّث عن فتاة أحبّها. ألم يستطع أن يحكي حكايته في بيتي؟ شدّني كلامه عن الفتاة المصرية، ربما لأنني كنت ملغومًا بالعشق آنذاك. استمعت إليه باهتمام بالغ.

سألته:

- ولماذا لم تتزوجها إذا كنت تحبّها؟

أجابني باستياء، ولكن ليس بحزن:

- كانت شبه مخطوبة.

انتشرت ابتسامة على وجهي في الوقت الذي انفجرت في أعماقي ضحكة ساخرة. عماد أحبّ فتاة مصرية شبه مخطوبة، وأما أنا فأحببتُ امرأة لبنانية متزوجة. أنا وهو أحببنا مَنْ ليس لنا حق فيه. تُضْحكك الدنيا عندما تغوص في بحر تأملاتها. هذه الحياة تسير في اتجاهات

معاكسة لرغباتنا كأنها تثأر منّا على طريقتها. اللعنة كم تستصغرنا وتحتقرنا هذه الحياة!

لم ألاحظ حزنًا على وجه عماد وهو يتحدّث عن الفتاة التي أحبّها. يبدو أنه شُفيَ من حبّها. أمّا أنا فلم أشفَ، ولا أعتقد أنني سأشفى من الحُبّ يومًا ما.

اعتدلت في جلستي، ثم قلت مازحًا مبتسمًا:

– ما أعجبكَ! ألم تجد في كل مصر سوى فتاة مخطوبة كي تحبّها؟

ضحك، ثم قال:

– نحن لا نختار مَنْ نحبّ. هي الأمور تأتي هكذا.

لقد أصاب. الأجدر أن أسأل نفسي: "ولماذا أعشق امرأة متزوجة قبل أن أتعجّب من عشقه لفتاة مخطوبة؟"

سألته:

– ولكن ألا تستغرب أن تأتي إلى هنا كي تتحدّث عن فتاة أحببتَها في مصر؟

ردّ قائلاً:

– أردتُ أن أخرج من البيت، وأردتك أن تكون معي. أنا لست مثلك. لا أحتمل العزلة. هم الشعراء الذين يجدون في العزلة أمرًا مهمًّا

لنتاجهم الفكري. قد تكون العزلة والشعر أمريْن متلازميْن. أمّا أنا فلستُ شاعرًا، لذلك لا تلازمني العزلة.

أجبته بما قالته لي إلهام عن الشاعر الإنجليزي لورد بايرون:

- هو الشاعر الإنجليزي لورد بايرون الذي قال: "إن العزلة شيء رائع إذا عرف الإنسان كيف يوظّفها."

لم يتحدّث عماد عن مدى علاقته مع الفتاة المصرية، كأنه أراد أن يحتفظ بذلك لنفسه.

غاص عماد في الصمت دقائق، ثم قال:

- عجيبة هي مصر...

قاطعته:

- وماذا تقصد؟

أجابني:

- ما أن تطأ قدماك ثراها تُدمِن على البقاء فيها. تشدّكَ هذه الدولة بجاذبية عجيبة، وتعشقها كما تعشق المرأة الجميلة. لا أجمل من لحظات تقف متأملاً روحها، النيل. لنهر النيل طريقته في استقطاب القصائد من أعماق الشعراء. وأما القاهرة، هذه المدينة العريقة، نابضة بالحياة دائمًا.

قلتُ حالمًا حزينًا:

- أتمنّى أن أزورها. أتمنّى أن أستنشق هواءها، وأشرب من نيلها، وأجوب في شوارعها، وطرقاتها، وأزقتها.

عماد غارق في صمته، وأنا غارق في تساؤلاتي، وامرأة جميلة تتقدم نحونا، كأنها شعرت بالهموم التي تجتاحنا. لمعان شفتيها، واستدارة نهديها يكفيان لإثارة شهوة رجل. وضعت يدها على الطاولة، ورمقتنا بنظرات ينطلق منها شعاع الإغراء والفتنة، كأنها تريد أن تنتشلنا من أحزاننا.

نظر عماد إلى المرأة، وقال وهو ينظر إلى وردة حمراء بين نهديها:

- أهلاً نتالي.

هي إذًا نتالي. علق في ذاكرتي اسمها، وغابت ملامح وجهها عن ذهني. هي إذًا ذلك النوع من النساء الذي لا تختزنه الذاكرة على الرغم من الجمال الفتّان. بدا عماد سعيدًا بوجودها. شعرت ذلك من نظراته التي راحت تتسلّق جبل جسدها، إنه شارد بها كأنه يعرّيها في خياله...، ويلتمس الدفء من تفاصيل جسدها ... و... و...

عجبت لأمره. هو الذي كان يتحدّث قبل قليل عن فتاة مصرية أحبّها، تصعقه امرأة في ثوانٍ. وعجبت لأمري أيضًا؛ لماذا ينفر جسدي من هذه المرأة على الرغم منم إثارتها؟

مِن الرجال مَنْ يمرّ الحبّ عليه كسحابة صيف، ومنهم مَنْ يستفحل فيه الحُبّ كمرض قاتل.

نظر عماد إليّ، وقال مبتسمًا:

- إنها نتالي. أتذكرها؟

رمقتها بنظرة فاحصة كأنني أردت أن أتأكد من صحة كلامه. هي تقف على وتر الإثارة. ابتسمتْ في وجهي كأنها توقعتْ أن أقول: "مَنْ يراها لا ينساها." نظرتُ إلى ساعة يدي معلنًا عدم رغبتي في البقاء في ذلك المكان.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت موجهًا كلامي لعماد:

- ذاكرتي هذه الأيام سيئة للغاية، كأنها تعانق النسيان بسبب انشغالي بكتابي.

أخذ عماد الوردة الحمراء من بين نهديها، كأنه أراد أن يحتفظ بجزء منها. أما نتالي فنظرتْ إلينا دون أن تقول كلمة واحدة كأنها شعرت عدم اهتمامي بها. لم أدرِ. أهي جاءت من أجلي أم من أجل عماد؟

شعرتُ أنني لو اقتربت من نتالي فسيمزّقني شعوري بالذنب تجاه لينا.

سألني عماد:

- أي قصيدة ستنطلق منك أيها الشاعر هذه الليلة؟

قلتُ:

- لا أجد ما أكتبه في هذا المكان. لا يحرّك قلمي ولا يلهمني أحد في هذا الملهى.

اتسعت عينا عماد دهشة كأنه لم يصدّق ما قلت. ولم أدرِ إلى أي مدى ستكون دهشته إنْ عرف أن الإلهام كله هناك، في ذلك المكان، بين ألم الحقن، بين الأدوية، مع الأدوات الجارحة، بين يديها، أمام نظرات عينيها.. إنها لينا. هي التي تزلزلني بإثارة عنيفة دون أن تفعل شيئًا.

قال عماد:

- ألا تجد ما تكتبه في هذا الدفء والإثارة؟

سألتْ نتالي:

- أهو شاعر؟

أجابها عماد:

- هو كذلك...

قاطعته:

- أفضِّل أن أذهب الآن. إذا أردتَ أن تبقى فافعل ما تشاء.

غادرت نتالي دون أن تقول شيئًا.

قال عماد:

- ولماذا أبقى. ها هي قد ذهبتْ من كلامك.

غادرنا الملهى في ليلة لا تفوح منها رائحة العيد.

الفصل الرابع

انتهى العيد الذي استثناني من فرحته وبهجته، وأتى ذلك اليوم الـذي نُصّبتُ فيه ملكًا على مملكة العشق.. إمبراطورًا على إمبراطورية السعادة..

إنه يوم لقائها؛ يومٌ جاء بعد شهر مِـن الفـراق عانيـتُ فيـه مـا عانيـتُ، وواجهـتُ مـا واجهـتُ. اشـتقت إليهـا.. رأيتهـا في أحلامـي.. هـذيتُ بعشقها.. وتُقتُ إلى ملامسة يديها..

شهر من الفراق بدا مؤلمًا كضربات السوط. والآن، فـإني أجلـس عـلى أجنحة السعادة لأنني سأراها ولو لبضع دقائق.

عشقي يؤرجحني بين العذاب والمتعة..

هل العشق عذاب أم متعة؟ أم هو يجمع الاثنيْن معًا في آن؟

أيمكن للعشق أن ينجب هذا التناقض؟

تناقض عجيب في أعمق مشاعرنا، وتفكيرنا.. حولنا، وفي أعماق أعماقنا، فكيف ستنطلق وحدوية الفكر والثبات على المشاعر من تناقض عجيب كهذا؟

عصر ذلك اليوم، حملتُ معي بعض الأوراق وعليها مقدمة الديوان الشعري وصفحة الإهداء، وتوجهتُ إلى لينا. شعرتُ أنني أتوجه إلى ملتقى أدبيّ، وليس إلى عيادة.

إني ذاهب إليها بتلك الرعشة التي أستطيبها.. ذاهب إليها بسعادة تمرّر شفتيها على تفاصيل جسدي..

كعادتها، تستقبلني بتلك الابتسامات التي تحترف الإثارة والتعذيب.

أتدرك ماذا حدث لي خلال شهر من الفراق؟

أتدرك أنها تجتاح تفكيري بشراسة؟ تجتاح تفكيري حدّ الرغبة في نسيانها.

غيابها يُعذِّب حدّ الرغبة في الانتقام.. حدّ الرغبة في الثأر.

لكنها.. تُنسيني انتقامي وثأري. ابتساماتها تحرق أوراق عذابي.

لقاؤها يقتل كل ما كان، ويقودني إلى لحظات مشتعلة بالإثارة لا يعنيني في هذا الكون سواها.

سألتني:

– كيف حالك؟

لذتُ بالصمت ثوانٍ، وقلت في أعماقي: "آه لو تعلمين بحالي. كم أنا معذّب بسببكِ! كم أنا سعيد معكِ!"

لكنني قلت مبتسمًا:

- بخير.

سألتني:

- ما هي أخبار ديوانك الشِّعري؟

عجبتُ للهفتها على الديوان واهتمامها بها. أهو اهتمام بالديوان أم بي؟ تسألني عن الديوان الشعري كلما تراني.

أجبتها:

- بعد ثلاثة أشهر سيكون بين يديكِ...

قاطعتني بلهفة:

- حقًّا؟

أجبتها مقلّلاً الفترة الزمنية كأنني أردتُ أن أنقذها من لوعة الانتظار:

- وربما أقل من شهرين..

أخرجت الأوراق من كتاب "فوضى الحواس" الذي كان بيدي، ووضعت الأوراق على الطاولة أمامها، ثم أردفتُ أقول باندفاع مَنْ اجتاحته فرحة عارمة:

- سأهدي ديواني الشعريّ إليكِ لأنكِ أنتِ التي أنتجتِ هذه القصائد، ولو كان قلمي هو الذي كتبها.

ضحكتْ، ثم نظرتْ إلى الأوراق وقرأتْ كلمات الإهداء والابتسامة تُشرق من وجهها الذي لم أرَ أجمل منه. وبينما كانت تقرأ في كلمات الإهداء، قلتُ في داخلي: "إنها تبدو سعيدة بهذه الكلمات. لعلها تدرك مدى حبّي لها. أشعر أنها ستغرقني بكلمات الامتنان، وربما تعانقني شاكرة."

تفاجئني بضبط النفس والمشاعر...

وتصعقني بكلامها الشحيح...

قالتْ كمن يعطي رأيه في شيء عاديّ بسيط:

- إهداء جميل.

آلمني أن يكون هذا ردّها، وبذلك الفتور. ولكن ما حيّرني، تلك الابتسامة التي لم تغلق الباب أمامي تمامًا. ابتسامة فيها تشجيع على المتابعة.

فتور في ردّها، وابتسامة جميلة تنطلق منها معاني الشكر والامتنان..

إنها تهبط وترتفع بي في آن..

أرتفع وأهبط بقوة متناقضاتها..

تبخل هي على مَنْ يُغدق..

وتردّ بفتور على مَنْ بالعشق يحترق..

لكنني قلت لنفسي: "إنْ لم تكن كلمات الإهداء قد اخترقت قلبها، فحتمًا ستخترق قلبها القصائد."

قلتُ آملاً:

- أتمنّى أن ينال الديوان الشِّعري إعجابكِ.

سألتني:

- ما هو عنوان ديوانك؟

كنتُ أتوقّع أن تقول لي إن الديوان سينال إعجابها لأنه ديواني، لكنها سألتني عن عنوان الديوان. هل معنى ذلك أنه لا يهمّها موضوع القصائد؟ لم تكن لديّ النية في أن أخبرها عن عنوان الديوان. أردتها أن تبقى معلّقة على حبال المفاجأة.

أجبتها مبتسمًا:

- لا أحبّ أن أتكلّم عن دواويني الشعرية قبل نشرها. حتى عناوينها تبقى في سرّية تامة إلى أن تصدر.

قالت ضاحكة:

- أهي مفاجأة إذًا..

قلت:

- هي كذلك، ولكن ماذا لو لم ينل الديوان إعجابك؟ سيؤلمني ذلك.

ضحكتْ. لم أدرك معنى ضحكتها؛ أهي تتوقع أن لا تنال المجموعة إعجابها أم العكس؟ أم ضحكتْ على استماتتي على نيْل رضاها وإعجابها؟ لم أدرِ. توقّعتُ أن تقول لي: "ستنال مجموعتك إعجابي. لذلك فلن تألم." لم تقل ذلك، وبقيتُ حائرًا بين معاني ضحكتها.

نظرتْ إلى الكتاب بين يديّ وسألتْ:

- ما هذا الكتاب؟

أجبتها وأنا أناولها الكتاب:

- رواية "فوضى الحواس" لأحلام مستغانمي.

بدا الاسم غير مألوف لها، فأردفتُ أقول موضحًا:

- إنها كاتبة جزائرية.. ألم تقرئي شيئًا لها؟

هزّتْ رأسها دلالة النفي وهي تقلب صفحات الكتاب. اعتقدتُ أنّ مَنْ لم يقرأ شيئًا لأحلام كأنه لم يقرأ شيئًا. شعرتُ أنني أمام تحدّ كبير. فإنْ لم تقرأ شيئًا لأحلام، وهي كاتبة ذات شهرة واسعة، فما الذي سيجعلها تقرأ مجموعتي؟ تساءلت: "تُرى كيف أجعلها تقرأ قصائدي؟ تُرى كيف أقود قاربها إلى بحر الأدب؟" أنظر إلى وجهها، ثم أقول في أعماقي: "ولكن، لا أعتقد أنها لن تقرأ كتابي، لأنّ فيه ما يشدّها نحوه. فيه كلمات تشتعل عشقًا موجّهة إليها.. فيه الإهداء. إنها تسألني عنه كلما رأتني، فكيف لا تقرؤه وهي توليه كل هذا الاهتمام؟"

ناولتْني الكتاب. ثم سألتني كأنها تريد أن تعرف نوعية الكتب التي أقرؤها:

– هل روايتها جميلة؟

أجبتها:

– رائعة.

تحدثتُ معها عن الرواية، ثم انتهت زيارتي لها.

عدتُ إلى البيت غير راغب في أن أتحدّث مع أحد. ديواني الشعريّ هو أقصى اهتماماتي الآن. أفكّر كيف ومتى ستصدر. إني متلهّف على صدوره بسرعة قصوى كي أهديها إياه. شعرتُ أنني في سباق مع الزمن كأنّ أيامي في الحياة أصبحت معدودة.

وبينما كنت أجلس على الأريكة أفكّر في ديواني الشعريّ، جاءت زوجتي وهي تحمل صينية وعليها فنجانان من الشاي. وضعتْ الصينية أمامي، ونظرت إليّ مبتسمة. إنها ترتدي فستانًا جميلاً، يثير رغبة رجل، كأنها تدعوني إلى منازلة الحب.

سألتني:

– كيف يبدو فستاني؟

أجبتها وأنا أضع يدي على كتفها:

– إنه جميل.

سألتني مرة أخرى.

- هل تحبني؟

لم أدرِ ماذا تقصد بالتحديد، فللحب أشكال عديدة، فالتعوّد على شخص ما هو نوع من أنواع الحب، والاشتهاء نوع آخر، والإدمان نوع ثالث، والولع نوع رابع. تُرى ماذا كانت تقصد؟ التعوّد عليها؟ أم اشتهاؤها؟ أم الإدمان عليها؟ أم الولع بها؟ عجبتُ لسؤالها، فالحبّ لا يُنتَزَعُ انتزاعًا، وإنما ينطلق انطلاقًا.

إني تعوّدتُ عليها حدّ عدم القدرة على الاستمرار بدونها. سأجيبها كما يجيب معظم الأزواج زوجاتهم على سؤال كهذا. سأجيب بالإيجاب. لن أخوض في تفاصيل التعوّد على شخص ما، أو تفاصيل الاشتهاء.

أجبتها وأنا أربت على كتفها:

- بالتأكيد أحبك.

ابتسمتْ. آلمتني ابتسامتها، لأنها انتشرتْ على وجهها استجابة لكلمتين شعرتُ أنها اعتبرتها كنزًا. كلمتان انطلقتا ليس بذلك المعنى الأشمل للحبّ. قلت في أعماقي: "اللهم لا تلمني فيما تملك ولا أملك." قد تجعلني هذه الكلمات في حلّ من عذاب الضمير أمام الله. هكذا شعرتُ. ردّدتُ هذه الكلمات في أعماقي مرات عديدة كمنْ يطلب المغفرة.

سألتني:

- ألا تريد أطفالاً؟ ألا ترغب في أن تكون أبًا؟

الأبوّة...

الأبوّة شعور رائع، لكنها تحمل في ثناياها عبئًا ثقيلاً، ولا أدري ماذا أستطيع أن أفعل إذا كان قدرنا أن لا يكون لنا أطفال.

قلتُ محاولاً تقليل قيمة ما تصبو إليه:

- أتريدين أطفالاً كي نبلوهم في هذه الحياة ما بُلينا.

ردّت متعجبة:

- ولماذا تعتبر الحياة بلاءً؟

أجبتها:

- لأنها كذلك...

قاطعتني متذمرّة:

- أفكارك عجيبة!

شربتْ الشاي بصمت، وأما أنا فرحتُ أقرأ قصيدة لأبي القاسم الشابي.

* * *

أيامي تتلوّن بلون ورديّ أخّاذ،

والعشق في أعماقي ينطلق بإصرار وعناد

رافضًا أن يعترف بالمنطق..

ذات يوم كنت في عملي، أبيع الكتب. دخلتْ فتاة تطلب رواية لنجيب محفوظ، "بين القصرين." حقيبة الكتب على كتفها، ومجموعة الكتب التي بيدها دلّتا على أنها طالبة جامعية. لفتَتْ انتباهي استدارة شفتيها تمامًا كتلك الاستدارة المثيرة في شفتيّ لينا.

صاحب محل بيع الكتب، طوني، يجلس خلف مكتبه، يسحب أنفاسًا عميقة من غليونه. بدا الرجل سعيدًا بغليونه كما لو أنه أوجد حلاً لمشكلة الاحتباس الحراري، أو أوقف ذوبان الجبال الجليدية في القطبين. ضحكتُ في أعماقي على فكرة أن هذا الرجل بغليونه أوجد حلاً لمشاكل مستعصية، عجز العلماء عن إيجاد حلول لها.

رحتُ أنظر إلى شفتيّ الفتاة، ثم غرقتُ في مقارنة عجيبة بين شفتيّ الفتاة وشفتيّ لينا. شفتا لينا أكثر إثارة وإغراءً.. يثيران في الجسد حبّ الاحتراق والاشتعال. وبينما كنت غارقًا في التفكير في ديواني الشعري، وفي كيفية الوصول إلى قلب لينا من خلاله، شعرت بيد تربت على كتفي. نظرت خلفي، فإذا بِطوني يقول:

– أين ثمن الكتاب الذي أخذته الفتاة قبل قليل؟

نظرتُ حولي، ثم نظرتُ إلى الأرض خجلاً:

- لقد نسيت.. ما أنساني إياه إلا الشيطان..

غضب طوني، وقال مستاءً:

- شيطان؟ أي شياطين هذه التي تتحدّث عنها؟ نسيت ثمن الكتاب بسبب عدم تركيزك وشرود ذهنك.

اتسعتْ عيناي دهشة بسبب شعور مفاجئ انتابني بأن طوني يعلم عن قصة غرامي التي تسبّب عدم التركيز. هكذا نحن عندما نخفي شيئًا، يجتاحنا إحساس بأن جميع الناس تعلم عنه، على الرغم من شدة حرصنا على إخفائه. لكنّني عدتُ أنفي ذلك بسبب بُعد مكان عملي عن مسرح عشقي.

وضع رأس سبّابته على جبيني، وأردف طوني يقول:

- المشكلة هنا، والأمر ليس له علاقة بالشياطين.

كمن دخل في دائرة التيه قلتُ:

- إن كنت نسيتُ أن أستلم ثمن الكتاب، فما كان ينبغي على الفتاة أن تنسى.

قال الرجل متذمّرًا:

- ما كنت يومًا أتصور أن تصل بك السذاجة إلى هذا الحد. إن كنتَ ستترك الأمر لضمائر المشترين فلن تقبض ليرة واحدة. وإذا كان هذا

منطقكَ في الشراء والبيع، فأنا أتوقّع إفلاسًا قريبًا لمحل بيع الكتب هذا. ستدمّرني أيها الشاعر.

اشتدّ الشجار بيننا بسبب ثمن الكتاب. أهمّني أن لا أفقد عملي، لأنّ حصول لاجئ فلسطيني على عمل في لبنان ليس أمرًا سهلاً.

قلت محاولاً تهدئة الرجل:

- سأدفع ثمن الكتاب.. لا أجد سببًا لغضبك الآن.

أجابني بعدما سحب نفسًا من غليونه:

- حساباتك الآن تأخذ اتجاهًا صحيحًا.. هيا ادفع.

دفعتُ ثمن الكتاب. ثم أردف طوني يقول:

- يا بهاء.. أيها الشاعر الرقيق. هذا العالم مفخّخ بالماديّة وليس بالكلمات الشعرية. الشِّعر لا يهمّ أحدًا سوى هؤلاء الذين يتقوقعون في عالم لا يوجد إلا في رؤوسهم. أشخاص مجبولون بالاضطرابات. أجبني أنتَ.. مَنْ يهمّه أمر المضطربين غير الأطباء النفسيين؟

مضطربون؟! أطباء نفسيّون؟! مَنْ هو كي يقيّم الشِّعر والشعراء؟ مَنْ هو كي يقيّم الأدب؟ الأدب يعبّر عما يجول في النفس الإنسانية، فكيف يحقّر قيمة النفس الإنسانية هكذا؟ كيف يقيّم الشِّعر بعقل أجوف؟ كيف يحلل الأدب بهذه المعرفة العرجاء؟ وكيف يقول ذلك وهو صاحب محل

لبيع الكتب؟ أيقول ذلك وهو في لبنان، منارة الثقافة والفكر، ومركز إصدار الكتب؟!

قلتُ بكل ما أوتيت من تعصّب للأدب:

– دع الشِّعر والأدب لِمَن هم أهل لهما. تكفيك شؤون البيع ووسائل الشراء. يُقال إن حضارات الشعوب تُقاس بنتاجها الفكري، وليس بوسائل الثراء والثروة.

أجابني متذمّرًا من كلامي:

– فلتبقَ في دائرة أحلامك وهوسك بالشِّعر، ولكن ركّز في عملك، وإلا فقدتَ العمل هنا. ساعتئذٍ ستدرك معنى أن تعيش دون عمل.

على الرغم من تعصّبي للشعر، إلا أن طوني كان مُصيبًا في كلامه. لم أعد أذكر اسم ذلك الفيلسوف الذي قال: "لم أجد أمرّ من الحاجة إلى الناس."

في وقت لاحق من ذلك اليوم من أيام نوفمبر، عدت إلى بيتي. أيام قليلة ويهلّ عيد الأضحى.

بينما كنت في حجرة نومي، مستلقيًا في سريري، خطرتْ ببالي فكرة مجنونة، كأن وجود زوجتي في عملها فتح أبواب الأفكار الغريبة التي عادة ما تغزوني عندما أكون وحيدًا. فكرة غريبة تراودني. كلّما ردّدتها في عقلي كلما ازداد إصراري عليها. إنها فكرة دعوة لينا إلى تناول طعام

العشاء في مكان ما. ماذا ستقول لينا عندما أدعوها لتناول العشاء معي؟ ربما يصعقها الذهول والاستغراب. ربما توافق، وربما لا توافق، وربما تردّ بجواب يقع بين الرفض والقبول.. جواب في المنطقة الوسطى. هذه هي طريقتها. تبقيني معلّقًا، فأشعر أنْ لا أمل في الوصول إليها في الوقت الذي لا أشعر فيه باليأس من الاقتراب منها. كيف تغلّف حياديّتها عاشقًا يهوى التطرّف والجموح؟

قفزتُ من سريري، وأمسكتُ بهاتفي الخليوي وطلبتُ رقمها. يزلزلني رقم هاتفها عشقًا.. يصعقني صوتها، ويزيدني لها اشتهاءً.

جاء صوتها صاعقًا مثيرًا..

قلتُ وأنا أرتعش خوفًا من رفض طلبي:

– أعلم أنك مشغولة الآن مع مرضاكِ، ولكن أجيبي بنعم أو لا. أيمكنك تناول طعام العشاء معي يوم الخميس في أحد الفنادق هنا في بيروت؟

قالت بنبرة متعجبة:

– يوم الخميس؟! قبل العيد بيوم؟!

قاطعتها مصرًّا:

– لذلك أريدك أن تكوني معي.

سمعتها تضحك. ربما تضحك على جنون أفكاري، وربما تضحك لأنها استطابت الفكرة. لم أدرِ.

تساءلتْ:

– لماذا يوم الخميس؟

قُطِع الاتصال، ربما بسبب خلل في الشبكة. هي لم ترفض، ولم تقبل، ولم أدرِ أي اتجاه سأتجه في هذه الحالة. كم تُحيّرني المناطق الوسطى! عُدتُ أطلب رقمها بإصرار كي أحدّد أي اتجاه سأتّجه، لكنها لم تُجبْ، وطلبتُ الرقم مرة ثالثة، ورابعة، دون أن يأتي ردّها. وضعتُ هاتفي الخليوي على طاولة صغيرة بجانب السرير، وارتميتُ على سريري محبَطًا، ورحتُ أقول في أعماقي: "ما سبب عدم ردّها؟ ربما تصفني بالجنون الآن.. فكيف يجرؤ أحد مرضاها على دعوتها لتناول طعام العشاء معه؟ هل هذه طريقتها في الرفض؟

ولكن لماذا لم تقلْ: "لا أريد"، بدلاً من هذه الطريقة المحيّرة في الرفض؟ دعوتي لها لم يكن فيها ما يشير إلى إرغامها. أخشى أن تعتقد أنني أفرض نفسي عليها. يقتلني هذا الشعور."

لن أطلب رقمها مرة أخرى. هكذا قرّرتُ. آلمني أن يكون هذا تعاملها مع رجل يعشقها حدّ العبادة. أهذا ردّها على شخص عشقها بهذا

العمـق؟ أتـستحق مـا كتبـتُ عنهـا؟ تحـترف فنـون اللامبـالاة وعـدم الاكتراث. إن أعظم من أن تحبّ إنسانًا هو أن تقدّر إنسانًا أحبكَ.

أُمـرّغ وجهـي في وسـادتي، داعيًـا الله أن يـشفيني منهـا.. أن يُنـسيني إياها.. أن يُكرّهني بها.

مـرّتْ سـاعتان تقريبًـا وأنـا أُقاصـص نفـسي بأسـباب عـدم ردهـا عـلى هـاتفي. مـرّت سـاعتان وقـد طُلِيَـتْ الـدنيا أمـامي بلـون أسـود، وغُلِّـف المستقبل بالإحباط والحزن. رحتُ أرتدي ثيـاب المنطـق الـسوداء مكرَهًـا وأقـول في نفـسي: "مـا كـان يجـب أن أدعوهـا إلى تنـاول العـشاء. مَـنْ أنـا بالنـسبة إليهـا كـي أطلـب منهـا ذلـك؟ جـرأتي الحمقـاء تقـودني إلى خيبـة الأمل."

أغمضتُ جفنيّ وصورتها تطاردني كما لو كان تفكيري فريستها.

رنّ هاتفي فجأة، فلـم أتحرّك لأننـي اعتقـدتُ أن زوجتـي تطلبنـي كـي تخبرني بشيء قد لا يـستحق النقـاش. إضـافة إلى ذلـك، فـإن الحـزن الـذي كنت أشعر به لحظتها لم يجعل أمر الردّ على هاتف زوجتي أمرًا سهلاً. رنّ الهـاتف مـرة أخـرى، فاعتقـدتُ أن أمـرًا مهـمًّا قـد يكـون لاح في الأفـق، وترغب زوجتي في أن تخبرني به. جلستُ في سريري، وأمسكتُ بالهاتف، ونظرت إلى شاشته.

رقم يتلألأ كالنجوم..

يسطع كالشمس..

يُسعِدُ كمتعة..

إنه رقمها..

ها هي السماء تغسلني بأمطار الفرح والعشق..

ضغطتُ على زر الاستقبال بلهفة اجتاحت جسدي الذي كان قبل قليل غارقًا في إحباطه وأحزانه.

جاء صوتها كفريق إنقاذ:

- ألو.

قلت باندفاع وفرحة على حافة البكاء:

- ألو. أهلاً بكِ.

فرحة عارمة تسري في جسدي لسماع صوتها كما لو أنني اكتشفت قارة جديدة. أسعدني اتصالها قبل أن أعرف ماذا ستقول.

قالتْ:

- كنتُ مشغولة جدًّا، ولم أستطع أن أردّ على هاتفك.

ما أهمني أنها لم تردّ على هاتفي، ولم أعد أفكّر في الإحباط والحزن بسبب عدم ردّها على هاتفي. كل ما أُفكّر فيه الآن هو أنها تطلبني وتحدّثني على الهاتف، وتبرّر لي عدم تمكّنها من الردّ على هاتفي.

قلت منفعلاً من السعادة:

- أنا سعيد لأنني أسمع صوتك. أنا سعيد جدًّا. لا أدري ماذا أقول. أنا سعيد.. سعيد جدًّا.

رحتُ أردّد كلمة "سعيد" على الهاتف كأن اللغة العربية لا تحتوي غيرها. شعرتُ أنني لا أعرف غيرها. شعرتُ أن ذاكرتي لا تختزن غيرها. أيمكن لصعقة الفرحة أن تضرب الذاكرة بحيث تختفي كل مفردات اللغة؟ أيمكن لصعقة العشق أن تضرب الذاكرة هكذا؟

قالت:

- ألا يمكننا أن نلتقي يوم الأربعاء؟ لا أعتقد أن يوم الخميس يناسبني.

أيتها السماء..

فلتتساقطْ أمطار أفراحك رذاذًا،

فغزارة الأمطار تفوق قدرتي على الاحتمال..

قلتُ كَمَنْ يصطاد كلامها اصطيادًا قبل أن يطير كطائر:

- يوم الأربعاء، يوم الثلاثاء.. لا يهمّ. كل الأيام تناسبني ما دمت معكِ.

حقًّا كل الأيام تناسبني ما دمت معها. إنني أرتدي ثوب اللقاء على قياسها، وليس على قياسي. اليوم الأحد.. معنى ذلك أنني بعد يومين سأكون معها.. بعد يومين إذا استثنيتُ يوم الأربعاء.

قالت:

– حسنًا بهاء.. سنكون على اتصال. وداعًا.

أجبتُ بصوتٍ منخفض كأن الفرحة ابتلعت صوتي:

– وداعًا.

قبّلتُ الهاتف الذي يُتيح لي سماع صوتها..

صوتها كفاكهة لذيذة تأتي في موسمها.. شهيّة.. ناضجة..

إنه كلحنٍ رائع يقود إلى الحنين والذكريات الجميلة..

صوتها دواء يشفي..

وإثارة في الجسد تسري..

ارتميتُ على سريري فرحًا، منفعلاً، حالمًا، توّاقًا للقاء من هبة السماء. يوم الأربعاء بدا لي كيوم عالميّ، تراقبه كاميرات عينيّ.. ترصده محطات قلبي. فكرة جنونية تخترق صندوق الواقع والمنطق. ها هو جنون الشاعر وحكمة الطبيب يلتقيان.

نوفمبر..

لستَ على عادتكَ يا نوفمبر..

كنـتَ شـاحبًا، مـصفرَّ الوجـه، كئيبًـا، حـائرًا، جافًّـا جفـاف أوراق الأشجار المتساقطة.. وأما الآن فتفوح منكَ رائحـة ربيـع الحـبّ.. تنطلـق منك حرارة صيف العشق، وتأتي منك خيرات شتاء الهيام.

خريف تساقط أوراق الأحزان والحيرة أصبحتَ..

أي تحوّل في المناخ هذا؟

أيّ تغيّر مفاجئ في حالة الطقس؟

شهر تفوح منه رائحة كل الفصول، كأنه السنة بأكملها..

***

في اليوم التالي. طلبتُ من طوني أن أذهب إلى السوق، فَقبِل طلبي كأن عدوى القبـول انتقلـت إليـه. أردتُ أن أشـتري ملابـس جديـدة، وحـذاءً جديدًا. جبتُ شوارع بيروت، وتجوّلتُ في أسواقها باحثًا عن ملابس فيها دفـء العشق وجمال الحبّ.

اشتريتها، واشتريت الحذاء أيضًا، ثم عدتُ إلى عملي. حدّق طـوني في الأكيـاس التـي كنـتُ أحملهـا والدهـشة تعـتلي وجهـه. فتحـت الأكيـاس وفردْتُ مشترياتي أمامه كما لو أنني أردتُ أن أوزّع فرحتي على الآخرين.

سألَ متعجبًا:

– ما هذه الملابس الجميلة؟ لا بد أنك اشتريتها من أجل ندوة شعرية، أو مؤتمر ثقافيّ.

ضحكتُ، ورحت أقول في داخلي: "إنها من أجل مؤتمر عشقيّ. مؤتمر تغلّفه سريّة تامة. إنه بعيد عن الصحافيين، والكاميرات، والأقلام، والكتّاب."

قلت مؤكدًا اعتقاده:

- أحبّ أن أبدو وسيمًا في المؤتمرات الثقافية.

ضحك طوني. وضعت الملابس في الأكياس والسعادة تفرّ من عينيّ.

قال طوني:

- ستبدو وسيمًا كنجم في هوليوود.

الفصل الخامس

في الليل لم يكن نومي سهلاً. ثلاث ليالٍ تمرّ وأنا أهذي بـذلك اللقـاء. تجتاحني رغبة قوية في النوم كي يمرّ الوقت بسرعة طـائرة نفّاثـة.. كـي لا أشعر بوقت الانتظار. كم كنتُ أتمنى لو أنني أملـك قـوى خارقـة تمكّننـي من التحكّم في ساعة الزمن كي أضع للعشق وقتًا لا ينتهـي، وفي الوقـت نفسه لا أشعر برغبة في النوم لأنني أفكّـر وأتـساءل: "مـاذا سـأقول لهـا؟ أأخبرهـا بـما يجـول في أعماقـي تجاههـا؟ أم أنتظـر حتـى يـصدر الـديوان الشعري كي يقـول لهـا مـا لا أستطيع أن أخبرهـا بـه؟ مـاذا أفعـل معهـا؟ أأمسك بيديها؟ أم أقبّـل شـفتيها؟ أم أعانقهـا؟ مـاذا سـتكون ردة فعلهـا؟ أخشى أن تصدّني. فموافقتها على تناول طعام العـشاء معـي لا يعنـي أنهـا تحبني. ولماذا كل هذه الحيرة. سـأكون سـعيدًا معهـا دون أن أفعـل شـيئًا.

يكفيني أنها معي.. تضحك.. تبتسم، وتتحدّث إليّ." التفكير فيها يثير فيّ متعة عجيبة، ويزرع في أعماقي سعادة عميقة، فكيف أقتل متعة عجيبة وسعادة عميقة بسكون النوم؟

وبين هذا المدّ والجزر في الرغبة في النوم وعدم النوم تمرّ ساعات الليل..

ويأتي..

يأتي يوم لقائها..

يوم سرقتْه يد عشقي من صندوق أيام السنة، ليُصبح عدد أيام السنة ثلاثمائة وأربعًا وستين يومًا وربع اليوم..

سرقت يومًا اعتقدتُ، في لحظة هذيان عشقيّ، أنه حق لي، فعذرًا أيها الزمن..

فعلتُ ما فعلتُ ليس رغبة في السرقة، ولا استهانة بقوتكَ، بل لأنك لم تعطِ ما يكفي لجنون العشق، ولا للهفة الاشتياق. فما العشّاق إلا سُرّاق لحظات حبّ خارجة عن الزمن.

يوم الأربعاء إذًا..

يوم الصعقة العشقية..

يوم السرقة الغرامية..

بعد عودتي من عملي، حلقت ذقني ثلاث مرات كما لو أردتُ أن انتزع جلدي..

نظفت أسناني عدة مرات كما لو أردت أن أقتلع أسناني..

مأخوذًا ببهجة عميقة كنتُ..

أشعر بالانتعاش.. أغتسل بماء العشق.. أنتفض كعصفور بلّلته قطرات الحب..

زوجتي عند إحدى صديقاتها. كأن القدر يسايرني.. يجاريني.. ويتواطأ مع جنون العشق الذي أصابني.

نظرتُ من النافذة كي أرى حالة الطقس. الأرض بلّلها مطر خفيف، والجو غائم بشكل جزئيّ.

"ما أجمل العشق في جوّ كهذا،" قلت في نفسي.

إنها الساعة الرابعة والنصف عصرًا. معنى ذلك، سأكون بعد نصف ساعة معها. ارتديتُ ملابسي الجديدة، ووضعت العطر، وتأمّلت وجهي في المرآة.

غادرت منزلي، ومشيت في الشارع كي أستقلّ سيارة أجرة إلى أحد فنادق بيروت. وبينما كنت أمشي في الشارع نظرت إلى باب عيادتها. كان مغلقًا. أثارني أن يكون مغلقًا لأجلي. أثارني أن تترك عملها، وتترك

مرضاها، ومنزلها، وزوجها، وولديها من أجلي. أنانيّة عاشق مجبول بجنون الحُبّ.

السيارة تسير وعقلي شارد بذلك اللقاء الغراميّ الصاعق. نظرت من نافذة السيارة، وحدّقتُ في الناس شارد الذهن، حتى خُيّلَ إليّ أنه لو كانت أمي بين هؤلاء الناس لما انتبهتُ لوجودها.

أيقظني من شرود ذهني سؤال سأله السائق بصوت عالٍ كأنه اعتقد أنني لا أسمع جيدًا.

- ألا تزعجكَ الإشارات الضوئية؟

لُذتُ بالصمت بضع دقائق كي يستقرّ السؤال في عقلي، وألتقط جوابا له. لم أدرِ لماذا سألني هذا السؤال الأحمق.

- أيّ إشارات هذه التي تتحدّث عنها؟ هي إشارة ضوئية واحدة وهي تلك التي نقف أمامها. ولا أجد فيها ما يزعجني.

شهق السائق كمَنْ صعقه العجب، وقال بصوتٍ عالٍ:

- هذه هي الإشارة الضوئية الخامسة التي نقف أمامها. إن كنت لا ترى، فلا أعتقد أنك لا تشعر أيضًا.

شعرتُ أنني أتقلّص من شدة خجلي من نفسي. أتقلّص.. أصغر.. أكاد أختفي كأن خجلي يبتلعني. "أنا الأبله وليس هو إذًا. كيف أقول كلامًا يصرخ بالبلاهة والحماقة؟"

قلتُ كأنني أردتُ أن أُصلح شيئًا أصابه خلل ما:

- لا تُحسبُ الإشارات الضوئية بعددها بقدر ما تُحْسَب بقدرتها على استفزاز وإغاظة المُنتَظِر، فهذه هي الإشارة الأولى حسب منطقي في الحساب.

اتسعتْ عينا السائق دهشة ولم تنقصه إلا شهقة عجب أخرى، كأنه اعتقد بأنني مجنون، وأن كلامي لا معنى له. نظر السائق إليّ والخوف الممزوج بالاستغراب يلوح في عينيه. يبدو أنه يخاف مني.. يخشى أن تجتاحني نوبة جنون تدمّره وتدمّر سيارته التي بدا سعيدًا بها كما لو كانت مدينة عريقة. بعد أن تجاوز الإشارة الضوئية زاد سرعة السيارة كأنه أراد أن يصل إلى الفندق بسرعة البرق كي يتخلّص منّي.

وصلت الفندق. أعطيتُ السائقَ أجرته، ثم نزلت من السيارة. فرّ السائق كأنه يبتعد عن مصيبة.

دخلتُ قاعة الاستقبال، وتقدّمتُ إلى الداخل. جلستُ إلى طاولة رأيتُ أنها تناسبني وتناسبها. طاولة أخرى، مستديرة الشكل، محاطة بمجموعة من الأجانب والعرب تبعد عن الطاولة التي اخترتها بضعة أمتار. "هكذا أفضل. لن يستطيع هؤلاء فَهْم ما نقول." قلتُ في نفسي.

لم أستطع أن أُميّز اللغة التي كانوا يتحدثون بها. أهي الإيطالية، أم الإسبانية، أم البرتغالية؟ لكنها حتمًا ليست الإنجليزية، وذلك بسبب

معرفتي البسيطة بها. الإيطالية، أم الإسبانية، أم البرتغالية. لم يعنِني أن أعرف، فلغات العالم لم تعد تهمّني. وضعتُ الهاتف الخليوي أمامي على الطاولة. هذا الهاتف أصبح مصدر سعادتي، فهو الطريق إلى صوتها. نظرتُ إليه، متوقعًا مكالمة منها تخبرني فيها أنها في طريقها إلى الفندق.

وبينما كنت أفكّر في ذلك الموقف الأحمق في السيارة، رحتُ أهذي بالعشق وأقول في أعماقي كلامًا يغلّفه جنون الحبّ.

"أذكرك وإنْ كنت النسيان..

أشتهيك وإنْ كنت خطيئة..

أقدّسك وإنْ كنت لعنة..

يا امرأة..

ثوري على جسد سئم الخمود..

أشعلي جسدًا سئم التقوقع في الرماد..

مرّري أمواج شفتيك الهائجة على جسد يمقت الركود..

هو العشق العميق الذي يشيح وجهه عن المنطق."

نظرت إلى ساعة يدي. إنها الخامسة تمامًا. تمنّيتُ لو كنت مؤرخًا لجعلتُ من ذلك اليوم حدثًا عالميًّا، وحدثًا عشقيًّا يذكُره سكان الكرة الأرضية.

بدتْ بيروت جميلة.. تتلألأ روعة.. تغلّفني بدفء عجيب على الرغم من البرد. هكذا بدت بيروت في عينيّ. كيف لا وهذا العشق الذي يزلزل أعماقي انطلق من رحمها.

نظرت إلى الساعة مرة أخرى. عشر دقائق بعد الخامسة. الهاتف الخليوي غارق في الصمت. فكّرت أن أطلب قهوة تقتل بنكهتها دقائق الانتظار، فهذه الحياة، كالقهوة المرّة، فيها لذّة عجيبة ممزوجة بالمرار.

آثرتُ أن لا أطلب القهوة كي لا يميل لون أسناني إلى الاصفرار. أردتُ أن تبدو أسناني في ذلك البياض الناصع. وأردتُ لأنفاسي رائحة طيّبة، فأخرجتُ من جيبي قطعة من الحلوى بطعم النعناع ووضعتها في فمي. إني أحتفظ برائحة أنفاس طيّبة كما لو أنني أتوقّع تقبيلها. قُبلة عابرة للتاريخ.. عابرة للزمن، كتلك القُبلة التي صعقتني في أحلامي.. القُبْلة الأشهى في حياتي.

عيناي تراقبان مدخل الفندق، كما لو كانتا كاميرا مثبّتة.

يا طيور الأرض غرّدي..

ها هي قد جاءت.

يا موسيقى العشق اصدحي..

ها هي قد ظهرتْ.

يد العشق عبثتْ بأيام السنة الهجرية..

فها هو عيد الأضحى، على غير عادته، يأتي قبل أوانه..

إنها تتقدّم نحوي، وأما أنا فانتفض بسعادة عميقة.. سعادة بدت كتيار كهربائي يصعق جسدي كله.

أهو الحبّ الذي قرّر إعدامي على كرسي العشق الكهربائيّ؟

عيد الفطر يستثنيني من فرحته، ويهبُ فرحته للآخرين، وأما عيد الأضحى، الذي يأتي قبل أوانه، يهبني فرحته العارمة، ويستثني الآخرين، كأنّ الأيام تنصفني الآن..

ما أعجبكِ أيتها الأيام!

جلستْ قبالتي. أتمنى أن أعانقها.. أن أرتمي على صدرها.. أن أمرّغ وجهي في عنقها شاكرًا مجيئها، فهي حتمًا لا تدري كم يسعدني وجودها معي، في هذا المكان، في هذا الفندق الذي يتوسّط بيروت العشق.

سألتني:

- كيف حالك؟

كيف أُخبرها عن حالي؟ كيف أصف لها ما أنا فيه؟ كيف أقول لها إنني لم أعد أرى أحدًا غيرها، ولم أعد أشعر بشيء غير عشقها؟ أراها العشيقة وليست الطبيبة. هذا ما أشعر به، ولا يهمّني إن كنتُ بالنسبة إليها مريضًا، شخصًا عاديًّا، صديقًا، مجنونًا، أو شاعرًا. لم أجرؤ أن أخبرها بما

يجول في أعماقي تجاهها. رأيت أن أكـون حريـصًا في كلامـي معهـا، كمَـن يقف في حضرة ملك، يخشى أن تقوده أخطاؤه في الكلام إلى عواقب غـير محمودة.

قلت:

- أنا سعيد. أردتُ أن أراك قبل العيد. المكان جميل، أليس كذلك؟

أجابت بتلك الابتسامة التي تجعل الناظر إليها معلّقًا عـلى أعـلى سـلّم الإثارة:

- هو كذلك.

أمسكت بقائمة الطعام الموجودة على الطاولة أمامي، ثم قلت:

- لنطلب طعام العشاء. ماذا تفضّلين؟

أمسكتْ بقائمة الطعام ونظرتْ إليها، وراحـت تقـول كلامًـا بـصوت منخفض لم أتمكن من فهمه، لأنني كنت شاردًا بجمالها، وبمتعة اللقاء.

قالت مازحة:

- لنتناول شوربة عدس.

ضحكتُ، ثم أمسكتُ بقائمة الطعام وقلت:

- أفضّل الأطعمة الإيطالية. إنها لذيذة المذاق.. أتفضلينها؟

هزّت رأسها دلالة الموافقة. رفعتُ يدي للنادل وأخبرته بطلبنا.

سألتني:

- هل أنهيت ديوانك الشعريّ؟ إني أتوق إلى قراءته.

أكاد أطير فرحًا لأنها لا تريد أن تقرأ ديواني فحسب، ولكنها تتوق إلى قراءتها.

أجبتها مبتسمًا:

- ستصدر قريبًا.. ولكن أخبريني، لماذا لم تردّي على هاتفي؟ اتصلتُ بك عدة مرات ولم تردّي، وهذا ضايقني كثيرًا.

أجابت بنبرة جادة:

- كنت مشغولة. عرفت أن عدم ردّي على هاتفك قد ضايقك، فقررتُ أن أتّصل بك عند الانتهاء من عملي.

سألتها كي أعرف ما يجول في أعماقها تجاهي:

- أكان يهمّكِ أن لا أكون غاضبًا؟

أجابت بسرعة كأنها مستعدّة للأسئلة:

- كيف لا أردّ على شخص كرّر اتصاله؟

ذُهِلتُ من جوابها الذي لفّه غموض علامة السؤال. توقعتُ أن تقول: "يهمني أن لا تغضب مني." لكنها لم تقل ذلك. أهي تخفي مشاعرها، أم أنها لا تشعر بشيء تجاهي؟ ولكن، ما الذي دفعها إلى قبول دعوتي لتناول طعام العشاء في مكان كهذا؟ شعرتُ أن الطريق إلى قلبها، كالطريق إلى القدس؛ شائكة، وصعبة، وطويلة، ومحفوفة بالمخاطر.

شعرتُ أن الوصول إلى قلب طبيبة، ليس كالوصول إلى قلب امرأة عادية، يحتاج إلى جهود مضاعفة. إني أُحلل تفكير هذه المرأة، ونحن نستمع إلى صوت فيروز الجميل في أغنية رائعة، أحببتُ دائمًا الاستماع إليها. إنها أغنية "كيفك إنتَ؟" ما أجمل هذه الأغنية!

لم أتمالك أن قلتُ:

– أنت غامضة.

قالت كأن كلامي أثار إعجابها:

– يعتقد الكثير أنني غامضة.

قلت:

– لا يمكن أن يكون الفرد غامضًا كل الوقت، لأن ذلك يقود إلى الملل، وإلى نفور الآخرين منه.

لم تقلْ شيئًا، كأن كلامي لم يقنعها. أحضر النادل الطعام. وبينما كنّا نتناول الطعام، خطر ببالي قول للكاتب الإنجليزي الشهير سومرت موم، في روايته "حافة السكين". قلتُ كأنني أدعوها إلى اقتناص متعة لا يمكن أن تكون متاحة كل الوقت:

– يقول الكاتب الإنجليزي موم في روايته "حافة السكين": "لا شيء يستمرّ في هذا العالم. ومن الحماقة أن نعتقد أن شيئًا سيستمرّ، ولكنّنا نكون أكثر حماقة إذا لم نستمتع به وهو بين أيدينا."

كان في كلامي هذا دعوة غير مباشرة لها كي تستجيب لدفء الحب الذي اعتقدتُ أنه يجمعنا. لم أدرِ إنْ هي أدركت ما قصدتُ.

سألتْني:

- أقرأت رواية موم باللغة الإنجليزية؟

أجبتها:

- لا، فمعرفتي باللغة الإنجليزية بسيطة جدًّا. الرواية مترجمة إلى العربية.

قالت متعجّبة:

- حافة السكين؟! اسم عجيب لرواية...

قاطعتها:

- المعرفة هي ما قصد الكاتب بحافة السكين. فالمعرفة، حسب الرواية، قد تكون حادة، وجارحة، وقد تكون قاتلة كحافة السكين.

لم تقلْ شيئًا، كأن الحديث عن الرواية لم يُثِر اهتمامها.

ما أشهاها وهي تتناول الطعام! فالنظر إلى شفتيها يثير في الناظر شهيّة تناول وجبة حبّ لذيذة.

بعد دقائق، راحت تتحدّث عن زوجها. قالت: إن زوجها سيء المعشر، ويسبّب لها الكثير من المشاكل. عجبتُ لكلامها عن زوجها، وتساءلت: لماذا تتحدّث عن زوجها إليّ بهذه الطريقة؟ لماذا تشكو منه؟

أتفضّلني عليه؟ لم أفهم لماذا تحدّثت إليّ عن زوجها، ولم أسألها، ولكنّ كلامها عن زوجها بتلك الطريقة أثار في داخلي سعادة عميقة.

قالت بعد أن أنهت طعامها:

- الطعام لذيذ..

ابتسمتُ وأنا أقول في أعماقي: "وأنت أكثر لذّة."

قلتُ:

- أغنية فيروز هذه جميلة. أتحبين الاستماع إليها؟

أجابت:

- أجل.

تمتمتُ بكلمات الأغنية:

- كيفك إنتَ؟

آل بقولو صار عندك ولاد.

وأنا كنت مفكّرتك برات البلاد.

قالت:

- أغاني فيروز جميلة جدًّا.

قلت وبشكل مفاجئ:

- أثار عجبي شيء سمعته قبل أسابيع. أيمكنك أن تتصوري أن رادوفان كاراديتش طبيب نفسانيّ ومجرم حرب في آن واحد؟ صعقتُ

عندما سمعتُ هذا. صحيح أن في هذا العالم أشياء تفوق قدرة العقل على الإدراك. أيمكن للأطباء أن يكونوا بهذه القسوة؟

قالت كمن يدافع عن الأطباء:

- يبدو أنه متأثر بهؤلاء الذين كان يعالجهم..

تُرى ما الذي جعلني أتحدّث عن مجرم حرب مثل كاراديتش في مكان اعتقدتُ أنه ملغوم بالحبّ؟ هل أردتُ أن أقول لها إن الأطباء، كغيرهم من الناس، يجرحون ويعذبون وهم مجرمون أيضًا، وأنهم ليسوا بعيدين عن الشبهات؟ هل أردتُ أن أخبرها بطريقة غير مباشرة أنها تعذّبني، كما كان كاراديتش يعذّب ضحاياه؟ ولماذا راحتْ تتحدّث عن مجرم الحرب هذا بإسهاب؟ كاراديتش؟ كاراديتش؟ في مكان كهذا؟!

انتهينا من تناول الطعام، وطلبتُ القهوة.

قلتُ حزينًا كأنني أدركتُ صعوبة الوصول إليها:

- ليتني لم أركِ ولم أعرفكِ...

قاطعتني:

- ولماذا؟

أجبتها:

- لأنني أخشى من نهاية صادمة.

سألتني مرة أخرى:

- ولماذا؟

قلت:

- لأنّ الشعراء تحكمهم العاطفة.

ابتسمتْ، ولم أدرِ إنْ ابتسمتْ تعاطفًا معي، أم استهانة بمشاعري. أحضر النادل القهوة. ساد الصمت دقائق. راحت تشرب قهوتها على عجل كأنها ترغب في المغادرة من أجل أمر ما، أو إنّ رفقتي لم ترقْها. هي تشرب قهوتها بسرعة، بينما كنت أحتسي قهوتي بتأنّ متعمّد كي أستبقيها، كي أستمتع بكل لحظة معها، فوجودها معي، كطعم القهوة هذا، فيه لذّة عجيبة ممزوجة بالمرار. إنها كمذاق الحياة. ولم أدرِ، أكنت أستمتع بلذّة وجودها معي، أم بكلامها القاسي المّر. نظرتْ إلى ساعة يدها، كأنها تطلب مني صمتًا أن أشرب قهوتي بسرعة. شعرتُ بالألم.. بألم عميق أثار شفقتي على نفسي.

هو الألم العميق الذي يثير شفقتكَ على نفسكَ. رحتُ أشرب قهوتي بسرعة، لأنني لم أستطب شعورها بعدم الرغبة في البقاء. أشرب القهوة وأنا أبتسم بين رشفة وأخرى والألم يطعن أعماقي. حاولتُ أن أخفي حزني، ربما لأنني استكثرتُ على نفسي مجيئها وقبول طلبي بتناول طعام العشاء معي. بَرْدُها يضرب بقوة لهفتي عليها.

منطقة قطبية هي..

كلما اقتربتُ منها يلسعني بردها القارس..

لكنني..

أقترب منها بإصرار مَنْ تستهويه الأبحاث العلمية على الرغم من المخاطر.

غادرنا الفندق.

نظرتُ إلى الفندق بعد أن صعدتْ لينا في سيارتها.

دافئ الأعماق إليه أتيتُ..

وبارد العاطفة منه عدتُ..

***

عذّبني مدّ وجزر عاطفيّ بعد لقائنا في الفندق؛ أنام عازمًا على الابتعاد عن لينا ونسيانها، وأستيقظ مصممًا على التحدّث إليها، والالتقاء بها." إن لم يثر لقائي معها اهتمامها، ولم يهيّض مشاعرها، فربما يخترق ديواني الشعريّ قلبها." ردّدتُ هذا في داخلي. أصبح ديواني الشِّعري وسيلتي للوصول إلى قلبها، فرحتُ أقرأ كل قصيدة عدة مرات، وذلك خوفًا من أن يكون في تلك القصائد ما يثير استياءها. أقرأ بدقّة وتأنٍّ، وأستعين بمعاجم اللغة العربية للتحقّق من الأفعال والمصادر ومعاني الكلمات. يهمّني رأيها في كل كلمة، وفي كل قصيدة كأنها القرّاء والنقّاد معًا.

ذات يوم وجّه إليّ أحد الأصدقاء دعوة لحضور نقاش ثقافيّ حول الشِّعر والنثر في إحدى الجامعات اللبنانية في بيروت. أثار موضوع النقاش اهتمامي؛ الشعر والنثر. يعتقد البعض أن للنثر قوة للهجوم على الورقة البيضاء تفوق قوة الشِّعر، ويعتقد البعض الآخر أن للشِّعر جماليّة وتأثيرًا لا يطالها النّثر. توقّعت أن يكون النقاش مثيرًا، لذلك قرّرت أن أحضر الاجتماع وأشارك في النقاش، خصوصًا وأنا أعتقد أن الشعر تنتجه حالة شعورية، وأن النثر تُنتجه حالة شعورية أخرى.

حصلت على إذن من طوني لمغادرة مكان عملي كي أشارك في النقاش الأدبيّ. غادرتُ الساعة الواحدة ظهرًا، ولكنّ الاجتماع يبدأ الساعة الثانية، أي بعد ساعة تقريبًا. هذا يعني أنه بإمكاني أن أذهب إلى منزلي كي أستبدل بملابسي ملابس أخرى، وربما أتناول مشروبًا ساخنًا في ذلك اليوم من أيام الشتاء.

وصلتُ المنزل، ولم تكن زوجتي قد عادت من عملها بعد. ولجتُ حجرة النوم، وارتميتُ على سريري. أغمضتُ جفنيّ، ثم لاحت صورة لينا في خيالي. تسري في جسدي متعة متصاعدة، ورغبة ثائرة كلما أفكّر فيها على الرغم من ما ألقى منها. حبّها في أعماق أعماقي كما لو أنه شيء ثمين في صندوق مُحكَم الإغلاق، فالحبّ العميق المزلزل كالشمعة، تشعله

السريّة التامة، وتطفئه رياح الإعلان والإشهار. سريّته قد تُشعل حرائق العذاب فينا، لكن إشهاره قد يقتلنا.

قفزتُ من سريري، ارتديت ملابسي، وأعددتُ الشاي. وبينما كنت أشرب الشاي الساخن، شعرتُ برغبة شديدة في سماع صوتها. اشتياق عنيد في أعماقي ينادي صوتها. ولع قويّ بصوتها عذب النبرات. توتّر متصاعد يصعقني كلما غاب صوتها عن أذنيّ. توتّر لا يقضي عليه إلا صوتها.

هو صوتها بنبراته العذبة الذي يقضي على التوتر والاضطراب، ويلّف جسدي بهدوء مغلّف بثورة الرغبة.

يداي ترتعشان.. قلبي تتسارع ضرباته، وجسدي المعذّب يحتاج إلى صوتها كما لو كان فاكهة الحياة. أمسكت بالهاتف الخليوي والرعشة تنتشر في أطرافي وأعماقي. كاد الهاتف أن يقع من يدي بسبب رعشتها، فأمسكتُ به باليد اليسرى التي يضربها زلزال الرعشة. زلزال تفوق قوته قوة الزلزال الذي يضرب اليد اليمنى. وقع الهاتف على الأرض التي يغطيها السجاد، فأصبحت كمن يصلح الخراب بالخراب. هل يصلح الخراب خرابًا؟ وما أصعب أن تُمسكَ الأشياء بأيدٍ مرتعشة! فأنتَ تُخْفق حتى في أكثر الأمور إتقانًا..

جلستُ على حافة السرير، ووضعتُ الهاتف أمامي على السرير. أردتُ أن أضعه على مكان ثابت. إني أستجمع الهدوء الآن، وأحاول أن أطلب رقمها. يجتاحني التردّد كأنني سأطلب الأمم المتحدة، أو كأنني سأعلن أو أوقف حربًا يهتز العالم لحدوثها.

ما هذه الفوضى؟ تساءلتُ. لماذا كل هذا الاضطراب والتوتر؟ لماذا لا أُبْعد هذا الهاتف عني، وأنقذ نفسي من هذا الاضطراب؟ وما أن أمسكت بالهاتف كي ألقي به بعيدًا، حتى وجدت نفسي وبطريقة آلية عجيبة أطلب رقمها. ما أعجب ما أنا فيه! فعقلي يقرّر شيئًا، ويداي تفعلان شيئًا آخر، كأن عقلي فقد السيطرة على أطرافي. فقدتُ السيطرة على أطرافي كما يفقد الجنود في ساحة المعركة السيطرة على مناطق وأراضٍ. أحيانًا يحدث لنا أننا نقرّر شيئًا، ونفعل شيئًا آخر.

جاء صوتها..

عذبًا كأنه موسيقى..

شافيًا كأنه دواء..

مثيرًا كأنه لذّة..

هادئًا كبحر ودّعته الأمواج..

واضحًا كسماء غادرتها الغيوم..

قالت:

- ألو.

قلتُ:

- كيف حالك؟ أحببتُ أن أسمع صوتك...

قاطعتني كأن كلامي لم يُعجْبها:

- أنا مشغولة الآن..

قلتُ:

- أيمكنك الاتصال بي بعد الانتهاء من عملك؟

أجابت:

- حسنًا.

قلت مصرًّا:

- لا تنسي. أنا انتظر اتّصالاً منك..

قالت:

- حسنًا..

اختفى صوتها.

جلستُ على حافة السرير فرحًا، أنتظر اتصالها، أفكّر فيما سأقوله لها. "قد تُنهي عملها بعد ساعة أو ساعتين،" قلت لنفسي. وجدتُ متسعًا من الوقت كي أعدّ القهوة، فذهبت إلى المطبخ، وحملت الهاتف معي خوفًا من أن لا أسمع رنينه، فيفوتني اتصالها.

أعددتُ القهوة، وعدت إلى حجرة النوم، أحتسي القهوة، وأحـدّق في الهاتف بتركيز شديد كفلكيّ يرصد نجمًا.. كطبيب يجري عمليـة جراحيـة معقّدة.. كجنديّ يراقب حدود بلاده مع دولـة معاديـة. أركّـز، وأراقـب، وأنفّذ، كأنني يد أميركية تدير شؤون العالم.. كأنني عـين أوروبيـة تراقـب حفظ السلام في الأماكن الملغومة بالمشاكل والانفجار.

انتظرتُ، وجاءتْ زوجتي، وأعدتْ الطعام.

انتظرتُ، ولم أدرِ كم انتظرتُ..

اللهفة، والاشـتياق، واليـأس، والإحبـاط، والحـزن، والعـشق الثـائر. فكلّ هذه المشاعر لم تخضع لمنطق الحساب، ولم تدخل صندوق الأرقام.

انتظرتُ لهفة..

انتظرتُ لوعة..

انتظرتُ حزنًا..

وانتظرت إحباطًا وعشقًا..

فاحسبْ أنتَ، يا مَنْ يغريكَ منطق الحساب والرياضيات، احسب كم من الوقت أنا انتظرتُ؟

الشمس تدخل بيت الغروب. هذا يعني أن لينا قد ذهبـت إلى منزلهـا. فحلّق استبعاد اتصالها وهـي في منزلهـا ومـع زوجهـا وولـديها. أحـدّق في

الهاتف الخليوي متوقعًا صوتها على الرغم من استحالة اتصالها، كأنني أطرق بتفاؤل باب المعجزات والمستحيلات.

نظرتُ إلى الهاتف، وفي أعماقي ألعن عبوديتي له، وألعن مخترعه. أأنا عبد لهذا الاختراع أم لصوتها؟

ارتدت بيروت ثوب الليل الأسود، وأما أنا فغدوتُ أُطارد الأجوبة في غابة الأسئلة. لماذا لم تتصل؟ ولماذا تتجاهلني هكذا؟ أهي تكرهني؟ أم تحبني؟ أم تمقتني؟

هي لم تتصل، وأنا لم أذهب إلى الاجتماع حول الشعر والنثر، كأن ذلك اليوم كان لكلّ شيء عدا العشق والأدب.

فاجأتني إلهام التي اتصلت تسأل عن أسباب عدم حضوري الاجتماع. لم أجبها، وأخبرتها أنني سأتصل بها، لكنني لم أفعل. كيف أخبر إلهام أن هذا العشق الجنوني الذي يسكنني أصبح كالحبال تلتفّ حول جسدي.. كالنار تشتعل في أعماقي. أشتعل وأحترق موثوق اليدين والقدمين، لا أستطيع الهروب، ولا أملك دفاعًا عن نفسي.

والعجيب أن زوجتي اجتاحتها الرغبة تلك الليلة، فقالت إنها قد دخلت فترة الإخصاب حسب رأي طبيبها المعالج. فعلتْ ما فعلتْ خلال السنوات السابقة ولم يحدث الحمل، فكيف تتوقّع أن يحدث الحمل في هذه الليلة بالذات؟ وأي حمْل هذا الذي سيحدث في إحباط المشاعر،

واليأس من المستقبل، والصدمة من الواقع؟ ماذا أقول لزوجتي؟ كيف أُفسِّر عدم رغبتي، بل عدم قدرتي؟ ماذا ترجو زوجتي من رجل استنفد الانتظار، والإحباط، واليأس، كل طاقاته الجسدية والجنسيّة؟

موثوق اليدين والقدمين عشقًا، فلم أحضر الاجتماع الأدبي. وموثوق الرغبة إحباطًا، فلم أستطع أن أقترب من زوجتي. وموثوق الأعماق صمتًا. أقتل الصمت بالصمت.

لينا التي صعقني وطعنني عدم اتصالها، وإلهام التي أخرستني أسئلتها، وتختتم زوجتي سلسلة المفاجآت بإصرارها على ممارسة الجنس في ليلة وُشِمَت بالإحباط والحزن.

لينا، إلهام، زوجتي...

تُرى ما سرّ هذه المؤامرة النسائية ضدي هذا اليوم؟

ما سرّ هذا المثلث النسائي مجهول النوايا؟

كيف وجدتُ وقتًا كي أنتظر اتصال لينا لساعات في ترقّب وتوتّر ولهفة، ولم أجد وقتًا، ولو لخمس دقائق، كي أحقّق رغبة زوجتي التي رأتْ في حملٍ انتظرتْه لمدة سنين سعادتها، بل حياتها؟

تسلّلتُ من سريري، وزوجتي غارقة في الغيظ. توجّهت إلى حجرة مكتبي، ورحت أقرأ قصائدي بصمت الموت وبألم الحياة. "الديوان

الشعري هذا تلقى ما تلقى من اللعنة من زوجتي بسبب انشغالي بها عنها." قلت في نفسي.

أيّها الجسد..

ما سرّ إصرارك على عشق يصطدم بصخور الرفض. جسم غريب هو حبّي في جسدها الذي تنتشر فيه ألغام مقاومة العشق.

هي.. هي الطبيبة..

ما سرّ قسوتها؟

هي التي تعالج الناس من آلامهم. أيمكنها أن تصعقني بهذا الألم وهذا العذاب!

هي التي تجرح وتعذّب دون أن توجّه إليها تهمة التنكيل..

تطعن بالحب دون أن توجّه إليها تهمة القتل..

تسرق الأحاسيس والمشاعر دون أن توجّه إليها تهمة السرقة..

قبلها، وقبلها فقط كنت أستهجن كلمات نزار قباني: "علّمني حبّكِ سيدتي أسوأ عادات." تساءلتُ دائمًا كيف يعلّم الحب أسوأ العادات؟ الحب قيمة سامية تقود إلى الارتفاع والسموّ وإلى كل ما هو جيّد. لم أدرك كيف يرتبط الحبّ بالسّوء.

وأمّا الآن، فإني أكتشف غبائي في العشق، وأكتشف عبقرية نزار.

حبّها..

علّمني أن أجلس جوار الهاتف لساعات أنتظر الصمت..

علّمني أن أقدّم الكتب للمشترين دون أن أحصل على ثمنها..

علّمني أن أتجاهل اهتمامات زوجتي، ولوازم بيتي..

علّمني أن أنسى، ألعن، أكذب..

أمشي كالتائه، أتكلّم كالمجنون، أسبّ..

علّمني أن أهوى الحديث في غير حينه،

وأن أدخل بيت الصمت أعانق الكلام..

علّمني أن أسرق لحظات الحبّ والعشق،

وأن أخلع ثياب العقل والمنطق..

حبّها..

علّمني ما هو أسوأ من السوء..

فأيّ تلميذ أنا؟ وأي مدرّسة هي؟

أتعبني التفكير والتحليل. عدتُ إلى سريري، وجلستُ فيه أسأل نفسي ذلك السؤال الذي نخر أعماقي: "لماذا قبلتْ دعوتي لتناول العشاء معي إذا كانت تمقتني، ولا تستطيب سماع صوتي؟" ردّدتُ ذلك السؤال عشرات المرات ولم أجد جوابًا. تمامًا كتلك الأسئلة التي حيّرت العلماء والفلاسفة مثل: "ماذا يحدث بعد الموت؟ ما معنى الحياة؟" لم أستطع أن أفهم لماذا قبلتْ دعوتي لتناول طعام العشاء معي.

نظرتُ إلى زوجتي. إنها تدير ظهرها لي، وأعتقد أنها في أعماقها تلعنني وتلعن ديواني الشِّعري. تلعنني لأنني نسفت أمنية حياتها في حمل اعتقدتْ غباءً أنه سيحدث هذه الليلة. وتلعن الديوان الشِّعري الذي يُشغلني عنها حسب اعتقادها. تُرى ماذا ستقول زوجتي إنْ علمتْ أنّ سبب كل هذا الإحباط والحزن هو عدم اتصال امرأة أُحبّها بي؟ اتصال هاتفيّ يغرقني في كل هذا اليأس! ربما تقول إنها تعيش مع مجنون دون أن تدري. بعد كل هذه السنين ستدرك زوجتي حقيقة نفسي. فالزواج، كالمختبر، تظهر فيه نتائج التحاليل للمعتقدات والمشاعر بين الأزواج.

قضيتُ ليلة، ولم أدرِ إن كنت نمت فيها، أم خُيّلَ إليّ أنني نمتُ. شعرتُ أنني معلّق على حبال اليقظة والنوم.

* * *

لم أدرِ كم من الوقت مرّ حتى شفيتُ من صعقة ذلك الهاتف الذي لم يصلني منه إلا صمتها.

ديواني الشعريّ الآن في إحدى دور النشر في بيروت، بعدما تمّت الموافقة على نشرها. أسعدني أن ينطلق الديوان الشّعري إلى الحياة.. إلى أيدي الناس.. إلى قلوبهم. ولكنّ الذي غلّفني بغبطة عميقة هو إمكان أن تكون المجموعة الطريق إلى قلب لينا. "عشق طبيبة ليس كعشق امرأة عاديّة. يحتاج إلى جهود مضاعفة." ردّدتُ في نفسي بين الحين والآخر.

والـديوان الـشِّعري هـذه أقـصى الجهـود التـي أبـذلها. سـهرتُ الليـالي، وغُـصتُ في تفعـيلات بحـور الـشِّعر. غرقـتُ في الفاعـل والمفعـول بـه، والمفعول المُطْلَق، وحـروف الجر، وإنّ وكـان، وتأرجحـتُ بـين النصب والرفع والجر.

حذفتُ.. وأضفتُ..

دقّقتُ.. وراجعتُ..

ضحكتُ.. بكيتُ.. تألّمتُ.. بكيتُ..

وتألّمتُ كأنني في الألم تفرّدتُ

حتى أخذتْ القصائد صيغتها النهائية.

ذات يوم اتصلتْ بي إلهـام تـدعوني إلى بيتهـا كـي أتعـرّف إلى زوجهـا. وصفتْ لي عنوان منزلها على الهاتف. كم كنت أتمنى أن أرى رقم لينـا. أن أسمع صوتها، ولو بقليل كلامها الـذي عـودتني عليـه. لكنهـا لا تتّـصل. إنها لا تُبالي. إنها تقيم في قصرها العاجيّ، قصر من الكبرياء واللامبالاة.

لا يمكنني أن أتصوّر أن أمارس الحبّ مع طبيبتي، لكنّ الإصرار على عشقها كان فيه تلك الرغبة في دفئها، وعناقها، وتقبيل شفتيها الحـارقتين. لا يمكننـي أن أتـصوّر اتـصالاً جـسديًّا معهـا وإنْ كنـت ملغومًـا بـشراسة الرغبة.

ذهبتُ إلى بيت إلهام مدفوعًا برغبة التعرف إلى زوجها. لم أستطع أن أفهم لماذا أرادت إلهام أن أتعرّف إلى زوجها حسام، لكنني لم أجد ما يمنعني. عجيب أمر النساء! في الوقت الذي تشعر أنّك تعرف كل تفاصيلهنّ، فإنك تجد نفسك حائرًا تائهًا في مسالك شؤونهنّ.

حدثتني إلهام عن زوجها في أوقات سابقة. ما أسهل التعرّف إلى رجل تعرفُ أنت زوجته، فلن تشعر أنك تتوجّه نحو المجهول.

وصلت المنزل الذي لم يكن بعيدًا عن منزلي. لفت انتباهي في حجرة الجلوس الكتب الموضوعة على رفوف خشبية. هكذا أنا، تستقطب عينيّ الكتب على الرفوف.

زوجها، رجل ثلاثينيّ، وسيم المظهر. بدتْ إلهام سعيدة في زواجها، أو هكذا خُيِّلَ إليّ، فأنا لا أؤمن أن الزواج يرتبط بالسعادة المُطْلَقة.

رحّب بي زوجها بطريقة فاقتْ توقّعي، وبلهجته اللبنانية الجميلة كما لو كنتُ شاعرًا ذا شهرة عربية وعالمية. يبدو أن إلهام قد حدّثته كثيرًا عني.

قدّمتْ إلهام عصير الليمون، ثم قالت:

- متى سيصدر ديوانك الشعريّ؟

أجبتها:

- قريبًا.

سأل حسام كأنه أراد أن يعرف ذوقي في الأدب السوري:

- مَنْ مِنَ الشعراء السوريين تفضّل؟

أجبته:

- الشاعر عمر الفرّا...

قاطعتني إلهام:

- قصيدته "حمدة".

كأنها ضغطت على زر إعجابي بالشاعر. "حمدة".

قلتُ حالمًا:

- حمدة.

انطلقت كلمة حمدة، وفي أعماقي كنت أقول لينا. على الرغم من أنني لم أجد أي تشابه بين قصيدة حمدة ولينا، ولكن لم أدرِ لماذا راحت أعماقي تردّد اسم لينا في الوقت الذي ردّد لساني اسم حمدة.

قال حسام:

- أنا وزوجتي ننتظر ديوانك كي نقرؤه.

قلتُ ضاحكًا:

- إني أتوق إليه أكثر من القرّاء.

أجل.. أتوق إلى الديوان الشعري كي أهديه إيّاها.

قالت إلهام:

- بل إنّ من القرّاء من يتوق إليه أكثر منك.

ابتسمتُ. عرفتُ مَنْ تقصد بكلامها. إنها تقصد نفسها. بعد أن شربتُ العصير، نظرتُ مرة أخرى إلى رفوف الكتب. شدّتْ عينيّ الكتب.

قلت:

- أيمكنني أن ألقي نظرة على هذه الكتب؟

قالت إلهام:

- بالتأكيد.

توجهت نحو الرفوف، وتناولت أحد الكتب. إنه ديوان شعريّ مترجم إلى العربية لشاعرة غربية، سيلفيا بلاث. رحتُ أُقلب صفحات الكتاب، ولكن إحدى القصائد استوقفتني. إنها قصيدة "وصول صندوق النحل." قرأتُ بعض أبيات القصيدة على عجل.

سألتْ إلهام:

- أيعجبكَ الكتاب؟

أجبت:

- أجل.

قالت:

- يمكنك أن تأخذه كي تقرأه.

قلتُ وأنا أمسك بالكتاب، وأنظر إلى الكتب الأخرى على الرفوف:

- شكرًا.

رحتُ أتأمّل الكتب الموجودة على الرفوف. رأيت ديوانًا لإيليا أبو ماضي، وكتابًا للكاتب المصري سلامة موسى. قلت في داخلي وأنا أنظر إلى الكتب: "كتب صامتة ناطقة، تنتفخ بعقول ومعتقدات مؤلفيها. إنها عقول بشريّة تصطفّ على الرفوف."

عدتُ، وجلستُ على الأريكة وأنا أحمل كتاب "سيلفيا بلاث".

قالت إلهام:

- هذا الديوان لشاعرة أميركية انتحرت وهي في الثلاثين من عمرها، تاركة وراءها طفليْن.

رحتُ أقلب صفحات الكتاب كأن الحديث عن انتحار الشاعرة شدّني إلى قصائدها.

قال حسام:

- لا أدري كيف ترتكب شاعرة جريمة الانتحار ولديها طفلان في حاجة إليها...

قاطعته متعجّبًا من كلامه:

- إذا كان المنتحِر لا يفكّر في نفسه، فكيف سيفكّر في غيره؟ كلامك مغالطة منطقية.

قالت إلهام:

- والعجيب أن ابنها انتحر وهو في أربعينياته.

قلتُ متعجبًا:

- أيمكن أن يكون الانتحار فكرًا؟!

جلس حسام على أريكة أخرى، وراح يشاهد التلفاز، كأن حوارنا لم يثر اهتمامه.

قالت إلهام فجأة وهي تضع يدها على خدّها:

- ألم أسناني نخر رأسي. ذهبت مع زوجي في الصباح إلى طبيبة الأسنان لينا.

نظر حسام إليّ مبتسمًا. ما أن ذكرتْ إلهام اسم الطبيبة حتى لسعتني الصدمة. تساءلت في داخلي: "لماذا تحدثتْ عن الطبيبة وذكرتْ اسمها؟ هل تريد أن تشير إلى فَضْح أمري؟ أشعر أنها تعلم ما يجول في أعماقي من مشاعر تجاه لينا. يبدو لي أن أكثر الأشياء كتمانًا تثير فيكَ شعورًا بأن كل الناس تعلمها. فَضْح عشقي معناه إساءة لسمعة لينا، وهذا أمر لا أستطيع أن أحتمله.

واصلت إلهام تقول كأنها أرادت أن تعرف كيف سيكون وقع كلامها عليّ.

- لينا طبيبة ماهرة.

نظر حسام إليّ مرة أخرى، فلسعتني الغيرة والخوف معًا. أفكار غريبة عجيبة راحت تضرب رأسي. هل أحبّ حسام لينا كما أحببتها؟ هل هي أحبّته؟ فهو وسيم المظهر، وأصغر مني سنًّا. أيمكن أن يكون هذا قد حدث؟ لماذا نظر حسام إليّ ما أنْ ذكرتْ إلهام اسم الطبيبة؟ إني ضائع تائه.. أهو يحبّها، أم هي تحبّه؟ لا يمكنني أن أتصوّر أن يكون حسام قد أحبّ امرأة أحبّها.. امرأة تخصّني.. نظمت القصائد لها ومن أجلها. رحتُ أتناول جرعات المنطق المرّة، وأقول في نفسي: "أيمكنني أن أمتلك شخصًا بسبب قصائد نُظِمتْ من أجله؟ أيمكن أن يكون في القصائد قوة التملّك؟ بعض الأحيان، ينتابكَ شعور بأنه يمكنكَ أن تمتلك شخصاً بكلمة، أو بابتسامة، أو بقُبلة، فكيف لا ينتابني شعور بأنني أستطيع أن أمتلك شخصًا بقصائد نُظِمتْ لأجله؟ ما معنى كلام إلهام عن الطبيبة الآن، وفي هذا المكان؟ هل أرادت أن تخبرني أنها تعلم ما أخفي، أم أن كلامها جاء هكذا وكيفما اتّفق؟ لا أستطيع أن أحدّد. إني أتألّم، أتعذّب. كلام إلهام عن لينا يثير شكوكي، ونظرات حسام إليّ تقتل أعماقي. ما هذا الضياع الذي غرقت فيه دون أن أدري؟

حاولت أن أبدو هادئًا بكل ما أوتيتُ من ضبط النفس.. أن أكون هادئًا على الرغم من عواصف الغيرة، وإعصار الخوف من فَضْح جنون عشقي. ما أصعب أن تكون هادئًا أمام العواصف والأعاصير! إنها

حرب تخلو من التكافؤ. رحت أقلّب صفحات الكتاب بين يدي كأنني أبحث عن شيء. لا شيء يحجبني عمّن حولي ككتاب بين يديّ. إني أُحدّق في قصيدة "وصول صندوق النحل". فيها من الحزن ما يشبهني، وفيها من الألم ما "يكتبني".

لم أنظر إلى ساعتي عندما هَممْت بالمغادرة كما يفعل الآخرون عادة، لأن الصدمة التي تلقّيتها هي الساعة التي حدّدتْ نهاية اللقاء.

عدتُ..

كهارب من مصيدة..

كهارب من صعقة..

عدتُ..

لم أدرِ كيف ومتى..

دخلتُ منزلي كالمذعور، وتوجهتُ إلى حجرة نومي وديوان سيلفيا بلاث الشعري معي. ارتميت على السرير والكتاب على صدري كأنني لم أجد إلا كتابًا يعانقني في لحظات البرد والخوف والحزن. بعد دقائق جاءت زوجتي كأنها شعرت بما يجول في أعماقي.

جلستْ على حافة السرير، ووضعتْ يدها على صدري، ثم على الكتاب وسألتْ:

- ما بكَ؟ تبدو على غير عادتك..

ليتني أستطيع أن أقول لها. ليتني أضع على كتفيها بعضًا من هذا العبء الذي يتربع على صدري كصخرة. تنتابني رغبة في أن أبثّها ما بي، لكنّ لساني لا يتحرّك ولا ينطق، كأنه يلتصق في حلقي.

عانقتُ زوجتي فجأة، عناقًا حارًّا طويلاً. إني أتوق إلى عناق يغلفني بالدفء والحنان. لحظتها، أردتُ دفئًا من صدرها كذلك الدفء الذي كنت أشعر به على صدر أمي. ربما الزوجة امتداد لدور الأم، والزوج امتداد لدور الأب. انتابني شعور لحظتها بأن زوجتي هي التي تستحقّ حبيّ، وتفكيري، وقصائدي، وكل ما لديّ. لا أحد غيرها.

سألتني مرة أخرى، كأنها أرادت أن تنتزع جوابي انتزاعًا:

- ما بك يا بهاء؟

كم كان مؤلمًا أن أقول لها:

- لا شيء..

كيف يكون لا شيء وكل هذا الحزن يمزّقني؟ هي بالتأكيد لم تصدّق، لأن كلامي لم يكن فيه ما يقنع طفلاً، فكيف سيقنع امرأة أعيش معها؟

قالت:

- كل هذا الاضطراب وتقول لا شيء...

قاطعتها:

- أريد أن أشرب شيئًا ساخنًا، أو شيئًا باردًا.

قالت متعجبة:

- ألا تستطيع أن تحدّد؟ أتريد شيئًا ساخنًا،أم باردًا؟

قلت ساندًا ظهري على الوسادة:

- ليس مهمًّا.. سأشرب أي شيء.

غادرتْ زوجتي الغرفة، وعدتُ أنظر إلى ذلك الكتاب لسيلفيا بلاث. قصيدة "وصول صندوق النحل" أثارت اهتمامي. ولم أدرِ لماذا. الصندوق فيه معاني الكتمان والإخفاء. ربما هذا ما أثار اهتمامي بالقصيدة. شعرتُ كنحلة تنتج العسل كي ينتفع به الآخرون. رأيتُ في قصائدي ذلك العسل. أيدرك القارئ مدى الألم الذي يُنتج الشّعر؟

شعرتُ برغبة في النوم فجأة. أردت نومًا صافيًا، نقيًّا، خاليًا من الأحلام.. أردتُ نومًا لا تتسرّب إليه فوضى المشاعر.. نومًا هادئًا ممتدًّا كما الموت.

الفصل السادس

وتمرّ أيام الانتظار..

ويهلّ ذلك اليوم كعيد..

يتلألأ كالنجوم..

يحمل الخير كالغيوم..

انتظرتُ ذلك اليوم كغريق ينتظر منقذًا..

كمريض ينتظر شفاءً..

كشهوة تنتظر انطلاقًا.

انتظرته ليس من أجلي، بل من أجلها.

إنه يوم صدور الديوان الشِّعري.

فرحة عنقودية تنفجر في جسدي.

يضيق بي بيتي من فرحتي..

وتضيق بي بيروت من سعادتي..

ويضيق بي لبنان بأسره من شدّة لهفتي..

قبلك لم أُتْقِن فنون الكتابة..

معك أكتب ما يستحقّ القراءة..

وبعدك.. بعدك.. لا شيء يُكْتَب..

تلقيت خبر نشر ديواني الشِّعريّ بفرحة عارمة. إني من ذلك النوع من الناس الذي يخشى الفرحة الشديدة كما يخشى المصائب والفجائع. أيمكن أن يكون تأثير الفرحة على بعض الناس كتأثير المصيبة؟

شعرتُ أن كتابي يهِبُ لينا شعرًا كي تهبني حُبًّا. كم أسعدني هذا الشعور. السعادة في أن تكون قصائدي لساني الذي أتكلّم به، ولغتي التي أحبّها، ومعتقداتي التي أؤمن بها. اشعر أن هذه القصائد كتلك الرسائل الغرامية التي كتبها بيتهوفن ووجّهَها إلى حبيبته دون أن يذكر اسمها، واكتفى بكتابة "الحبيب الأبدي". وها هي مجموعتي موجّهة إلى حبيبتي دون أن أذكر اسمها. أقول لها ما كتبه بيتهوفن لحبيبته: "ما أشد شوقي إليك في أمسي ويومي وغدي، يا حياتي، يا مناي، يا كلّ وجودي".

"إلى حبيبتي الأبدّية أهدي قصائدي هذه". قلت في نفسي.

ذهبتُ إلى لينا عصر ذلك اليوم من أيام الربيع كي تكون هي أول مَنْ يرى الكتاب بعد المؤلف والقائمين على نشره. شعرتُ أنني أطير إليها بديواني الشّعريّ، ترفعني أجنحة السعادة. أطير إليها كأنني حمام زاجل يحمل رسائل مشتعلة بالحب والغرام.

جلستُ على أحد الكراسي، أنتظر دوري، متظاهرًا بأنني جئت من أجل العلاج. رحتُ أقلب صفحات مجموعتي برعشتَيْن؛ رعشة السعادة ورعشة الحبّ. إني أتصوّر السعادة التي ستصعق لينا عندما ترى القصائد التي كُتِبتْ من أجلها. فأيّ مجدٍ غلّف لينا؟ وأي قمّة اعتلتْ؟

لم أدرِ كم من الوقت مرّ حتى جاء دوري. ولجتُ غرفتها. رحّبت بي كعادتها بتلك الابتسامات الصاعقة إثارة.

قالت مبتسمة وهي تنظر إلى الكتاب بين يديّ:

- أما زلت تقرأ في رواية أحلام مستغانمي؟

أجبتها ضاحكًا منفعلاً من السعادة:

- هذه ليست رواية "فوضى الحواس". إنه ديواني الشِّعريّ. إنها كتابكِ. أنتِ أول من يراه.

ابتسمت وبدا وجهها مشرقًا بالسعادة. مدّتْ يدها كي تأخذ الكتاب. جلستُ والكتاب بين يديّ، ثم قلتُ مبتسمًا:

- لا.. لا.. لن تأخذي الكتاب هنا. لستِ كالآخرين كي تأخذي الكتاب بهذه الطريقة. فأنتِ لك طقوس خاصة. سأعطيك الكتاب في مكان آخر يجمعنا.

كدتُ أقول: "مكان آخر يجمعنا كعشيقين". لكنني توقفتُ. أردتُ أن يخبرها ديواني، وليس لساني. أردتها أن تفهم أنّ لها مكانة خاصة في قلبي، ومكانة عالية في تفكيري. فكيف تُهدى شيئًا كما يُهدى الآخرون؟ ابتسمتْ. يبدو أنه أسعدها أن لا تكون كالآخرين، وكيف للآخرين أن يرتقوا إلى مكانتها؟ أن يبلغوا سحرها؟

سألتني:

- ومتى صدر الديوان؟

أجبتها:

- اليوم.. ويشرّفني ويشرّف ديواني أن تكوني أنت أول من يراه. لم يره أحد بعد، حتى زوجتي.

ابتسمتْ ابتسامة مغلّفة بالغرور والتواضع معًا. ولا أعتقد أن امرأة في هذا العالم يمكن أن تنطلق من ثغرها ابتسامة تجمع بين النقيضيْن بتلك الجاذبيّة والسّحر والإثارة. ما أسعدني معها!

الابتسامات لا تفارق وجهها. تنظر إلى الكتاب بين يديّ من حين إلى آخر. وقفتُ، ووضعتُ الكتاب أمامها كي ترى بعض عناوين القصائد.

اعتقدتُ أن عناوين القصائد تزيدها رغبة في قراءة الديوان في أسرع وقت. رحتُ أقلب صفحات الكتاب أمامها وهي تنظر إلى العناوين. كم بدتْ سعيدة. قلت في نفسي: "إنّ آمالي في اختراق قلبها عن طريق هذا الديوان قد تحقّقتْ".

أخذتُ الكتاب وجلستُ على الكرسي، قبالتها. فلا أريدها أن تقرأ الكثير هنا.

قالت:

- كم أتعبك هذا الديوان!

قلتُ:

- الشعر لا ينطلق إلاّ من حبّ جارف عميق.

هزتْ رأسها موافقة. كانت تنظر إلى الكتاب بين يديّ بلهفة. اعتقدتُ لو أنني تركتُ الكتاب معها في تلك اللحظة فإنها ستبدأ في قراءته دون الالتفات إلى هؤلاء المرضى الذين ينتظرون في غرفة الانتظار. أسعدني أن أفعل شيئًا يثير اهتمامها ولهفتها. أهو ديواني الذي أصبح يديرها الآن؟

قالت:

- تبدو سعيدًا يا بهاء.

قلتُ:

- أنا أغرق بسعادة لا يمكن للوصف أن يبلغها. أتمنى أن يعجبكِ الشّعر.

قالت بنبرة تأكيد:

- سيعجبني.

قلتُ كأنني أردت أن أخترق أعماقها، أو أستدرجها لاعتراف ما:

- هل تريدين أن تأخذي الكتاب هنا، أو في مكان آخر؟

قالت مبتسمة:

- كما تريد..

آه.. يا إلهي.. ماذا أسمع؟ قالتها.. صعقتني بها.. لا فرق لديها إذًا. لا فرق لديها إنْ أخذتْ الكتاب هنا، بين المرضى والمتألمين، أو في مكان يشرق بالسعادة والحبّ، فالمهم بالنسبة إليها أن تأخذ الكتاب، ولا تهمّها الطريقة. فاجأني كلامها، لكنني كنت في سعادة قوية تهزم أكثر الأحزان عمقًا.

قلتُ ضاحكًا كما لو أنني أنتزع لقائي معها في هذه الحياة انتزاعًا:

- لا.. لا.. ستأخذينه في مكان آخر.

هزت رأسها دلالة الموافقة. ولم أدر إن كانت موافقتها مدفوعة بالرغبة أو المجاراة. كنت في سعادة لا تحتمل ألم تحليل النفس البشرية، ولا تحتمل الوقوع في مستنقعات شرور الإنسان.

عدتُ إلى منزلي ابتلع سعادة عميقة بقليل من نكهة الحزن. الحزن لأنني شعرت أنه لا فرق لديها في أن تأخذ الكتاب في مكان عملها أو في أي مكان آخر. كم انتظرتُ لقاءً يجمعني معها كي أعطيها ديواني. كم كانتْ فكرة اللقاء مهمّة، مثيرة، ممتعة بالنسبة إلي، وكم بدتْ عاديّة بسيطة بالنسبة إليها. تساءلتُ: "أأنا أُقْحَم في عالمها بقوى عشقية عجيبة كما يُقْحَم الإنسان في هذه الحياة مصادفة"؟

***

لا شيء يضايقني كشعوري بأنني أفرض نفسي على الآخرين، أو أرغم الآخرين على قبولي. مرّت بضعة أيام. وتعمّق هذا الشعور في أعماقي وسبّب لي الألم، على الرغم من أنني لم أُعِر هذا الأمر أهمية كبيرة عندما كنت معها. "سأعطيها الديوان الشعريّ في مكان عملها كغيرها من القراء. فهناك من الناس مَنْ لا يستطيب التميّز"، هكذا قررت.

حملتُ ديواني وذهبت إليها. جلستُ في غرفة الانتظار كعادتي، ورحت أتأمّل المرضى. قلتُ في نفسي وأنا أنظر إلى وجوههم: "أيدرك هؤلاء المرضى أن الألم في أعماقي يفوق آلام أسنانهم؟ أتدركُ لينا أنها لا تعالِج بل تعذبّ؟ وأنها لا تشفي بل تجرح؟ فلْتُخبرني هذه الطبيبة.. كيف تلتئم جروح الأعماق؟"

جاء دوري. لم أدخل بتلك اللهفة التي كانت تغزو جسدي عندما كنت أراها. تقدّمتُ مثقل الخطى، محبطًا. إني محبط من لا مبالاتها التي تضرب لهفتي عليها. جلستُ قبالتها حزينًا، فشعرتْ بعمق حزني.

سألتْني:

- ما بك؟

إني أنتفخ بمشاعر الحب والحزن والإحباط معًا. أسأل نفسي بين الحين والآخر: "ماذا أريد من امرأة متزوجة؟ أين سيوصلني عشقي المجنون"؟ وفجأة أجد نفسي على عتبة انفجار المشاعر، كأن سؤالها فتح باب اعترافاتي. صدري مثقل بحبّها، ولا أقوى على الكتمان. بلا مبالاتها أحبها.. بصمتها.. بكلامها.. بابتساماتها.. بهدوئها.. بثورتها.. بغيابها.. بحضورها أحبّها، أعشقها، أهيم بها. وجدتُ نفسي كطفل انفجر بالاعتراف.

قلت:

- إني أتعذّب. لست سعيدًا كما تتصوّرين.

سألت كأنها لا تعرف:

- ولماذا؟

عجبتُ لأمري. مرّ ما يزيد على عام ولم أخبرها عن حبّي لها. كنت أنتظر صدور ديوان الشّعر كي يقول لها ما لا أستطيع قوله. والآن، وقد

أصبح الديوان بيدي، وعلى بُعْد بضعة سنتمترات من يديها، أجد نفسي انفجر بتلك المشاعر العشقية أمامها.

أجبتها:

- أنت تعرفين. لا يُعقل أنك لا تعرفين بعد كل هذا.

سألتني مرة أخرى بمكر أنثى:

- أعرف ماذا؟

قلت:

- إني أتعذّب بسببك. لا أدري كيف سارت الأمور بهذا الاتجاه، لكن هذا ما قد حدث. إني حائر، ولا أدري ماذا أفعل.

لم أدرِ كم كان عمق تأثير كلامي عليها، لكنني رأيت حزنًا، أو شفقة، أو عطفًا، أو ذهولاً في عينيها. كنت في ثورة من المشاعر، ولم أستطع أن أحدّد ماذا رأيت في عينيها. ساد الصمت بضع دقائق، والرعشة تغزو أعماقي بسبب عدم القدرة على إخفاء مشاعري. الرغبة في هذا الاعتراف وهذا الضعف اللذان انطلقا دون سيطرة لي عليهما.

قالت كأنها تُجلسني على كرسيّ المنطق:

- رائع أن تكون هذه المشاعر موجودة، ولكن سيأتي يوم لن نكون معًا.

إنها تصعقني بفراق لا محالة آتٍ. كأنها تقول لي وبصيغة أخرى: "أنا لستُ لك وأنت لست لي". لم أدرِ. أكنت أنتظر منها أن تخبرني أن لكل واحد منا حياته الخاصة؟ أتعتقد أنني نسيتُ أنها امرأة متزوّجة؟ أهي تصف لي جرعات المنطق؟

مهلاً طبيبتي..

جرعات المنطق هذه لا تناسبني..

ولا تشفي مريضًا بالحبّ..

فكيف ترتكبين خطأً طبيًّا، وخطأً عشقيًّا؟

هم الشعراء الذين يُتقنون تشخيص أمراض العشق.

نظرتُ إليها، ثم قلت كلامًا بنكهة المنطق:

- أعلم أنك متزوجة، وأنا متزوج أيضًا، وأحبّ زوجتي...

أخرستْني نظراتها. كأنها تقول لي: "إذا كنت تحبّ زوجتك، فما معنى حبّك لي"؟ لم أدرِ ماذا كنت سأجيب لو سألتْني هذا السؤال. ربما كنت سأجيب بسذاجة السذاجة: "أحبك وأحبّها". لذت بالصمت دقائق. اختارت لينا أن تسألني بنظراتها وليس بلسانها. تُراني ماذا كنت سأقول لو سألتني هذا السؤال؟ ربما كنت سأقول: "زوجتي لا أستطيع أن أعيش

بدونها، وأمّا حبيبتي أموت إذا ابتعدت عنها. فالزوجة تحتاجها، وأما الحبيبة فهي امرأة تشتهيها. تموت بدون حرائقها بردًا، وتموت بدون هوائها وصوت أنفاسها خنقًا".

لم تسألني. أردفتُ أقول:

- إني احترق بهذه الآلام. وإني أتساءل كيف تعالجين آلام الناس وتسبّبين لي كل هذا الألم العميق؟ عالجيني.

أخرستْني نظراتها مرة أخرى، كأنها تقول لي هذه المرة: "أنا أعالج آلام أسنان الناس، ولا أعالج اضطراب عقولهم".

قالت متسائلة بعد صمت:

- ما أنت فيه بسببي أنا؟

أجبت بسرعة:

- إني أعاني أكثر ما تتصوّرين...

قاطعتْني:

- ولكنك كنت سعيدًا قبل بضعة أيام.

أجبتُ:

- كنت سعيدًا لأجلكِ، لأنّ القصائد التي كتبتها من أجلك ستكون بين يديك.

خيّم الصمت دقائق، قلت في داخلي: "يا حبيبتي.. أحبكِ. ها هي قصائدي أقدّمها قرابين إليكِ طمعًا في رضاك.. طمعًا في ابتسامة تنطلق من شفتيك اللتين تتفرّدان بإثارة عجيبة".

نظرتُ إليها، وأردفتُ أقول بحزن يجاور البكاء:

– ديوان الشعر معي. سأعطيكِ إياه الآن، وفي هذا المكان، مكان عملك. سأعطيك الديوان كما أعطيه لأي شخص عاديّ. أليس هذا ما تريدين؟

شعرتْ بألمي، واخترقها حزني.

قالت:

– لا.. لن آخذ الكتاب هنا. ولكن ما الذي جعلك تريد أن تهديني الكتاب هنا؟

أجبت:

– شعرتُ أنك لا ترغبين في لقاء يجمعنا بعيدًا عن مكان عملك.

سألتْ:

– وكيف شعرت ذلك؟

قلت:

– لا أجد سببًا للخوض في التفاصيل. شعرتُ فقط أنك لا ترغبين في اللقاء. لكِ ما شئت. الكتاب معي، ويمكنك أن تأخذيه الآن...

قاطعتني:

- لم أقل إنني لا أرغب في اللقاء. ولكنّ الوقت لم يكن مناسبًا. لن آخذ الكتاب هنا.

ما أعظمها! ما أروعها! أهي تتحدّث بلسان الطبيبة؟ أم بلسان الحبيبة؟ أهي تشفق عليّ، أم تريد ذلك اللقاء حقًّا؟ لم أدرِ، لكنّ كلامها أراحني، وأخرجني من حفرة الحزن والإحباط. كم أحببتها لحظتها! كدتُ أن أقفز من مكاني وأتوجّه إليها كي أعانقها امتنانًا، وليس رغبة في الإثارة. أردتُ عناقًا يعبّر عن شكري وتقديري لها، لأنني لم أجد في الكلام ما يعبّر عما كنت أشعر به. ولكنها كيف ستدرك هي أنني أعانقها كي أشكرها؟

قلتُ سعيدًا بعد صمت:

- حدّدي الوقت الذي يناسبك، وسأوافق عليه. أو سأتصل بك ونحدد اللقاء معًا.

هزّت رأسها موافقة، والابتسامة تنتشر على وجهها.

قالت:

- حسنًا.

قلت:

- وداعًا.

عدتُ إلى بيتي. ما أجمل العودة إلى البيت بعد لقاء يجمعني بها! جلست على الأريكة في الوقت الذي كانت زوجتي تُعدّ طعام العشاء.

سألتني زوجتي وهي تضع الأطباق على طاولة الطعام:

- تبدو سعيدًا! ما الذي يسعدك هكذا؟

كيف أقول لها إن لقاءً منتظرًا مع لينا يكاد يُفقدني عقلي من شدة الفرح؟ كيف أقول لها إني في الطريق للوصول إلى قلبها، وإنْ كنت بطيء الخطى؟ كيف أقول لها إن ديواني هو السفينة التي أوصلتني إلى مرفأ عشقها؟

قلت ضاحكًا وأنا أرفع ديوان الشعر بيدي:

- هذا.. ألا ترينه؟ هذا.. هذا الكتاب يُسعدني. كم أتعبني في السابق! وكم يسعدني الآن!

جاءت زوجتي، وجلستْ على الأريكة جواري، وأخذتْ الكتاب وراحت تقرأ فيه. إني أنظر إليها صامتًا الآن. إنها تقرأ قصيدة تلو الأخرى، وتبتسم كلما أنهتْ قصيدة. نظرتْ إليّ ووجهها يُشرق بابتسامة جميلة. قرأتْ بضع قصائد، ثم عانقتني والسعادة تتلألأ في عينيها.

قالت وهي تعانقني:

- حبيبي يا بهاء.. ما أجمل قصائدك! أكُلُّ هذه القصائد لي؟

آلمني كلامها لأنه انطلق ببراءة عميقة. آلمني حُسْن ظنّها بي. قلت في نفسي: "يا رب أنقذني مما أنا فيه. امرأة أحبّها، ففي غيابها والابتعاد عنها الموت. وامرأة تغرقني في حنانها، ففي وجودها نبض الحياة. إني أتمزّق ألمًا بين الاثنتيْن، فلا أنا أستطيع أن اقترب من أنياب الموت، ولا أنا أستطيع أن أبتعد عن نبض الحياة".

ابتعدتُ قليلاً، ربما خجلاً من نفسي. أخذت نفسًا عميقًا كأنني أستنشق "الحياة"، ثم قلت كاذبًا:

- أجل هذه القصائد لكِ.

لذتُ بالصمت. تحتاج إلى الصمت كي تحتمل ألم الكذب. ما أحوجنا إلى الكذب أحيانًا، ليس خوفًا، بل لأننا لا نقوى على جرح مشاعر الآخرين. هذا ما شعرتُ به آنذاك. لم أقوَ على قتل سعادتها؛ سعادة زوجتي. ولم أدرِ إن كان جوابي على سؤال زوجتي كذبًا، أم له اسم آخر.

قالت بعد أن قبّلتْ خديّ:

- أحبك يا بهاء. كم أتمنى أن أنجب طفلاً منك، طفلاً واحدًا فقط. ما أروع أن تُنجب المرأة طفلاً من شاعر.

قلت ضاحكًا:

- أهناك فرق؟

أجابت:

– الفرق كبير. أنْ تنجب المرأة طفلاً من شاعر معناه أن تُنْجب فكـرًا. لم تكن لديّ اهتمامـات بـالأدب، والآن وبعـد قـراءتي لهـذه القـصائد التـي تشتعل عشقًا أصبحت غارقة في بحر الأدب حبًّا.

وضعت يدي على كتفها، ثم قلت وقد أعجبني كلامها:

– لم تتناولي طعام العشاء. هيا نأكل.

***

في إحدى الأمسيات الشّعرية في بيروت، طلبت مـن عـماد الـذي كـان يرافقني أن نذهب إلى أحد المقاهي كي نشرب شيئًا، كـأنّ الأدب أتعبنـي. يحدث لنـا بعـض الأحيـان أن نتعـب مـن الأدب كـما نتعـب مـن العمـل. استطاب عماد الفكرة. وما أن هممْتُ بالوقوف سألتني إلهام التي كانت في تلك الأمسية الشعرية، كأنها أرادت أن تستبقيني:

– هل قرأتَ ديوان سيلفيا بلاث؟

أجبتها:

– قرأت قصيدة "وصول صـندوق النحـل" فقـط. سـأقرأ الـديوان في الأيام القادمـة. أمـا روايـة "بـاب الـشمس"، فلـم يبـق منهـا سـوى بـضع صفحات. سأعطيك الرواية عندما أنتهي تمامًا من قراءتها.

قالت:

– ولكن قصيدة "وصول صندوق النحل" حزينة جدًّا...

قاطعتها ضاحكًا:

– يجب أن يفتح الشاعر كل صناديق الحياة، وليس صندوق النحل فقط كي يزداد معرفة، أو ربما يزداد جهلاً. أليس كذلك؟

اتسعتْ عيناها دهشة وقالت:

– كلامك غير مفهوم.

قلت:

– ما أصعب أن يخترق الفرد أعماق إنسان، ولكنّ الأكثر صعوبة هو أن يغوص في تحليلاته..

قالت:

– ما يزال كلامك غير مفهوم.

قلت ضاحكًا:

– أتمنى أن تكون قصائدي غير كلامي.. وداعًا.

ذهبتُ مع عماد وأنا أسمع إلهام تقول كلامًا لم يصلني منه شيء. وفي طريقنا إلى المقهى الذي لم يكن بعيدًا عن المكان الذي كنا فيه، حدّثني عماد عن فتاة أحبّها، ويرغب في الزواج منها.

قال عماد:

– تعمل الفتاة مدّرسة للموسيقى في إحدى المدارس.

سألته:

- وكيف تعرّفتَ إليها؟

أجابني:

- في أحد البنوك.

سألته:

- ومنذ متى؟

أجابني والسعادة تشرق في وجهه:

- منذ بضعة أشهر. سيكون الزواج قريبًا، وستكون أنت وزوجتك أول المدعوين إلى حفل الزواج.

هي اللهفة في البدايات فقط. أما بعد ذلك تأخذ الأمور شكلاً آخر، ربما الموت العاطفي، والملل، وربما عدم وجود الذات. كي تعيش مع شخص آخر، بمعنى التكيّف، تجد نفسك مرغمًا على الانفصال عن ذاتك وطبائعك. ألم أنفصل عن ذاتي عندما قلت لزوجتي إنني كتبت القصائد من أجلها؟ أليست ممارسة الحبّ بدافع الواجب انفصالاً عن الذات؟

لم أشأ أن أفسد على عماد فرحته فقلت:

- أتمنى لك زواجًا سعيدًا.

سألني عماد بشكل مفاجئ:

- ألا ترى أن إلهام تلاحقك بعينيها؟ أشعر أنها تحبكَ.

قلت ساخرًا من الحياة:

- ألا ترى أن الحياة تهب بسخاء ما لا يريد الإنسان، وتمنع عنه كل ما يشتهي؟ كأن الحياة تعلن الحرب على رغباته، ويروق لها عذابه.

هزّ عماد رأسه موافقًا. لم أدرِ إن هو أدرك معنى كلامي أو لم تكن لديه الرغبة في قول رأي آخر.

وصلنا المقهى، وجلسنا إلى طاولة محاطة بثلاثة كراسٍ.

سألني عماد:

- ماذا تريد أن تشرب؟

أجبته:

- سأشرب الشاي.

قال:

- سأشرب الشاي أيضًا.

بعد دقائق قدّم النادل الشاي. وبينما كنّا نتحدّث، ونشرب الشاي، تقدّم شاب في أواخر عقده الثاني نحو الطاولة، وجلس على الكرسي قبالتنا، كأن الكرسيّ الثالث الذي لم يكن يجلس عليه أحد أغراه للانضمام إلينا. عجبتُ لأمره.

كيف يقتحم طاولتنا هكذا؟ ولِمَ لمْ يستأذن؟ ومن هو؟ وماذا يريد منّا؟ قد يكون على صلة بعماد، هكذا توقعت. لكن ما زاد الأمر عجبًا أن عماد فوجئ بالرجل الذي كان يستخدم ساقًا اصطناعية.

وضعت فنجان الشاي أمامي على الطاولة، ورحت أرمق الرجل بنظرات متسائلة.

قال عماد بترحيب مغلّف بالذهول:

- أهلاً.. أهلاً بك..

قاطعه الشاب كأنه شعر بذهولنا ودهشتنا من وجوده معنا، وبتلك الطريقة:

- أعلم أنكما تستغربان وجودي معكما.

غرق الشاب في الصمت برهة والحزن يغطي وجهه كغيمة داكنة اللون تغطي وجه الشمس. شعرتُ أنه يرغب في أن يقول شيئًا يؤلمه ولا يقوى على الاحتفاظ به في أعماقه.

أردف الشاب يقول بنبرة حزينة:

- اسمي رائد، من بيروت. كنت في الحرب...

قاطعه عماد مشيرًا بيده إليّ:

- وهذا بهاء، لاجئ فلسطينيّ من مخيم عين الحلوة، يقيم في بيروت حاليًّا. وهو شاعر. أما أنا فاسمي عماد من بيروت.

نظر إليّ في تأمّل وتساؤل. تُرى لماذا؟ ألم يرق له أنني لاجئ فلسطينيّ؟ أم أنني ذكّرته بالمعاناة التي تعرّض إليها في الحرب؟ لم أدرك كنه نظراته.

أهي نظرات تعاطف؟ أم نظرات ثورة ورفض؟ لم أدرِ. لكنني شعرت برغبة في أن أعرف حكايته.

قال رائد بعد صمت:

- فقدت ساقي في الحرب على لبنان...

قاطعه عماد متسائلاً:

- أي حرب؟ فالحروب الظالمة التي تعرّض لها لبنان كثيرة، فأي حرب تقصد بالتحديد؟

أخذ رائد نفسًا عميقًا ثم قال:

- الحرب الذي تعرّض لها لبنان في 2006.

قال عماد:

- هي الحرب التي استشهد فيها أخي.

قال رائد:

- بعد إصابتي في الحرب، نُقِلتُ إلى إحدى مستشفيات بيروت. وما أن بدأت أتعافى حتى علمتُ أن زوجتي وأولادي قد قتلوا خلال قصف جويّ إسرائيليّ.

نكّستُ رأسي تأثرًا بحكايته. أي عالم هذا الذي يمتلئ بالمعذّبين؟ مَنْ يأبه بهم؟ عماد يتحدّث عن أخيه الذي استشهد في الحرب، ورائد

يتحدّث عن فَقْد ساقه، وفَقْد عائلته، وأمّا أنا فأبتلع ألم التهجير من الوطن.

واصل رائد يقول:

- إن أكثر ما يؤلمني ليس ساقي التي فقدتها، بل ابني الذي كان في سنته الرابعة. طلب منّي دمية بعد عودتي من الحرب. وقد عدتُ من الحرب.. عدتُ دون دمية ودون ساق. أخبراني أنتما.. ما معنى عودتي؟ كيف يصف الشعراء من لا أمل له؟

أجبته:

- كما يصفون مَنْ لا وطن له..

راح رائد يقول كلامًا غريبًا، ثم غادر المكان باكيًا. إنه يهذي بآلامه وأحزانه كالمجنون. ما هي الحياة بعقل قد فُقِد، وبأطراف قد بُترِتْ، وبأعماق لا يلتئم جروحها؟

وبينما كنا نشرب الشاي، رأيت إلهام تقف عند باب المقهى. لم تدخل. رمقتنا بنظرات يغلفها الاستياء. يبدو أنه لا يروقها أن ترانا في المقهى. عجبتُ كيف عرفتْ المكان. أكانت تلاحقنا دون أن ندري؟ لحظتها فقط تأكّدتُ أنها لا تعلم شيئًا عن علاقتي بلينا. فلو كانت تعلم أنني أحبّ لينا، لما جاءت تبحث عني. كيف أقول لإلهام إن قلبي منتفخ بمشاعر الحُبّ، حُبّ امرأة أخرى، وأنه لا يتسع لها.

أدارتْ لنا ظهرها، ثم ذهبتْ.

قال عماد مبتسمًا:

- كيف عرفت إلهام المكان؟

أجبتُ بهدوء:

- لا أدري.

قال عماد:

- ألم اقل لك إنها تحبّك؟ محظوظ أنتَ أيها الشاعر. تلاحقك النساء...

قاطعته:

- جميل ورائع أن يلاحقك مَنْ يحبّكَ، ولكنْ لا أجمل من أن يلاحقَ مَنْ تُحبُّ.

سأل عماد:

- أمغرم أنت؟

سألته:

- ما الذي دفعك إلى أن تسأل هذا السؤال؟

أجابني:

- كلامك تفوح منه رائحة العشق...

لا معنى لعشق تحدّث الآخرين عنه في المقاهي والأماكن العامة، بل لا معنى لعشق تُخرجه من الأعماق الدافئة. هكذا شعرتُ.

الفصل السابع

يمر أسبوعان..

ويأتي يوم لقائي بلينا كي أهديها ديوان الشعر..

أهديها قصائدي على طريقتي بطقوس خاصة لا تليق إلا بها. طقوس عشقيّة سمّيْتها.

إنه يوم تنتشر فيه رائحة الياسمين عشقًا..

تنتفض فيه أعماقي لهفة واشتياقًا..

يوم ينطلق فيه ديوان الشِّعر إلى الحياة.. فهي الحياة.

لم يهمّني أنها أتت من أجل أن تأخذ الكتاب، أو من أجل أن تكون معي. أنا أم ديوان الشِّعر؟ لم يعُد مهمًّا. فما يُثير سعادتي العميقة هو وجودها معي. أتحدّث إليها.. أنظر إلى وجهها المشرق.. أتناول العشاء

معها. يا لها من سعادة عميقة! يبدو أن الحياة تعطينـي الكثير.. أكثر مما توقّعتُ. تعطيني بلا حدود. إنها تعطيني عشقًا يعني لي الوجود.

ديوان الشعر أمامي على الطاولة. أنظر إليه وأقول في نفسي: "أيّها الشّعر كُنْ رسولي إلى قلبها. إنها لا تفهمني، ربما تفهمكَ أنتَ."

قلت والسعادة تثبُ في أعماقي كالنمر:

- يسعدني أنك معي. أتمنى أن ينال الشِّعر إعجابك.

ابتسمتْ ابتسامة فيها جمال يسبي العقل.

قالت:

- سأقرؤه، وبالتأكيد سيعجبني. بذلتَ جهدًا كبيرًا في تأليفه..

"جهدًا كبيرًا،" فكرتُ ساخرًا. ستقرؤه إذًا لأنني بذلتُ جهدًا كبيرًا في تأليفه، وليس لأنه يعنيها. ليس لأنّه منّي. كلامها أحيانًا يثير في داخلي غيظًا وقهرًا. وجدتُ نفسي أبتلع غيظي وقهري، فلم أقوَ على الاعتراض. إن عقلي موثوق بعشقها.

قلت بعد صمت:

- اقرئي القصيدة الأولى بدقّة.

القصيدة الأولى تصف شفتيها. أردتها أن تفهم أنني أشتهي شفتيها حدّ الالتهام.

ردّتْ بشكل مفاجئ:

- يتذمّر المرضى كثيرًا من حقن التخدير.

أذهلني ردّها. أهذا ردّها على شخص يطلب منها أن تقرأ قصيدة؟ في المرة السابقة تحدّثنا عن مجرمي الحروب، والآن تتحدث عن المرضى والتخدير والآلام والأسنان. كيف يكون ردّها على قصيدة تشتعل بالعشق بكلام عن المرضى والحقن؟ ما أعجبها!

لم أتمالك أن قلت:

- لا أعتقد أن هذا المكان يناسبه حديثك عن المرضى والحقن.

ضحكتْ. عجيبة ضحكاتها. إنها تثيرني بإثارة تنتشر في داخلي كموجات كهرومغناطيسية. أمسكتْ بديوان الشّعر، وراحت تقلب صفحاته والابتسامات تقفز على وجهها الجميل.

قالت:

- تبدو القصائد جميلة.

كدتُ أقول لها: "بل تبدو مشتعلة بعشقكِ."

لكنني قلت:

- لاقى الديوان استحسان وإعجاب الناس هنا في بيروت. ولا يهمّني استحسان الناس له بقدر ما يهمّني إعجابك أنت به.

ضحكتْ مرة أخرى. زلزال الإثارة يضرب جسدي مع كل ضحكة تنطلق من شفتيها اللتين تعبقان برائحة الحياة، ونكهة الوجود. كم

أحبّها! كم أشتهيها! ينتابني بعض الأحيان شعور بأن هذا العشق ينسف المبادئ والقيم التي نشأتُ عليها. كيف أعشق طبيبتي هكذا؟ كيف أعشق امرأة متزوجة؟ إلى أين سأصل معها؟ أين المنطق في كلّ هذا؟ كم يعذّبني أن تكون معي دون أن أجرؤ على تقبيلها، أو عناقها، أو ملامسة يديها.

قلت:

- إن أعظم ما يمكن أن يقدّم الشاعر لمن يحبّ هو كتاب تكوّن كجنين وانطلق صارخًا من أعماقه إلى صمت الأوراق البيضاء. ليت القارئ يشعر بألم الصرخة عندما تصطدم بالصمت.

نظرتْ إليّ والذهول يغلّف وجهها، كأن كلامي بدا غريبًا، أو فاق إدراكها. ابتسمتْ ابتسامة تعاطف، كأنها شعرت بعمق عشقي، وعمق ألمي. كم كان يريحني أن أراها تقدّر مشاعري تجاهها.

قالت وهي تمسك بالكتاب:

- لستُ مِمّن يحبّون القراءة، لكنني سأقرأ ديوان الشِّعر هذا.

سرّني كلامها. قراءتها لشعري تعني اختراقها أعماقي.

نظرتْ إلى ساعة يدها. إنها تنوي المغادرة. لا أسوأ من النظر إلى الساعة في لقاء غراميّ.

أردفت تقول:

- لا أعتقد أنني أستطيع أن أبقى أكثر من ذلك.

وقفتْ. ثم وقفت متألمًا. يؤلمني فراقها. ابتسمتُ في وجهها على مضض.

قلتُ بنبرة حزن:

- وداعًا.

قالت:

●شكرًا لكَ على ديوان الشّعر.

أهذا ما أردته منها؟ أن تشكرني على ديوان مزّق أعماقي وهو ينطلق؟ أهي تعتقد أن كلمة الشكر هذه هي أقصى ما يمكن أن تقدّمه لشاعر على معاناته في التأليف؟ إن كان هذا اعتقادها فهذا سوء تقدير لديوان شعر صدر لأجلها.

عدتُ إلى البيت الساعة التاسعة مساءً. عدتُ بسعادة يخترقها فراغ عجيب. فالسعادة لأنني كنت معها. وأما الفراغ فلأنني لم أشبع حاجتي في تقبيل شفتيها اللتين شعرتُ بحاجة شديدة إلى مذاقهما كما الغريزة. لم أُقبّل شفتيها، ولم أجرؤ أن ألامس يديها خوفًا من أن تصعقني بما لا أحتمل وهو الابتعاد عنها.

* * *

أتخيّلها تقرأ...

أتخيّلها تحلّل كل قصيدة..

أتصوّرها تخترق أعماقي من خلال قصائدي..

أتخيّلها.. أتصوّرها.. أتوق إليها.. أهيم بها.

لم أُهاتفها كي أسألها عن رأيها في الديوان الشّعري. أردتُ أن ألقاها كي أعرف رأيها. أردتُ أن أرى تأثير قصائدي عليها.. على وجهها.. على جسدها، وفي أعماقها.

أمهلتها على مضض يومين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم أسبوعًا. يكفيها أسبوع كي تقرأ كتابًا.. كي تحترق بحرائقه عشقًا.

لا أجمل من انتظار لقاء يعني لك الحياة، ولا أشهى من أن تكون مع إنسان يعني لك كل الناس. هكذا شعرتُ. إنها كل الناس بالنسبة إلي، ولقائي معها يثير في داخلي رغبة شديدة في الحياة والاستمرار. يا لسحر وجودها معي.

إنها الساعة الواحدة ظهرًا. عدتُ من عملي ليس متعبًا كعادتي، بل نشيطًا مرحًا مشتاقًا هائمًا. هي بضع ساعات وسأكون معها، في حجرة واحدة، خلف باب مغلق، في خلوة هي الأشهى في حياتي كلها.

هي..

ورعشة العشق..

والحجرة المغلقة..

كأنني في الجنة..

نظرتُ إلى ساعة يدي، وأنا أتخيّل عقارب الساعة تدور بسرعة كي تقف عند الساعة الخامسة، موعد وجودها في عيادتها. ألم تعد لديّ قدرة على انتظار بضع ساعات وقد انتظرت أيامًا؟ إنها اللهفة التي تقتل القدرة على الانتظار.

كيف أقتل صمت ساعات الانتظار القادمة؟ كيف ألغي الثواني، والدقائق، والساعات؟ كيف أخترع ساعة جديدة للعشق؟ العشق، العشق الذي لا يعترف بوحدات الزمن.

كان عليّ أن أُشْغِل نفسي كي لا أشعر بمرور الوقت. اتصلتُ بعماد هاتفيًّا. ما معنى أن تلتقي بشخص كي تمرر الوقت؟ ما معنى أن يكون هذا الشخص "أداة" لقتل صمت الانتظار؟ هذا ما أردته حقًّا. أردتُ رفقة تقتل صمت الانتظار فقط. لست في وضع يسمح لي أن أحاسب نفسي على تفكير سيء كهذا، فلا أريد أن أفسد متعتي بلقائها. عادة لا أحبّ أن أكون مع أحد قبل لقائي بها، ولا حتى بعد أن ألقاها، فهذا يُفسد متعة التفكير فيها.

أخبرت عماد على الهاتف أنني أرغب في أن أتحدث إليه، وهذه بالطبع لم تكن نيّتي. كيف أخبره أنني أريده أداة لقتل صمت انتظاري؟ كيف تهبط صداقتي معه إلى هذا المستوى؟ كيف أرى منه وسيلة لمرور الوقت

وحسب؟ ما كنت هكذا معه. ما الذي أوصلني إلى كل هذا؟ ما الذي أوصلني إلى تجاهل زوجتي؟ ما الذي أوصلني إلى تجاهل مشاعر إلهام تجاهي؟

إنها هي..

إنها لينا.. إنها طبيبتي..

قلبتْ مفاهيمي للأشياء بطريقة عجيبة..

جعلتْني أرى صداقتي لعماد أداة لقتل الوقت..

جعلتْني أرى في حياتي الزوجية نوعًا من التعوّد..

وجعلت مشاعر إلهام تجاهي بلا قيمة..

والعجيب أنه مع كل هذا الضياع الفكري، والفوضى في المشاعر، فإنني أستطيب ما أنا فيه، بل وأتوق إليه. عجبتُ لأمري. كيف وصلتِ الأمور إلى هذا الحدّ؟ ضياع وفوضى أستطيبهما؟ كيف ذلك؟

تساءلتُ، ولم أحاسب نفسي على ما كنت فيه. فلو حاسبتُ نفسي لتراجعتُ عما كنت فيه.

جمعني لقاء مع عماد الساعة الواحدة والنصف في أحد المقاهي. بدا عماد سعيدًا. ولم أدرِ أكان سعيدًا بسبب الفتاة التي أحبّها، أم بسبب وجوده معي؟

قلت:

- تبدو سعيدًا..

قال مبتسمًا:

- وكيف لا أكون سعيدًا وأنا برفقة شاعر، وبعد بضع ساعات سأكون مع خطيبتي.

ابتلعت خجلي من نفسي بألم عندما سمعته يقول إنني أحد أسباب سعادته. تُرى ماذا سيقول لو عرف أنني طلبت أن ألتقي به كي يكون ممحاة لوقت الانتظار، وأنني لم أشعر برغبة في الوجود معه؟ هل كان سيقول ما قال إن عرف ذلك؟

ولكن ما عجبت له أنه وبعد بضع ساعات سيكون مع خطيبته، أي في الوقت الذي أكون فيه مع لينا. يبدو أنه وجد في حديثه معي وسيلة لقتل وقت الانتظار. ويبدو أنني لو لم أطلب أن يلتقي معي، لطلب هو ذلك. ربما يكون الأمر كذلك. إذًا لا مبرر لشعوري بالخجل من نفسي. وجد عماد فيّ وسيلة لقتل وقت الانتظار. "تُرى ماذا سأقول لشخص أجد فيه وسيلة لمرور الوقت؟ وماذا أتوقع أن يقول لي شخص يجد فيّ وسيلة لمرور الوقت؟ ربما لا يوجد ما يثير الكلام في حالة كهذه. أنا معه لأني أعتبره جسرًا يوصلني إلى الجهة الأخرى، مختصرًا الوقت والمسافة، مُبْعدًا عني ألم الانتظار.

قرّرت أن لا أقول له شيئًا.

بدا عماد مغلفًا، كعادته، بمرح شديد. مرحه عادة ما يفتح نوافذ كلامه. أما أنا فكنت قلقًا. إنه ذلك القلق الممزوج بالسعادة الذي يسبق لقائي بلينا. فسعادتي كانت بسبب لقائها، وأما قلقي فكان بسبب خوفي من أن يحدث أمر ما ينسف علاقتي بها. خوف يجتاحني من وقت لآخر. فالابتعاد عنها أمر لم أتصوّر أنني أستطيع أن أحتمله، على الرغم من أنني أدرك استحالة الوصول إليها.

رغبة في الكلام تومض في عينيّ عماد، كأنه أدرك رغبتي في الصمت. تحدّث عن خطيبته، وعن المنزل الذي استأجره جنوب بيروت، كي يقيم فيه بعد زواجه. تحدّث عن ترتيبات زواجه بإسهاب. فراح يذكر أسماء المدعوين إلى زواجه الذي سيجري بعد شهرين. لم أدرِ لماذا راح يذكر أسماء المدعوين واحدًا تلو الآخر. أثناء حديثه عن ترتيبات زواجه، لاحت صورة لينا في ذهني. إنها تستقطب تفكيري الآن، ولم أعد أستمع إلى كلام عماد، كأنه يتحدّث إلى نفسه. أتصوّر لينا، وأتصوّر حديثي معها، وأتخيّل ابتساماتها. ولكن أكثر ما شغل تفكيري لحظتها هو رأيها في ديوان الشّعر.

أُفكّر في مشاعري تجاه لينا. مشاعر جامحة متطرفة.. عميقة ثائرة.. ممتدة لا متناهية كما الوقت. الوقت بمفهومه الأشمل، بدون تقسيماته؛ دون أن يحتضن الأسبوع سبعة أيام، ودون أن يحتضن الشهر ثلاثين يومًا،

ودون أن تحتضن السنة اثني عَشَر شهرًا. أحبّها بتلك الطريقة الممتدة اللانهائية. ورحت أسأل نفسي أسئلة عجيبة غريبة: فما معنى أن يكون في الأسبوع سبعة أيام؟ وما معنى أن يكون في الشهر ثلاثون يومًا؟ وما معنى أن يكون في السنة اثنا عشر شهرًا؟

أسئلة تبدو عجيبة، وربما غبية. فلا أسهل من الإجابة عليها. فالمعنى من هذه التقسيمات هو التنظيم. ولكن.. ألِكَي يأخذ الوقت التنظيم أجلس هنا أعاني ألم الانتظار؟

لا معنى لكلامي. كأنني أدعو إلى خراب الكون. فما معنى أن يأخذ الوقت اتجاهًا واحدًا لا نهائيًّا؟

لست أدعو إلى نسف مفاهيم الوقت، لكنني أجد في نفسي طفلاً لا يدرك معنى الوقت وتقسيماته. في هذا الوقت بالذات أريد أن أكون ذلك الطفل الذي لا يدرك تقسيمات الوقت.

أليس تقسيم الوقت هو الذي يفصلني عن لينا الآن؟ ما معنى أن أنتظر حتى الساعة الخامسة كي أراها؟ أريد أن أراها متى شئت. أريد أن أكسر قيود الوقت.

بدا عماد كأنه يسرد قصة لطفل دون أن يدري أن الطفل قد غرق في النوم. إني غارق في نوم عشقيّ الآن. لا أسمع كلام عماد. وجوده معي لم يقضِ على ألم الانتظار كما توقعّتُ. ويبدو أن وجودي معه هو الذي قضى

على ألم انتظاره، فاستفاد من وجودي معه أكثر مما استفدتُ من وجوده. فَمَن اعتبرته جسرًا لاختصار الوقت والمسافة غدا وهمًا، وأصبحت أجوب طرقات الانتظار الطويلة.

شعرتُ فجأة أنه لا شيء يقتل صمت وألم انتظاري للقائها غير التفكير فيها. فقط أثناء التفكير فيها يخرج الوقت من قيود تقسيمه. تخرج الدقائق والساعات من حسابات الزمن. فلا أجمل من التفكير فيمن نحبّ!

عدتُ أتصوّر لقائي بها. ولحسن حظّي أن عماد لم يشعر بشرود ذهني. فكرتُ فيما ستقول لي لينا. ستكون معي على غير عادتها، لأنه لا بدّ أن يكون ديوان الشعر قد أحدث تأثيرًا في داخلها. ربما تعجبها القصيدة الأولى لأنها تصف شفتيها المثيرتين، وربما تعجبها قصيدة "أنوار ساطعة" لأنها تصف ابتساماتها، وربما تعجبها قصيدة "نور في الظلام" لأنها تصف غموضها، وربما تعجبها قصيدة "لمسات الحياة" لأنها تصف قُبْلة محمومة من شفتيها أشتهيها. ربما.. ربما.. لا أدري أي قصيدة ستنال إعجابها، فالديوان كله يشتعل بعشقها.

أيقظني عماد من سباتي العشقي عندما سمعته يقول:

- الساعة الآن الرابعة وخمس وأربعون دقيقة.

لا شيء يوقظني من سبات عشقي غير موعد معها، كأنه الانتقال من العشق إلى العشق.

خفق قلبي بسرعة معلنًا اقتراب اللقاء، وارتعشتْ أطرافي مستعدة لصعقة عشقية قادمة، وانتشرت السعادة في جسدي معلنة الحرب على الحزن. أوراق الأحزان تتساقط بقوة رياح العشق.

تُرى ما سرّك أيها الجسد؟

لا تعرف السعادة إلا معها، وقبل لقاء قريب بها، وبعد لقاء بها.

مع.. قبل.. وبعد.

ذهب عماد بسيارته، وتوجهت إلى عيادتها.

الساعة الآن الخامسة..

إني الآن معها.. في الجنة.. لا هبوط منها؛ لأن الخطيئة ليست هي التي تجمعنا.

الآن معها. حرف الجر هذا أصبح يرتبط بسعادتي.. بشهوتي.. برغبتي.. بثورتي العشقية.

معها.. معها.. لا أجمل ولا أشهى من أن أكون معها.

جلست قبالتها بتفكير عشقيّ شرس فيها. ما أشهاها. ذراعاي ترتعشان رغبة في عناق حار مُمْتَدٍّ يذيبها.

راحت تحضّر الأدوات التي ستفحص بها أسناني، فقد كذبت عليها وأخبرتها على الهاتف أنني أريد موعدًا من أجل العلاج. الكذب عليها يقودني إلى لقائها. علّمني عشقها الكذب. أيمكن للأشياء السيئة أن تقود إلى السعادة؟ رحم الله نزار الذي قال: "علمني حبك سيدتي أسوأ عادات." علّمني حبها الكذب. أكذب عليها، وأكذب على زوجتي، وأكذب على عماد، وأكذب على إلهام. كأن الكذب أصبح منهج حياة بالنسبة إلي.

ما كنت لأخجل من نفسي، فسعادتي العميقة معها لا تعطيني فرصة كي أصنّف الأشياء بين جيّد وسيء.. بين خطأ وصواب، فكلّ شيء يقود إليها يكون مقبولاً لدي، بل وصائبًا رائعًا. تتغيّر مفاهيمي للأشياء والمبادئ بطريقة تخرج عن سيطرتي.

جلست لينا قبالتي وسألت:

- أي الأسنان تؤلمك؟

"ما جئتُ من أجل ألم أسناني، بل من أجل ألم قلبي يا معذّبتي". كدتُ أقول لها.

قلت ضاحكًا مازحًا:

- كلُّ أسناني.

ضحكتْ. ثم قالت مبتسمة:

- كلّها؟

سألتها:

- هل قرأتِ ديوان الشعر؟

ابتسمتْ مرة أخرى، فعرفتُ أن ابتسامتها تبرق بكلمة "نعم".

رجعتْ إلى الوراء. ابتسمتْ ابتسامة احترتُ في دلالاتها. ابتسامة تختلط في أحشائها اللامبالاة والغموض والغرور. ابتسامة ثلاثية الأبعاد.

قالت وما زالت تلك الابتسامة تنتشر على وجهها:

- لا.. لا.. لم أقرأه.

خُيّل إليّ أن السماء تنطبق على الأرض. لا يعقل هذا. لا أُصدق ما أسمع. كيف أحتمل كل هذا التجاهل وعدم الاكتراث؟ أهي تعني ما تقول، أم أنها تمازحني؟ انتابني شعور أنها تمازحني، فلا يعقل أنها لم تقرأه، وقد كانت تشتعل لهفة عليه.

قلت:

- إنك تمازحينني بالتأكيد. أخبريني.. أي القصائد أعجبتكِ؟

ردتْ بنبرة حاسمة وبتلك الابتسامة المعذّبة:

- لم أقرأه لأنني لم أجد وقتًا لذلك.

إنه ليس مزاحًا إذًا. أإلى هذا الحدّ تستهين بما فعلت من أجلها؟ كم آلمني كلامها. كم أحزنتْني لا مبالاتها. إنّ أكثر ما يؤلم الكاتب هو أن تُسيء تقدير نتاجه الفكري، أو تقلل من قيمة مؤلفاته. ألم تجد هي في ديوان الشّعر ما يستحقّ القراءة؟ لم تقرأه وهي تدرك تمامًا أنني مدحتها. تُرى لو هجوتها أكانت ستقرؤه؟ يحدث لنا بعض الأحيان أن الهجاء يثير اهتمامنا أكثر من المدح، كأننا مجبولون بالسوء. شعرتُ برغبة شديدة في البكاء. بكاء عميق يفرّغني من آلامي التي رشقتْني بها. إني أرتعش الآن حزنًا. يهزّني الحزن وليس العشق. أهي تدرك ما فعلتْ بي كلماتها؟ أتدرك أنها قتلت أعماقي؟ ما هذا الذي تفعلينه بي يا معذّبتي؟ فكّرتُ، وكتبتُ، وسهرتُ، ودقّقتُ، ونقّحتُ، وألّفتُ ديوانًا شعريًّا. ليس من أجلي فعلتُ ما فعلتُ، ولا من أجل أحد، بل من أجلها هي. والآن، الآن لا تجد وقتًا لقراءته. تُرى ما الذي يُشْغلها عن قراءة كتاب صدر عنها ومن أجلها؟ أولادها؟ زوجها؟ أصدقاؤها؟ آلام مرضاها؟ وماذا عنّي أنا؟ وماذا عن آلامي أنا؟ ألامي التي تسحقني إذا ابتعدتُ عنها، وتعذّبني إذا اقتربتُ منها. ألا تجد وقتًا لآلامي؟ ألا تجد وقتًا لي؟ ألا تجد وقتًا لهذياني بها؟

ابتلعتُ مُرّ أحزاني وآلامي، وقلت بابتسامة يلّفها الحزن وبنبرة عتاب:

- ديوان الشّعر صدر من أجلك أنت فقط، ويؤلمني أنه لم يلـق اهتمامًا منك. لو أثار الكتاب اهتمامكِ لتركت كل شيء من أجل قراءته.

قالت، كأنها تحاول استرضائي:

- سأقرؤه...

قاطعتها مستاءً:

- ولكن متى؟

أجابت:

- صدقني مشغولة جدًّا هذه الأيام.

سألتها:

- ألم تقرئي شيئًا فيه؟

أجابت بسرعة:

- لا.

سألتها مرة أخرى، كأن قراءة كلمة واحدة في ديوان الـشّعر ترضـيني، وتقتل حزني.

- ولا كلمة واحدة...

قاطعتني كأنها تريد أن تقطع حبل أسئلتي:

- ولا كلمة.

ما أقساها! لم تقرأ كلمة واحدة في كتاب صدر من أجلها. كم من الوقت تستغرق قراءة كلمة واحدة؟ ثانية؟ أم نصف ثانية؟ دقيقة، أم نصف دقيقة؟ أيعقل أن يكون الوقت هو سبب عدم قراءتها لديوان الشعر؟ كيف وجدتُ الوقت كي أفكّر فيها أيامًا وشهورًا وسنة كاملة؟وكيف لا تجد هي بضع ساعات كي تقرأ ما كتبتُ عنها؟ أيُعقل هذا؟ لا مبالاتها بمشاعري جعلتني أشعر بأنني كالكرة الأرضية أدور حول نفسي، وأدور حول الوهم. تتغيّر فصول حياتي دون أن أبتلّ بمطر الشتاء.. دون أن تلفحني نسائم الصيف.. دون أن أجمع أوراق الأشجار المتساقطة.. ودون أن يخترقني عبير أزهار الربيع.

التفتُّ إليها، فوجدتُ أنها تُمسك بمزهرية صغيرة موضوعة على الطاولة أمامها، وفيها مجموعة من الأزهار البلاستيكية. لم أرغب أن أسألها مَنْ أحضرَ لها هذه الأزهار. ربما لأنني لم أتوقّع منها كلامًا يسرّني. تعودتُ عليها. هي معظم الأحيان تصعقني بما لا يسرّ.

ابتسمتْ وقالت كأنها توقّعتْ أن أسألها:

- هذه الورود من والدي.

ابتسمتُ متألمًا، فلا أستطيع أن أقاوم ابتساماتها. ما أغرب ما كنت فيه! في الوقت الذي كانت تؤلمني فيه لامبالاتها، كانت تثير شهوتي ابتساماتها.

رجعت إلى الوراء في مقعدي، ثم سألتُ بنبرة حزينة:

- هل تحبين الورود؟ أعني لو أحضرت لك باقة من الزهور، فهل ستعني لك شيئًا؟

أجابت بابتسامة وبنبرة جادة:

- أحبّ الورود كثيرًا.

لم أتمالك أن قلت والحزن يعصرني:

- إنْ لم تقدّري ديوانًا شعريًّا، فكيف ستقدّرين باقة من الزهور؟

قالت مرة أخرى:

- أنا أحب الزهور كثيرًا.

تحدّثتْ عن حبها للزهور، ولم تتحدّث عن ديوان الشّعر. عجبتُ لأمرها. أيُعقل أن تكون لمجموعة من الورود قيمة أعلى من ديوان شعريّ بالنسبة إليها؟ ورود تذبل وتموت بعد بضعة أيام تنافس ديوانًا شعريًّا وتتفوّق عليه؟ إنها كمَن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. ما أعجب هذه المرأة!

لم أتمالك أن قلت:

- أيُعقل أن تكون لورود تذبل وتموت قيمة أعلى من ديوان شعريّ بالنسبة إليك؟

أجابت:

- ليس الأمر كذلك، ولكنني أحب الورود.

لم أفهم شيئًا. إن لم يكن الأمر كذلك، فلماذا تصرّ على حبّها للورود؟ أهي تجاريني؟ تحاصرني رغبة في البكاء، لكنني لم أبكِ. آثرتُ أن يمزّق ألم دموعي أعماقي على أن يمزقني ضعفي أمامها. إنها ترى الحزن في وجهي، لكنها لا تأبه به.

تُرى ما الذي يجعلني أعشق امرأة كهذه؟ لا تأبه بي ولا بمشاعري كأنها لا تراني. لماذا لا ترحمني وتطلب مني الابتعاد عنها؟ ولماذا لا أستطيع أن أتّخِذ قرارًا بالابتعاد عنها؟ ربما لأنها تأرجحني بين المتناقضات؛ بين نعم ولا.. بين العشق واللاعشق.. بين الاهتمام والإهمال.. بين الصمت والكلام.. بين دعوة صامتة بالاقتراب ودعوة صارخة بالابتعاد. إنها كالباب الموارب. تبقيكَ حائرًا بين الدخول وعدم الدخول، تبقيكَ سجين المناطق الوسطى؛ فلا أنتَ هنا ولا أنت هناك.. تيأس دون أن تفقد الأمل تمامًا.. تحترق عشقًا دون أن تقترب من نار العشق.. تسري في جسدك متعة الحب دون أن تجد حبًّا.

يا امرأة.. يا معذّبة..

أيتها المولعة بالمناطق الوسطى.. والطرق الملتوية..

أتخشيْن التطرّف العشقيّ؟

أتستطيبين آلام عشاقك؟ أم اعتدتِ عليها كما اعتدتِ على آلام مرضاكِ؟

قد ينطلق من جنون الشِّعر منطق المنطق.. منطق العشق.

ومن حكمة الطب قد ينطلق منطق اللامنطق.

أخذتُ نفسًا عميقًا، ثم نظرتُ إليها وقلتُ حزينًا:

– من الناس مَنْ يصغر في عينه العظيم، ويعظم في عينه الصغير. لذلك يصغر ديوان الشعر في عينكِ، وتعظم باقة الورد. لو كنت مكانكِ لألقيت بديوان الشعر في سلة القمامة، لأنه لا يُعقل أن أحتفظ بشيء لا حاجة لي به.

اختفتْ الابتسامات عن وجهها، وقالت كأنها شعرتْ بعمق حزني:

– سأقرأ ديوان الشعر. هي مسألة وقت فقط. إنك لا تعلم كم أنا مشغولة هذه الأيام.

لم أجد في كلامها ما يقنعني، فقلت عاتبًا:

– إنك لم تقرئي شيئًا في ديوان الشِّعر، ولو حتى كلمة. أهذا ردّك على شخص ألّف ديوانًا شعريًّا عنك. سهر الليالي، وقضى أيامًا وشهورًا يفكّر فيكِ؟

قالت مرة أخرى:

– سأقرؤه قريبًا.

"لا أصدقك، إنك تخدرينني بالكلام." قلت في نفسي.

لم أجرؤ أن أثير غضبها مني، لذلك قلت:

– ليتك تقرئينه. إنه يشتعل عشقًا. فلا أصدق ولا أعمق من مشاعر شاعر. أتدركين ذلك؟

أجابت مبتسمة:

– ربما...

قاطعتها:

– ليس ربما. إنه أمر مؤكد.

هزّت رأسها موافقة، أو تظاهرتْ بأنها موافقة.

قالت:

– ألا تريد أن تعالج أسنانك؟

أجبتها:

– إني في وضع نفسيّ سيء، ولا ينقصني مزيد من الألم، يكفيني ما أنا فيه. سيكون لنا موعد آخر.

لم أقل ما قلت كي أثير شفقتها عليّ، أو أقودها من حالة اللاعشق إلى حالة العشق، فهي تنتمي إلى ذلك النوع من الناس الذي لا تخترق قلبه كلمات العشق، ولا تحرّك مشاعره معاناة عاشق.

وقفتُ وقد التهمني الحزن. غدوتُ فريسة للحزن والألم. لكنني وعلى الرغم من ما كنت أشعر به ابتسمتُ في وجهها. ابتسمت ابتسامات شاحبة. لم أدرِ لماذا أبتسم في وجه امرأة تصعقني لا مبالاتها. ربما لأنني أرى في الابتسامات وسيلة لاستمرار علاقتي بها.

قالت:

- سأحدد لك موعدًا آخر. أيناسبك الخميس القادم؟

يفترسني الضعف وأنا أمامها، فلا أستطيع أن أرفض لها أمرًا. قلبي أراد كلمة "أجل". لذلك قام بإرسال الإشارة إلى لساني كي يقولها. قبلها كنت أدرك أن الدماغ هو الذي يرسل الإشارات إلى أعضاء الجسم، ولكن الأمور معها يلّفها الاختلاف والغرابة. هو القلب الذي غدا يقرر، ويرسل، ويلغي، ويعشق، ويتألم، ويحتمل، ويرفض، ويقبل. هي ثورة على العلم والمنطق.

أجبتها:

- أجل يناسبني.

عدتُ إلى بيتي بمشاعر غريبة. لم أعد أدري إذا كنت أحبّ لينا أم أكرهها؟ أأبتعد عنها أم أبقى على علاقتي بها؟ أفكّر في كلمة "علاقة" بتهيّب، لأنّ الذي بيني وبينها لا يحمل المفهوم الشامل للعلاقة. كيف أسمّي الذي بيني وبينها "علاقة" إذا كنت لا أعلم أنها تحبّني أم

تكرهني؟ تنفر منّي أم تشتهيني؟ تحتقرني أم ترى فيّ إنسانًا عظيمًا؟ لا أفهم منها شيئًا. إن لم يثِر ديوان الشِّعر اهتمامها، فلماذا وافقتْ على أن تأخذ الديوان مني، على طريقتي.. في مكان بعيد.. وبعد تناول العشاء.. وفي طقوس سمّيتها طقوسًا عشقيّة؟ ما أعجب ما أنا فيه! شعرتُ أنني أعيش حالة عشق مع نفسي. أيمكن أن تسمّى حالة كهذه علاقة؟ فالعلاقة تكون بمدى استجابة الطرف الآخر.

جلستُ خلف مكتبي، أتأمّل ديوان الشِّعر الذي كان موضوعًا أمامي على الطاولة. لم أدرِ لماذا شعرت أن ذلك الديوان لم يعد ذا قيمة بالنسبة إلي، على الرغم من إعجاب قراء الشعر في بيروت به. هل فَقَد قيمته لأن لينا لم تقرأه؟ هل فَقَد قيمته لأنه لم يثر اهتمامها؟ أكان الخلل فيها أم فيه؟

ليس غريبًا أن أشعر بأن ديوان الشعر فَقَد قيمته لأنّ لينا لم تقرأه. يحدث لنا بعض الأحيان أن نجد في الأشياء التي نفعلها قيمة أعلى إذا نالت إعجاب واهتمام مَنْ نحبّ. وعلى الرغم من شعوري هذا، فأنا لا أنكر أنّ الأشياء تكتسب قيمتها من حقيقة جوهرها، وليس من رأي الآخرين بها.

انتابتني نوبة بكاء. لم أبكِ أمامها. والآن فأنا أبكي بصمت وألم. فلا أشدّ ألمًا من بكاء صامت. لم أبكِ لأنها لم تقرأ ديوان الشِّعر، بل لأنني وصلت إلى حالة غريبة. فأنا لا أقوى على الابتعاد عنها، ولا أستطيع أن

استمرّ معها، فالابتعاد عنها يقتلني، والاستمرار معها يبكيني.. يؤلمني.. يقهرني.. يعذّبني.. يفصلني عن ذاتي.. يُبْقيني متشبثًا بحالة افتراضية اسمها العشق. كيف تستند الأشياء على أساس افتراضيّ؟ كي تنجح الأشياء يجب أن تستند على قاعدة مدروسة ثابتة. لا أدري أي علاقة هذه التي تنشأ على قاعدة عشق مُفْترض.

* * *

قضيتُ أسبوعين دون أن أُهاتفها. استقطبني عملي، واهتمامات زوجتي.

مرّ الأسبوع الثالث فعاودني التفكير فيها كألم المرض. هذه المرة ألم حاد. لم أعد أفكّر في حقيقة مشاعرها تجاهي. ما أهمّني لحظتها هو أن أكون معها. سرى في جسدي توتر شديد سببه غيابها. لم أعد أحتمل الألم. هي.. هي تلك الجرعة التي تقضي على التوتر في جسدي.. تلك الجرعة التي توصلني إلى أعلى درجات الشفاء.

سكنتني فكرة الورود فجأة، واستحوذت على تفكيري." هي تحبّ الورود. قد تكون الورود هي الطريق إلى قلبها. ربما، ولماذا لا أحاول." قلت في نفسي.

ذات يوم طلبت إذنًا من طوني كي أذهب وأشتري باقة من الزهور. تكرّرتْ مغادرتي لعملي من أجلها، وأدركتُ أنني سأفقد عملي يومًا ما

لأجلها. استغرب طوني طلبي، لكنه أذِنَ لي. ربما استغرب طلبي لأنه يعلم أن اهتماماتي تتركز على الشِّعر وليس الورود. لم أجد ما أقوله له، لذلك تركته غارقًا في استغرابه، حائرًا في تساؤلاته. لم يهمّني ما كان يجول في تفكير الآخرين، ولم أكترث لكلامهم، كأنني كنت مغلّفًا باللاوعي وعدم الإدراك. هو فرويد الذي بيّن أننا نسير في هذا العالم بقوة العواطف المستترة في العقل الكامن أكثر ممّا نسير بقوة الوجدان اليقظ الذي ندري به ما نفعل.

رُحت أجوب شوارع بيروت، باحثًا عن محلات لبيع الورود. أجوب الشوارع وفي أعماقي أتمنى أن تتحوّل بيروت كلها إلى حديقة ورود كي أجمع ما أستطيب وما يليق بها.

وردة تفوح منها رائحة العشق الشرس..

وأخرى تفوح منها رائحة العشق الممنوع..

وثالثة تفوح منها رائحة الرغبة..

ولكن..

أي أزهاركِ يا بيروت تطال اشتهائي لها؟

أي أزهار تطال عشقًا محمومًا كالذي يشتعل في جسدي؟

أي أزهار تطال لهفتي عليها.. واشتياقي إليها؟

فقد تشابهت الأزهار عليّ.

دخلت محلّ بيع الورود. وقفتُ متفرّجًا، حائرًا، بين ألوانها وأشكالها. ففي الأحمر العشق المشتعل. وفي الأبيض العشق العذريّ. وفي الأصفر العشق الثائر. لا أجمل من باقة تجمع بين عشق حسيّ مشتعل، وعشق عذريّ صافٍ، وعشق فوضويّ ثائر. لم أشترِ وردًا طبيعيًّا، لأنني أردتُ وردًا يعيش الدهر كله.

حملت باقة الورود، ثم رحت أتأمّلها وأقول في نفسي: "قد يكون في هذه الورود قوة تفوق قوة الشِّعر.. قد تخترق قلبها في الوقت الذي يقف الشعر صامتًا أمام لغة جسدها. هو الشعر الذي استطاع أن يخترق تفاصيلها، فوصفها.. حلّلها.. مدحها.. رفعها.. عانقها.. قدّسها.. خلّدها، لكنه لم يستطع أن يخترق قلبها.

ما بالكَ أيها الشّعر؟

طعنَتْكَ قوّتها فاستسلمتَ..

صعقكَ بردها وأنتَ الملفوف بالحرائق..

غلّفك صمتها وأنتَ الملغوم بالصرخات..

بوصلة عشقيّة أنتَ أيها الشِّعر..

عشتَ دهرًا تدرك اتجاهات العشق.. العشق الممنوع.. العشق العذريّ.. العشق الحسيّ.

تطرق أبواب الحبّ.. الحب الهادئ.. الحب الثائر.. والحبّ المشتعل بحرائق المشاعر..

ما بالكَ الآن؟

ألا تستطيع أن تستدلّ على اتجاهات حبيبتي؟ اتجاهات جسدها.. تفاصيلها.. قلبها.. مشاعرها.. حرائقها.

أعجِزتَ أمام حبيبتي وأنتَ لغة أمّة بأسرها؟"

عدتُ إلى منزلي وأنا أحمل باقة الورود. لم أعد إلى عملي، ولم أكترث لعواقب عدم عودتي إلى العمل. ولم أكترث لطوني، ولا لتوبيخاته التي توقّعتها اليوم التالي. اجتاحتني رغبة في البقاء مع الورود، وليس مع الكتب، كأنّ الكتب خذلتني.. خذلتْ عشقي الذي أرادها أن تكون رسوله إلى قلب لينا. أحيانًا تخذلك الكتب كما يخذلك الناس.

رنّ جرس الباب فعرفتُ أنها ليست زوجتي، لأنها لا ترنّ الجرس. تفتح الباب بالمفتاح الذي معها. ثم إنها لا تتوقع أن أعود من عملي قبل عودتها. عرفتُ أن شخصًا ما خلف الباب. حملت باقة الورد، ورحتُ أفكّر أين أخفيها كاللص. وضعتها بهدوء في خزانة ملابسي.

توجهت نحو الباب مسرعًا، وما أن فتحت الباب حتى صعقتني ضحكة عماد.

رحبتُ به، ثم قلت والاستغراب يرتسم على وجهي:

- تفضّل.

دخل عماد وهو يحمل مغلّفًا، ثم جلس على الأريكة وقال:

- ذهبتُ إلى مكان عملك أسأل عنك، فأخبرني صاحب العمل أنك ذهبت لشراء الورود.

فاجأني كلامه، ولذتُ بالصمت حائرًا، متسائلاً: "هل فُضِح أمري؟ هل اكتشف أنني عاشق؟ ولكن ما الغريب في أن أشتري الورود؟ ألأنّ شراء الورود ليس عادتي؟"

- الورود؟

أجاب باندفاع:

- أجل، الورود. يبدو أنك تحتفل بعيد زواجك..

ضحكتُ في أعماقي، ثم امتدتِ الضحكة إلى وجهي. أعجبني اندفاعه. حكمه المتسرّع على سبب شراء الورود أنقذني. لم أدرِ ماذا كنت سأقول له. أنقذني من الإجابة. لكنه لو ترك الإجابة على سؤاله لي لما فكّرت نهائيًّا في جوابه، لأنني لا أعتقد أن الشخص يمكن أن يهدي شيئًا لزوجته، ليس لأنه لا يحبّها، بل لأنها بين يديه، فالهدية هدفها التقرّب من إنسان ما. لا تُهْدى الأشياء لشخص أمام عينيك، وبين يديك باستمرار، لكنها تُهْدى لمن هو بعيد عنك. لا أدري مدى الصواب في اعتقاد كهذا، لكنني هذا ما شعرتُ به آنذاك.

قلتُ مبتسمًا:

– هكذا أنت دائمًا. متّقد الذكاء. حدسك قد أصاب.

ضحكَ عماد، ثم قال:

– جئت كي أدعوك إلى حفل زواجي الأسبوع القادم. ها هي بطاقة الدعوة.

أخذت منه بطاقة الدعوة، ورحت أقرأ ما فيها. صعقني اسم عروسه. لينا اسمها. يا لها من مصادفة عجيبة. لينا اسم عروسه، ولينا اسم عشيقتي. يطاردني اسمها، وذكراها، وملامحها أينما ذهبتُ، كأن القدر لا يريد لي الخلاص. الخلاص من عشق يعذّبني.

سألت كأنني لم أفهم ما قرأتُ:

– أهذا اسم عروسك؟ لينا؟

هزّ رأسه وقال:

– أجل. وما الغريب في ذلك؟

ليس غريبًا أن يتشابه اسم عروسه مع اسم عشيقتي، ولكنني شعرت أن هذا الاسم معنى لسعادته، والاسم نفسه معنى لشقائي. كيف أقول له إن هذا الاسم جعلني معلّقًا على حبال الأضداد. الحب واللاحب.. السعادة والحزن.. المتعة واللامتعة.. الأمل واليأس.. المنطق واللامنطق؟

أجبت بعد صمت:

- لا غرابة في ذلك.. سأعد شيئًا نشربه. زوجتي ليست في البيت. إنها في عملها كما تعلم.

ذهبت نحو المطبخ وأنا أسمع عماد يقول:

- أفضل عصير برتقال.

استطبت عصير البرتقال لأنه سهل التحضير. أردت أن أكون وحيدًا في هذيان عشقيّ مع الورود.. على أرجوحة "ممكن" و"ربما" تخترق هذه الورود قلبها. قدّمت العصير، ثم جلست دون أن أطرق باب النقاش، فالخوض في أي موضوع حتمًا سيستبقيه. استغربتُ من نفسي. هذا عماد الذي كنت أقضي معه ساعات طويلة أتحدّث إليه دون ملل، لا أستطيع الآن احتمال وجوده في بيتي بضع دقائق. أهذا شعوري تجاه صديق أتى إلى بيتي كي يدعوني إلى حفل زفافه؟ أغدوتُ سيء الطباع إلى هذا الحدّ؟ عشق أم هروب من الناس، أم هروب من ذاتي؟ أهذا عشق، أم أرض محروقة؟ أرض محروقة مدفون أنا فيها حيًّا؟

أفقتُ من ذهولي وتساؤلاتي عندما سمعتُ عماد يقول:

- قرأتْ خطيبتي لينا قصائدك. أعجبتها القصيدة الأولى كثيرًا.

ابتلعت آهات مؤلمة عندما سمعته يقول ذلك، لأنني تمنيت لو أن لينا خاصتي هي التي قرأت القصائد.

ابتسمتُ على مضض وسألتُ:

- هل تحبّ خطيبتك الشِّعر؟

أجاب عماد بعد أن أنهى العصير:

- قرأته بسبب كثرة حديثي عنه.

اجتاحني الصمت ثوان. ثم دقائق، كأنني أدعوه صمتًا إلى مغادرة المنزل. وقف عماد كأنه استجاب لدعوتي الصامتة.

قال:

- سأغادر الآن. لدي الكثير من الترتيبات الخاصة بحفل الزواج.

غادر عماد، وتوجهت نحو خزانة ملابسي، أتأمّل الورود قبل عودة زوجتي. بدتْ الورود جميلة. تتلألأ كالنجوم، تبتسم كإنسان، كأنها تعلم أنها ستغرق في دفء يديها. وضعتُ بعض العطر النسائي عليها. انتابني شعور أن العطر على هذه الورود يعطيها شيئًا من الحياة. بعد ساعة ستكون هذه الورود بين يديها.

سمعت أحدًا يفتح الباب، عرفت أنها زوجتي، فأخفيت الزهور، ثم توجهت نحو حجرة الجلوس. كانت زوجتي تجلس على الأريكة. اتسعتْ عيناها دهشة عندما رأتني، لأنها لم تتوقّع وجودي في البيت قبل عودتها من عملها. توجهت إليها ثم عانقتها. لم أدرِ لماذا شعرتُ أن عناقًا حارًّا كذاك قد يغسلني من أخطائي.

قالت وقد بدا التعب على وجهها:

- ألم تذهب إلى عملك اليوم؟

أجبتها متظاهرًا بالمرض:

- ذهبت. ولكنني شعرت بألم في بطني، فطلبت إذنًا من طوني كي أعود إلى البيت.

بدا كلامي مقنعًا، لذلك قالت:

- وهل اختفى الألم الآن؟

أجبتها:

- أجل، أشعر بالجوع. سنتناول الطعام معًا.

أعدتْ زوجتي الطعام، وراحت تتحدّث عن مشاكلها في العمل. استمعت إليها بإمعان، لأنني شعرتُ برغبة في الإصغاء إليها. بدا الارتياح عليها، ربما لأنها شعرت باهتمامي بمشاكلها.

بعد تناول طعام الغداء، ذهبتْ زوجتي إلى المطبخ في الوقت الذي كنت فيه أحلق ذقني. بعد دقائق ارتديت ملابسي.

هو الوقت يمرّ ببطء سلحفاة..

تتصاعد اللهفة اشتياقًا..

وتنتشر في الورود رائحة اللقاء..

أخبرتُ زوجتي أنني ذاهب إلى أحد الشعراء في بيروت، وأنني أحمل باقة من الورود كي أهنئه على صدور ديوانه الشِّعري. كغيرها استغربت زوجتي من باقة الورود.

اتسعت عيناها دهشة، وقالت:

– ورود؟! هذه ليست عادتك. لا تهنئ أصدقاءك بالورود..

قاطعتها:

– هذا صديق مختلف.

ذهبتُ مدفوعًا بعشق عذّبني، واستنفد كل طاقاتي.. موْكِلاً لباقة الورود بين يديّ مهمّة صعبة، مهمّة اختراق قلبها. آمالي في الوصول إلى قلبها أعلّقها على باقة الورود هذه.

وضعت الورود في كيس كي أخفيها، خوفًا من أن يراها المرضى في غرفة الانتظار. لم أرغب في إحراجها بين مرضاها.

وصلت العيادة، وجلستُ في غرفة الانتظار. نظرت إلى الكيس بين الحين والآخر خوفًا من أن تظهر إحدى الورود، فيُفْضح أمري. أمسك بالكيس بحذر وأحاول أن أخفي ما فيه كأنني أخفي قنبلة ذريّة. فباقة الورود تلك كانت كالقنبلة الذرية في اعتقادي. ظهورها أمام الآخرين سيفجّر حبًّا عميقًا، وينسفه نسفًا. كنت أحيط باقة الورود بسرّية تامة كما تحاط القنابل الذرية.

هي ساعة أو ساعة ونصف وأنا أتمزّق بين القلق والخوف واللهفة إلى أن جاء دوري.

أضاء وجهها بابتسامات متلألئة عندما رأتني أقدّم لها الورود. قالت بعد أن استنشقت عبير الورود.

- الله.. جميلة جدًّا هذه الورود.

فرحتُ لسعادتها بالورود، ثم قلت وأنا أجلس:

- تمنّيت لو استطعت أن أقدّم لك ورود الدنيا.

ضحكتْ، ولم أدرِ إن كانت ضحكتها إعجابًا بكلامي أم استهزاءً به. فابتساماتها عادة ما تكون ثنائية الأبعاد أو ثلاثية أو حتى رباعية الأبعاد. ابتساماتها تبقيكَ معلّقًا على حبال التأويلات.

اقتربتْ من خزانة صغيرة، ثم قالت وهي تخفي الورود فيها:

- سأضعها هنا كي لا يراها أحد.

تقدمتْ نحو الطاولة، وجلستْ مُبتسمة. بدت سعيدة، وأثارتني سعادتها.

قلتُ وأنا أشير إلى الطاولة أمامها:

- ضعي الورود هنا. أحبّ أن أرى الورود هنا.

هزّتْ رأسها موافقة، ثم قالت ووجهها يشرق بالابتسامات:

- سأضعها هنا غدًا.

سرّني كلامها. إنها ستضع الورود أمامها، في مكان مميّز. ما أثار التعجّب في داخلي هو حديثي واهتمامي بالورود إلى ذلك الحدّ كما لو كانت كتابًا حصل على جائزة نوبل. أي تحول مفاجئ في اهتماماتي هذا؟ معها تتحوّل الاهتمامات فجأة.. بحضورها تتحوّل فصول السنة بغتة كما لو كانت قوة عجيبة.

قدّمتْ لي الشاي الساخن، فاعتبرتُ ذلك امتيازًا ومعاملة خاصة، على الرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي تقدّم لي الشاي فيها. سرتْ في داخلي سعادة وإثارة عميقتين لأنني أشرب الشاي معها في الوقت الذي ينتظر فيه المرضى متألّمين. أنانيّة مغلّفة بالسّادية قادتني إلى سعادة غريبة.

قلت:

– هل أعجبتك الورود؟

أجابت مبتسمة:

– أجل.

قلت محاولاً أن أعرف ما يجول في داخلها:

– إن شعرتِ يومًا أنني أفرض نفسي عليك، وأضايقك بمشاعري تجاهك فقط أخبريني. سأبتعد، على الرغم من أن الابتعاد عنك يؤلمني إلا أنني لا أحب أن أفرض نفسي على أحد.

قالت مبتسمة ولكن بغرور:

- لا يستطيع أحد أن يفرض نفسه عليّ.

شعرتُ بالارتياح، ثم بالسعادة، لأن جوابها وضعني على جسر بين جبل تَقَبّل وجودي معها وجبل الحبّ. شربت الشاي سعيدًا، وشعرتُ أن تأثير الورود عليها قد فاق تأثير ديوان الشِّعر. أعجبتني فكرة الورود، وقرّرتُ في أعماقي أن أقدّم لها باقة بين الحين والآخر.

الفصل الثامن

مرّ أسبوع وفرحتي بالورود التي قدّمتها تسري في جسدي. أهذي بفرحتي أحيانًا، وأهذي باشتياقي إليها أحيانًا أخرى. أوبّخ نفسي لأنني لم أهتدِ إلى سرّ الورود منذ عرفتها.

الآن أنا مع زوجتي في حفل زفاف عماد. إنها الساعة السادسة مساءً. تبرق السعادة من عينيّ عماد وعينيّ عروسه. لاحت صورة لينا في ذهني. وخطرت ببالي فكرة مجنونة لحظتها. فكّرت أن أغادر المكان وأذهب كي أراها.

توجهتُ نحو عماد وهنأته، ثم همستُ له:

- سأغيب قليلاً عن هذا الحفل، وسأعود بعد ساعة أو ساعتين.

هزّ رأسه، ثم ابتسم، كأنه أدرك أهمية مغادرتي. كنت أحمل حقيبة يد فيها بعض الكتب. بينما كنت اشقّ طريقي بين المدعوين، نظرتْ زوجتي إليّ باستغراب لأنني أحمل حقيبة الكتب في مكان كهذا.

توجهت نحو زوجتي وأخبرتها بأنني سأغيب قليلاً، ثم سأعود. على عكس توقعاتي، لم تناقشني، ولم يبدُ الاستياء عليها، ربما لانشغالها بالعرس.

وصلت العيادة الساعة السادسة والنصف. قلبي يخفق عشقًا، وعيناي كأنهما غلّفتهما غشاوة، فلم أر وجوه المرضى المنتظرين. جلست على أحد الكراسي، وفتحت حقيبتي، ثم أخرجت كتابًا دون أن أنظر إليه. وعندما نظرت إليه وجدتُ أنه رواية أحلام مستغانمي "فوضى الحواس". رحتُ أقلب صفحات الكتاب الذي قرأته في السابق. أبحث عن الصفحات التي أثارت اهتمامي بتلك الرواية. وبينما كنت أقلب الصفحات، رفعت عينيّ قليلاً، ونظرت أمامي. خفق قلبي خفقانًا سريعًا، وغلّفتني الدهشة والذهول. ارتعشت ليس عشقًا بل صدمة. أتقوقع الآن بين الصدمة، وعدم التصديق والألم. أيصدّق أحد ما أرى؟ أحدّق.. لا أصدق.. أحدّق مرة أخرى كي أتحقّق. ربما لا تكون هي. أحدّق، وأحدّق، إنها هي.. هي.. هيييي...

إنها باقة الورود.. هناك.. في تلك الزاوية.. على الأرض.. بين المرضى والمتـألمين. باقـة الـورود في زهريـة صـغيرة عـلى الأرض. أرتعـش مـن الصدمة. لم أعد أقوى على أن أقلب صفحات الكتاب. نظرت فيـه خوفًـا من أن أثير انتباه المرضى. أنظر في الكتاب وقد زلزلتني هستيريا الـصدمة والتساؤل: "لماذا تفعل بي هكذا؟ ألم تعجبها الورود؟ لماذا وضعتها هناك، في ذلك المكان؟ هل تريد أن تقول لي إن ورودي لا تعني لها شيئًا؟ أم أنهـا تبحث عن كل ما يؤلمني؟ لماذا تفعل هكذا؟ لماذا لا تطلب مني أن أبتعد؟ ما أقساها! وما أغباني! إنّ الذي لا يقدّر ديوانًا شعريًّا لا يمكنـه أن يقـدّر باقة من الزهور. أكانت تستحق عناء التأليف؟ أكانت تستحقّ عناء المشي في الشوارع بحثًا عن الورود؟ أكانت تستحقّ ثمن هذه الباقة؟

أتجرّع غيظي، وقهري، وألمي وحزني صمتًا. لا ينطلق صوت تعجّب، ولا كلمة احتجاج. أغلّف حزني بصمتي في مكـان تنطلـق فيـه صرخـات المرضى مدوّية.

إنني على وشـك البكـاء.. الـدموع في عينـيّ أصـابها الجمـود. تـأبى أن تنهمر خوفًا من نظرات المرضى، وتأبى أن تتراجع من شـدة الألم. أحـدّق في الكتاب دون أن أرى الكلام بسبب تلك الغشاوة التي كوّنتها الدموع. أبكي بدموع وبلا دموع في آن.. أصرخ بصمت مؤلم.. أتساءل.. ألعـن.. أسـبّ.. أشعر.. لا أشعر.. أهذي.. أهرول بين الـصمت والـصمت. قـد

توصلك أشياء صغيرة إلى أقصى درجات الحبّ، وقد توصلك أشياء صغيرة إلى أقصى درجات الكراهية.

رغبة جامحة اجتاحتني كي أغادر المكان في الوقت الذي شعرتُ فيه بقوة عجيبة تستبقيني. تتقاذفني المشاعر كما الرياح. فوضى من الأفكار والتساؤلات والمشاعر تملأ صفحاتي كما لو أنني الصيغة الأولى لرواية. ما أكثر الشطب، والإضافة، والحذف، والتعديل، والتدقيق، وإعادة النظر في الصيغ الأولى! إني صيغة أولى لكتاب عشق لم تتعرّض للشطب والحذف والتعديل.

ارتعشت من فوضى المشاعر كما لو أن عدوى الفوضى في رواية أحلام مستغانمي انتقلت إليّ. أي مصادفة عجيبة هذه؟ هذه الرواية في هذا الوقت بالذات!

بينما كنت أنظر في الكتاب تذكرّت قولاً قرأته بترجمته للعربية. إنه قول لأحد الأدباء الأميركيين رالف والدو أميرسون: "يجب أن تضع حدًّا لطيبتك، وإلاّ أصبحتْ لا شيء." رائع قول أميرسون، ولكن لو كنت مكانه لقلتُ: "يجب أن تضع حدًّا لحبّكَ وإلاّ أصبح لا شيء".

لم أدرِ بالتحديد ما الذي استبقاني في ذلك المكان. هل الرغبة في أن أراها، أم أردتُ أن أعرف تفسيرًا لما حدث؟

جاء دوري. ولجتُ غرفتها، فاستقبلتني بابتساماتها متعددة الأبعاد. ابتسمتُ والحزن يمزقني.

جلستْ، ثم سألت ووجهها يشرق بالابتسامات:

- كيف حالك يا بهاء؟

كأنها تسأل: "ما رأيكَ في الصفعة التي تلقّيتَها"؟

أخذتُ نفسًا عميقًا، وقلت بصدق بابتسامة شاحبة:

- أسوأ ما يكون...

قاطعتْني كأنها لا تعرف السبب:

- ولماذا؟

أجبتها:

- لماذا وضعتِ باقة الزهور في غرفة الانتظار، بين المرضى وعلى الأرض؟

إجاباتها جاهزة دائمًا. هي على أهبة الاستعداد كما لو كانت جنديًّا في ساحة المعركة، أو سياسيًّا في مؤتمر صحافيّ.

قالت:

- لست أنا. إنه العم إبراهيم الذي ينظف العيادة.

لم يقنعني كلامها، لذلك قلت:

- وهل الذي ينظّف الغرفة ينقل الأشياء من مكانها هكذا؟

أجابت:

- صدقني. لست أنا مَنْ فعل ذلك.

لم أصدّقها، ولكن كان عليّ أن أبتلع كذبها، لأنه ليس هناك غير خيار الابتعاد عنها. فإمّا أن أبتلع كذبها، أو أبتعد عنها. والابتعاد عنها كان أمرًا لم أقوَ على احتماله، لذلك ابتلعتُ كذبها. بعد دقائق قدّمت لي الشاي الساخن. صعقني فنجان الشاي الذي قدّمته لي. إذا كانت لا تستطيب وجودي معها، فلماذا تقدّم لي الشاي؟ أتقدّم الشاي لمرضاها؟ أم هذه عادتها أم ماذا؟ لا أفهم منها شيئًا. بعد أن قدّمت الشاي، بدأتُ أصدّق أن العم إبراهيم هو الذي وضع باقة الزهور في غرفة الانتظار. صدّقت كلامها دون أن أصدّقه تمامًا.

سألتني:

- هل تريد أن تؤلّف ديوانًا شعريًّا آخر؟

عجبت لسؤالها. أهي مهتمّة حقًّا بما أكتب، أم إنها تتظاهر، أم تستفسر؟ لكنها لو كانت مهتمّة بشعري لقرأتْ ما كتبتُ. إذًا.. لماذا تسأل؟ على الأرجح إنها تستفسر.

أجبتها:

- إن كان شِعري يهمّك، فلماذا لم تقرئي ديواني؟

قالت بابتسامة:

- سأقرأ الديوان ربما قريبًا. هل ستكتب ديوانًا آخر؟

لم أدرِ لماذا قالت ذلك. أهي تجاريني؟ لم يعد يهمّني أن تقرأ ديوان الشعر. إن الذي لا يُقرأ خلال أسبوع، فلن يُقْرأ نهائيًّا. أهي تعتقد أنني استميتُ كي تقرأ ديواني؟

قلتُ:

- ربما لا أستطيع أن أكتب إن لم يكن هناك مَنْ يُلهمني.

لم تتكلم، ربما لأنها لم تدرك أهمية الإلهام للكتّاب، وربما لأنها لم تجد في كلامي ما يستحقّ الردّ.

شربتُ الشاي، ثم حملت حقيبتي ورواية "فوضى الحواس" في يدي. غادرت المكان. لم أعد إلى حفل زفاف عماد كما وعدته. عدتُ إلى بيتي واتصلتُ بزوجتي كي تعود إلى المنزل في سيارة أجرة. لم أدرِ لماذا عدتُ أفكرّ في باقة الورود، وعاودني الشك في كلامها. لكن ما أثار عجبي وتساؤلاتي هو حبّي لامرأة كهذه.

إنها تتجاهلني. وتسيء تقديري. قررتُ في نفسي أن أبتعد، وإنْ كان يؤلمني ذلك. أتعبني عشقها، واجتاحتني أمنية الارتياح. خطرتْ ببالي فكرة السفر، رأيت في السفر الخلاص؛ ففي السفر أنت تدفن الذكريات، والأماكن، والأشخاص. وكلّما تذكّرت باقة الزهور وما آلت إليه ازداد إصراري على السفر كي أدفن لينا، والذكريات، والمكان الذي جمعنا

بتراب الابتعاد. وقبل أن تصل زوجتي، رفعت يديّ إلى أعلى وقلت بخشوع: "يا رب اجعلني أكرهها.. إني ألعنها في أعماقي لشدة عشقي لها. اجعلني أكرهها. أمقتها. اجعلني أكرهها حد المقت". قلت هذه الكلمات ومن أعماقي تمنّيتُ أن يستجيب ربي. فلم أعد أحتمل هذا العذاب الذي أغرقتني فيه.

* * *

إنها صيدا..

ملجأي.. وملاذي.. ومكان للاستجمام من مرض العشق الذي تغلغل في أعماقي واستفحل.

استنشق هواءها.. هواء الشفاء من العشق.

مرّ يوم، ثم يومان، ثم ثلاثة، ثم أسبوع. أتحدّث مع زوجتي عن جمال المدينة، كي لا يكون هناك مجال للتفكير في لينا. وكلما لاحت صورة لينا في ذهني، أقترب من زوجتي، ثم أعانقها اعتقادًا مني أن العناق والكلام مع زوجتي يمحوان المساحات المملوءة بذكريات الحبّ.. بذكريات العشق في دماغي. غدوت طبيبًا نفسيًّا لعلاج ذاتي. ما أصعب أن تعالج نفسك لأنك تعلم أكثر من غيرك أكثر الأماكن ألمًا في جسدك، فلا تجرؤ على الاقتراب منها. تلزمك شجاعة مضاعفة عادة لا تمتلكها كي تقترب من ألم تصعقك مقاومته.

حاولت أن أمحو كلامها من ذهني بالكلام مع زوجتي.. أن أمحو صورتها بالاقتراب من وجه زوجتي.. أن أخلع دفء يديها.. أن أنظّم خفقان القلب.. أن أكتب كلمات النسيان على صفحة الذاكرة. حاولت أن أجْبر نفسي على أن تتجرّع جرعات الشفاء. حاولت، وحاولت، ولكنني شعرت بذبذبات مقاومة. فالدواء جسم غريب على الألم.. والنسيان جسم غريب على الذاكرة.. والكراهية جسم غريب على الحبّ. لم احتمل.. أجسام غريبة اجتاحت جسدي، والمقاومة اشتدّت، والألم يعصر أعماقي.

نظرت إلى ساعتي، فكانت الخامسة مساءً. معنى ذلك أنها في عملها. أثار فيّ ذلك الوقت شهيّة الاتصال بها. قفزتُ من مكاني في المنزل الذي استأجرته في صيدا لمدة أسبوعين، وتوجهت نحو غرفة النوم، ورحت أطلب رقمها، كأن ذاكرة الحبّ استقطبتني، وقوة الحبّ اعتقلتني، وفوضى القلب اشتهتني.

جاء صوتها كموج قويّ سحبني نحو بحر العشق، وأنا الذي كنت أفرّغ حمولة سفينة المشاعر في المرفأ. عجبتُ لأمري. لكنّ صوتها أثار فيّ سعادة قضت على قدرتي على تحليل مشاعري، وقضت على معرفتي إن كنتُ في أوائل مراحل الشفاء أو إنني كنت في أوج مراحل العشق. ما

فكّرتُ فيه لحظتها هي تلك السعادة التي شعرت بها عندما سمعت صوتها على هاتفي الخليوي.

سألتني عن إقامتي في صيدا فسرّني اهتمامها. أخبرتها أن صيدا جميلة، وأنني سعيد فيها. كذبت عليها عندما قلت إنني سعيد. وسبب كذبي هو أنني أردت أن أظهر لها أنني أستطيع أن أبتعد عنها دون أن أتعذّب. ثم شعرت بمدى سذاجتي عندما قلت لها ذلك. فإن كنت سعيدًا بالابتعاد، فما معنى اتصالي بها، وقولي لها إنني أشتاق إليها.

لم أفكّر كثيرًا بما اعتقدتْ، وبما اعتقدتُ. سمعتُ صوتها، وهذا ما جعلني أشعر أن عدوى الحبّ والعشق انتقلت إلى صيدا. لا أدري بالتحديد كم كيلو مترًا هي المسافة بين بيروت وصيدا. لكنّ العشق قطعها في دقيقة أو دقيقتين وهي مدة المكالمة.

في تلك الليلة نمتُ..

نمتُ عشقًا..

نمتُ شوقًا..

نمتُ دهرًا أو يزيد..

نمتُ حالمًا بالعودة..

العودة إلى منتصف البحر..

إلى منتصف العشق..

إلى مدّه وجزره..

إلى أمواجه المتلاطمة..

غير آبهٍ بقوانين المنطق..

ولا آبهٍ بقدرتي على السباحة في بحر اسمه الممنوع.

قضيتُ أيامي في صيدا على جسر يربط بين رغبة في النسيان، ورغبة في اللقاء. جبتُ شوارع صيدا مع زوجتي، تحدّثتُ إلى الناس. انتابني شعور غريب عندما كنتُ أجوب شوارع صيدا.. شعور بأنني قد أراها هنا وهناك. إنه هذيان بها. إنها تتسلّل إلى ذاكرتي التي تتمرّن على النسيان. فالذاكرة تصارع النسيان في رأسي.

في منزلي البسيط في صيدا، رحت أقرأ بعض دواوين الشّعر، لكنّ الرغبة في التأليف لم تجتَحْني على غير عادتها. عدتُ أقرأ في ديوان سيلفيا بلاث الذي كان معي. عدتُ إلى قصيدة "وصول صندوق النحل" بالتحديد. قصيدة تتحدث عن الموت. استقطبتْني قضيّة الموت فجأة كي أنسى الحبّ، فالتفكير العميق بالموت يجعل كل شيء سواه تافهًا. إني الآن أجرّب طريقة أخرى للنسيان.. نسيان الحبّ. إنه التفكير في قضية الموت. قرأت القصيدة عدة مرات.

"وصول صندوق النحل"

"أنا مَنْ أوصى بإحضار هذا الصندوق الخشبيّ النظيف.

مربّع الشكل، مثل كرسيّ، والثقيل جدًّا، إلى حدّ ما.

يمكنني القول إنه كان نعشًا لقزم.

أو لطفل رضيع مربّع الشّكل.

فلا جلبة تُسمَع من داخل الصندوق".

من حزن كلمات القصيدة، تنطلق سعادة التفكير في لينا. ومن سكون أبيات القصيدة، تنطلق ثورة لذّة العشق. ومن برد القصيدة، تنطلق حرائق الحبّ.

كلّما قرأت قصيدة "وصول صندوق النحل" كلما ازداد قلبي إصرارًا على العشق.

فلا القصيدة تُنْسيني، ولا التفكير في الموت يطفئ حرائقي.

يا قاهرة سكون الجسد..

يا قاهرة الموت..

يا قاهرة حزن الكلمات..

وسكون الأبيات، وبرد قصائد الموت..

عاودني ألم الحبّ.. ألم الحبّ الصارخ بمتعة ولذّة العشق..

عاودني التفكير فيها وأنا أمارس تمارين النسيان..

فلا تفكيري في الموت يقهرها.. يقهر عشقها،

ولا ينسيني طول السفر والابتعاد.

يا الله.. يا رب الكون.. ماذا أفعل؟

ألّفتُ.. وأهديتُ.. ولم أَنلْ قلبها.

سافرتُ.. وابتعدتُ.. ولم أنسَها..

كذبتُ.. لعنتُ..

ذهبتُ.. أتيتُ..

تمرّدتُ.. هدأتُ..

تكلّمتُ.. صَمتُّ.. دعوتُ.. صُمْتُ.. وقرأتُ.. قرأتُ.. قرأتُ ولم أنسَها.

وضعت ديوان سيلفيا بلاث جانبًا، ورحتُ أنظم قصيدة بعنوان، "نسائم عشق". قصيدة في ديوان سأسميه "فهذا ديواني الأخير". في ديواني السابق كانت لينا هي الملهمة، والآن فأنا أكتب دون إلهام. كيف تكون الملهمة لديواني هذا، وهي التي لم تقرأ كلمة واحدة في ديواني السابق؟

ما أصعب الكتابة دون إلهام! الكتابة بلا إلهام كممارسة الجنس بلا حبّ. فالأفكار لا تنطلق بل تُنْتَزَع.. والعاطفة لا تشتعل بل تنطفئ.. والكلمات تغلّفها الرتابة والهدوء، وليس الثورة.

سهرتُ الليل أكتب في قصيدة أتعبتْني.. تتعثر بحزن الأعماق، بينما كانت القصائد تتدفّق في ديواني السابق.

❋ ❋ ❋

إلى بيروت النابضة بالعشق رجعتُ..

عدتُ مملوءًا بالأشواق والمشاعر والعشق، وفارغًا من النسيان.. إلى بيروت المضمّخة بروائح الحبّ.. أتيتُ.

ما أن وصلت بيروت حتى اتصلت بعماد. شعرتُ برغبة في الحديث معه. إنها الساعة الرابعة عصرًا.

جاء عماد على عجل، كأنه أدرك حاجتي إلى التحدّث إليه. بدا سعيدًا مبتهجًا. التقيت به في منزلي، في غرفة مكتبي، بين صمت الكتب. قدّمت زوجتي الشاي، ثم تركتنا وأغلقت الباب.

قلتُ:

– تبدو سعيدًا...

قاطعني:

– جدًّا.

قلتُ:

- مرّ شهر على زواجكما تقريبًا...

قاطعني منفعلاً من السعادة:

- أجمل شهر في حياتي.

قلتُ:

- إنها البدايات فقط.

لم يقلْ شيئًا، ولم تختفِ سعادته المشرقة على وجهه كأنه لم يدرك ما قصدتُ.

أردفتُ أقول:

- أكتب الآن مجموعة قصائد...

قاطعني فرحًا:

- معنى ذلك أنك ستصدر ديوانًا شعريًّا آخر.

أجبت:

- هذا صحيح.

سألني:

- وماذا ستسمي ديوانك الشّعري القادم؟

أجبته بعد صمت:

- مع أنني لا أعلن عن أسماء دواويني قبل النشّر، إلاّ أنني أشعر برغبة في أن أخبرك. سيكون الكتاب بعنوان: "فهذا ديواني الأخير".

اتسعتْ عيناه دهشة، وربما صدمة.

قال بعد صمت:

- عنوان غريب لكتاب. بل مخيف.. لماذا؟ لماذا؟

لم أجد نفسي مرغمًا على الإجابة. كيف أخبره أن الكلام لا ينطلق، وأن الحبر لا يتدفّق، وأن القلم لا يتحرك بتلقائية عجيبة؟ ربما أدرك أن عنوان الديوان يشير إلى نهاية كتاباتي، أو نهاية حياتي. لم أجبه وجعلته يتأرجح بين الاحتماليْن.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلتُ:

- يحدث لنا بعض الأحيان أن يكون الموت أقصى أمنياتنا. أتدري متى يحدث ذلك؟

تساءل متعجّبًا:

- متى؟!

أجبت بحزن عميق:

- عندما تصبح الحياة كحافة السكين.

رجع إلى الخلف فاغرًا فاه من الدهشة والاستغراب، ثم سأل:

– ما الذي تقوله؟ ما الذي أوصلك إلى شعور كهذا؟ ما الذي يجعل الموت أمنية؟ كيف تتحدّث عن الموت هكذا وأنت شاعر وأمامك مستقبل أدبيّ. فديوانك الذي صدر يبشّر بنجاح أدبيّ.

غرقتُ في صمت عميق، ثم سألت وأعماقي تتمزّق حزنًا:

– أريد أن أنسى أمرًا، فماذا أفعل؟ لا تقُلِ الخمر، فهي تخدّر ولا تقتلع. ولا تقُلِ الكتابة، فقلمي لم تعد تغريه الورقة البيضاء الفارغة. ولا تقُلِ النوم، فإن النوم لم يعد يأتيني. ولا تقلِ السفر، فإنه يقود إلى الكبت وليس النسيان.

غاص عماد في الصمت بضع دقائق من الدهشة والحزن. أدهشه وأحزنه كلامي، ولم يعد يدري ماذا يقول. لم أدرِ ماذا كان يجول في تفكير الرجل. تُراه اعتقد أنني مجنون؟ أم فضحني عشقي وعرف بأنني عاشق؟ أم اعتقد أنني حزين لأنني لم أنجب؟ راح ينظر إليّ، ويقرأ انتظاري لإجابته في وجهي.

تساءل بنبرة دهشة:

– النسيان؟ وماذا تريد أن تنسى؟

قلتُ:

– ليس مهمًّا الأمر الذي أريد أن أنساه. المهم كيف أنسى.

أجاب:

- النسيان له مسالك عديدة كما الطرق. فأي مسالكه تقصد؟ هل نسيان شخص ما؟ أم نسيان أمر ما؟ أم نسيان مصيبة ما؟ ماذا تقصد بالتحديد؟

لم أدرِ ماذا أجيب. لم أرغب في أن أتكلّم عنها لأحد. شعرت أنها كنز يختبئ في أعماقي.

قلت:

- لا أجدُ فرقًا...

قاطعني:

- بل يوجد فرق. فإن كنت تقصد نسيان شخص ما، فقد سمعت عن كتاب صدر حديثًا لأحلام مستغانمي بعنوان "نسيان كوم".

إنها المرّة الأولى التي أسمع فيها باسم الكتاب. شدّني العنوان، وقرّرت في أعماقي أن أبحث عنه وأشتريه. ولكنني تساءلت: "أيمكن أن يكون في هذا الكتاب قوة تفوق قوة الكتابة، والنوم والسفر، والدعاء؟ ماذا سيكون في هذا الكتاب يا تُرى؟ أهو وصفة سحريّة للنسيان؟ لم أجد ما يمنع أن أطرق باب النسيان مع كتاب أحلام."

قلت بعد أن شربت الشاي:

- وهل الكتاب متوفر في المكتبات؟ لم أسمع عنه من قبل.

أجاب:

- إنه في المكتبات. ولكن هل تريد أن تنسى شخصًا ما؟

سألت:

- وهل يتعلّق بنسيان الأشخاص؟

أجاب:

- يتعلّق بنسيان العشّاق...

قاطعته:

- العشّاق؟

أجاب:

- أجل. أعاشق أنت؟

قلت داحضًا اعتقاده:

- إني متزوّج...

قاطعني:

- هم المتزوجون الذين يزلزلهم العشق أكثر من غيرهم.

سألتُ مبتسمًا:

- أتعتقد ذلك؟

سألني:

- أتعتقد غير ذلك؟

قلت:

- لست عاشقًا، بل حالمًا، وربّما واهمًا. قال بيتهوفن في رسائله الغرامية لحبيبته: "ولئن طفت الأرض جميعًا، وذرعت ما بين المشرق والمغرب، فسأعود آخر المطاف إلى أحضانك، متهالكًا بين ذراعيك على عناقك، صائحًا من أعماق الروح."

قال:

- كلامك يدلّ على أنك عاشق.

قلت:

- إعجابك بقول ما ليس بالضرورة أن يكون مطابقًا للواقع.

قال:

- لا أشقى من شاعر إذا عشق.

عجبت لكلامه هذا. فهذه هي المرة الأولى التي شعرت فيها أنه يخترق أعماقي. هذه هي السنة الثانية على صداقتنا، ولم أدرك فيه إلاّ ذلك التفكير السطحي. الآن، الآن أدرك فيه تفكيرًا عميقًا يحلّلني.

شرب عماد الشاي، ثم غادر منزلي.

***

في أوج ذاكرة العشق..

أردّد أغنية النسيان..

ومن بركان الحبّ الثائر..

أتوق إلى هدوء الأعماق..

في اليوم التالـي، رحـت أجـوب شـوارع بـيروت باحثًا عـن الوصـفة السحريّة.. والوصفة السريّة.. والوصفة الطبية لعلاجي من مرض الحبّ الممنوع. هذه المرّة لا أبحث عن محلات لبيع الورود للذاكرة، بـل ألاحـق وأطارد كلمات النسيان الهاربة. أرصد النـسيان كفلكـيّ كـما لـو كـان نجـمًا هاربًا.

دخلت إحدى المكتبات. إنه هنا، على الرفوف. إنـه النـسيان. مـسكت الكتاب. أعجبني الغلاف، وشدّني العنوان: "نـسيان كـوم". خفـق قلبـي خفقان الرغبة والتهيّب معًا.

العنوان حرّك فيّ مشاعر الرغبة والخوف في آن. أرغب في علاج نفسي من مرض أخشى الشّفاء منه. وعلى الغلاف الأمامي مكتوب "يحظر بيعه للرجال".

كيـف سـأرتدي ثـوب النـسيان الـذي صـمِّمَ للنـساء؟ ولكـن وبـما أن النسيان أمر يتعلّق بالعقل البشري، وجدتُ أنه يـصلح للجنـسين. للـذّكَر والأنثى معًا. لذلك لم أجد حرجاً في أن أقرأه.

وبيـنما كنـت أمـسك بالكتـاب رنّ هـاتفي النقّـال. توقّعـتُ أن تكـون زوجتـي، لكنهـا كانـت إلهـام تـدعوني إلى حفلـة تقيمهـا لمناسـبة ذكـرى

زواجها. اعتذرتُ، لأنني لم أجد سببًا لذهابي، فأنا أبحث عن النسيان، وليس عن الذاكرة.

عجبتُ من هؤلاء الذين يحتفلون بذكرى زواجهم، فالذكرى تعني شيئًا حدث في الماضي ولم يعد قائمًا، فما دام الزواج قائمًا فما معنى الاحتفال بذكرى لشيء قائم؟ حياتنا مجبولة بالتناقضات. حملتُ الكتاب فرحًا به كما لو كان الخلاص، متهيبًا منه كما لو كان عدوًّا.

عدتُ إلى منزلي في المساء، وفي أعماقي أدعو لأحلام مستغانمي بطول العمر لأنها وجدتْ علاجًا ناجعًا للعشاق. إني أمسك بالكتاب الآن. الأمور لا تحتمل التأجيل. يجب الدخول في مراحل العلاج. المرحلة الأولى.. أو المائة صفحة الأولى. أقرؤها ويعجبني بعض ما جاء فيها مثل كلمة لأفريد كابوس: "الحبّ هو عدم حصول الرجل فورًا على ما يشتهيه". وبما أنني لن أستطيع أن أحصل على ما أشتهيه منها، فسأبقى عاشقًا لها العمر كلّه.

عجبتُ لأمري. في ساحة النسيان أجد نفسي ملغوماً بالحبّ. لم أيأس. انتقلت إلى الصفحات التالية، أو المرحلة الثانية، فالثالثة، فالرابعة. عقلي تغزوه رغبة في النسيان، وأما جسدي فتسري فيه ذبذبات الاشتياق.

مرّ يومان أو ثلاثة، وأنا أقلّب صفحات الكتاب، وأكرّر كلماته دون أن يستقطب عقلي النسيان. دخلت مراحل العلاج دون أن أجتازها. ذاكرتي تهزم النسيان.

لفتت انتباهي جملتان أتتا بصيغة الأمر على الغلاف: "أحبيه كما لم تحبّ امرأة، وأنسيه كما ينسى الرجال". عجبتُ للجملة الثانية. مَنْ قال لكِ يا أحلام إنّ الرجال ينسون؟ هل استطاع قيس بن الملّوح أن ينسى حبيبته؟ هل استطاع جميل بثينة أن ينسى عشيقته؟ ولماذا لا أستطيع أن أنسى؟ لماذا أهيم في طرقات النسيان دون أن أنسى؟ لماذا أردّد أغنيات النسيان دون أن أطرب؟ ولماذا أقرأ كلماته دون أن أحفظ؟ ولماذا أغوص في بحره دون أن أغرق؟ ولماذا أعانقه دون أن أشعر بدفئه؟

لا أدري كم من الوقت قضتْ أحلام في تأليف هذا الكتاب، وحتمًا لا أقلّل من قيمته. لكنه دواء لا يناسب جسدي. لا تقضي الأدوية على الأمراض المستعصية. مرض مستعصٍ هو هذا العشق. لم أرها منذ ثلاثة أسابيع. اشتياقي إليها يمزّقني، يوتّرني، يسبّب لي اضطرابًا شديدًا، وعميقًا.

في معركة النسيان ضد الذاكرة، أجد نفسي أطلب رقمها، وأحدّد موعدًا معها. موعد مع حبيبتي.. إنه القذيفة التي تلقّاها النسيان

فانتصرت ذاكرة الحبّ، واستسلم النسيان. فالذاكرة، كما النسيان، لها مسالك عديدة.

موعد معها ينتشلني من تحت أنقاض النسيان. وضعتُ كتاب النسيان على رفّ الصمت.. على رفّ النسيان.

الفصل التاسع

وتمرّ الأيام والشهور وأنا بعشق عنيد أهذي..

ويأبى النسيان أن يتذكّرني..

وتأبى ذاكرة الحبّ أن تنساني..

تصفرّ أوراق الأشجار وتتساقط..

تتراكض أيام السنة بفرحها وحزنها..

وتتراكض بلذّة العشق فيها..

ويأتي..

يأتي الخريف مغلّفًا بربيع الحبّ..

وحرارة الذكريات..

يأتي نوفمبر مضمّخًا بعبق الماضي..

بعطر الحبّ.. بأمطار الرغبة.. بعواصف الشهوة..

جاء نوفمبر..

ذات يوم، كنت في ندوة شعرية.. أفكّر في لينا. إنها الشعر والنثر معًا. معها الشِّعر أحلى.. معها النثر أجمل وأخصب..

إلهام تجلس إلى جواري، تقلّب أوراقًا تارة، وتستمع إلى النقاش في الندوة تارة أخرى. شعرتُ بشرود ذهنها بين الحين والآخر. شاركتُ في النقاش الدائر حول الرمزية في الشِّعر العربي. اعتبر البعض أنّ الرمزية تعيق فهم الشِّعر، واعتبر البعض الآخر أنّ الرمزية في الشِّعر العربي جاءت بسبب التأثّر بالشِّعر الغربي. فالرمزيّة بارزة في شعر الشاعر الفرنسي شارل بودلير، وفي شعر الشاعر الأيرلندي وليم بَتْلر ييتس. بعض مَنْ شارك في الندوة اعتبر أن الرمزيّة تحوِّل الشعر إلى ألغاز وأحاجٍ، وبذلك تقضي على فهمه والاستمتاع به، وتُضْعِفه. بينما اعتبر البعض الآخر أنّ الرمزية تثري الشِعر وترتقي به وتُعَمّق معانيه. إلاّ أنني أعتقد أن الرمزيّة إذا استخدمت بشكل غير مفرط فإنها تقوّي معاني الشّعر، وتحوّل القارئ إلى مفكّر ومحلّل وربما ناقد لما يقرأ.

بعد انتهاء الندوة، قدّمت إليّ إلهام مجموعة من الأوراق وقالت:

– هذه بعض محاولاتي في الكتابة. أحبّ أن أعرف رأيك فيها.

مسكت بالأوراق ورحتُ أقرأ بصمت:

"حضوركَ حبيبي..

تحرّش بالحروف والكلمات..

يخرسني، ثم يُنْطِقني، يخرسني..

يرتفع بي إلى أعلى..

إلى عالم لا أحلم إلاّ أن أكون فيه..

هناك..

على ارتفاع صرخة،

على ارتفاع شهقة،

على قمة متعة..

يكون الحبّ فاكهة لذيذة..

ويكون العشق لحظات هاربة..

لحظات عابرة للزّمن.

ويكون الكون بثورته، وجنونه،

وعشقه، وشهقاته..

يكون الكون أنتَ..

من يديكَ تأخذ المتعة حرائقها..

وبين ذراعيكَ جنون وشهوة أنثى.

أدمنتكَ..

أدمنتُ صوت أنفاسكَ..

والإثارة في صوتكَ..

أدمنتُ مذاق شفتيكَ..

عشقت ثورتك، هدوءكَ..

وأدمنتُ كل تفاصيلكَ..

جسدكَ..

كَلُغم موقوت..

أموت احتراقًا إذا اقتربت منه..

وكدواء شافٍ..

أموت ألمًا إذا ابتعدتُ عنه..

فلسطينية لمسات يديكَ..

مقدسيّ مذاق قبلتكَ..

كلما ازداد الحديث معكَ وعنك ازداد أمرك غموضاً، فأي لغز أنتَ؟

وجودك تحرّش باللامنطق.. واللاعقل.. فأيّ أسطورة أنت؟

عشقكَ..

كالإدمان.. كعشق الأوطان.. لا يموت".

نظرتُ إلى إلهام مبتسمًا، وتظاهرتُ أنني لم أعرف مَنْ كانت تقصد.

قلت ضاحكًا، متغابيًا:

– أحسد مَنْ توجّهين له هذه الكلمات الجميلة. "فلسطينية لمسات يديك.. مقدسيّ مذاق قبلتكَ".

قاطعتني مبتسمة:

– ذلك لأنّ كل شيء فلسطينيّ فيه نكهة عذبة، وأما كل شيء مقدسيّ ففيه نكهة أسطوريّة..

ضحكتُ ثم قلت:

– كلمات جميلة رائعة بنكهة لبنانية.

قالت وهي تمسك بالأوراق:

– أعجبني ديوانك الشّعري الذي صدر حديثًا. قرأت قصائدك أكثر من مرّة.

أخذت نفسًا عميقًا، وفي أعماقي تمنّيت لو أن لينا هي التي قالت لي هذا الكلام. أخرجت رواية إلياس خوري "باب الشمس".

قلت:

– هذا كتابك. انتهيت من قراءته قبل بضعة أيام.

قالت وهي تمسك بالكتاب:

– انتظر ديوانك القادم. أحبّ أن أقرأ قصائدك.

قلت:

– ديواني القادم لن يصدر بالسرعة التي صدر فيها الديوان السابق...

قاطعتني:

– ولماذا؟

أجبتُ:

– لأنني أكتب الآن دون قوة ملهمة.

قالت متعجّبة:

– ألا تجد مَنْ يلهمكَ وعشاقك كثيرون؟

قاطعتها:

– ليس مَنْ يعشقون الشاعر هم مَنْ يلهمونه، بل مَنْ يعشق هو.

قالت:

- يقال إنّ الشاعر لا يستطيع أن ينظم القصائد دون حبّ. أنت عاشق إذًا، لأنك تنظم القصائد.

قلت بعد صمت:

- إن لم يكن العشق موجودًا، فلتكن حالة افتراضيّة اسمها العشق.

اتسعت عيناها استغرابًا. يبدو أنها لم تفهم كلامي، ولم أشعر برغبة في أن أخبرها ماذا قصدتُ. تركتها في تأويلاتها وتحليلاتها تسبح.

غادرنا قاعة الندوة وسط بيروت الساعة الثامنة مساءً.

* * *

إني أهذي بذلك اللقاء عشقًا..

لقاء مشتعل بحرائق الحبّ سمّيته..

فَلْتُسمِّه هي ما تشاء..

ولْتُسمّوه أنتم ما تشاءون..

فلم تعد تعنيني مسمّيات الأمور.

أصبحت الأمور بالنسبة إلي أن أكون معها أو لا أكون. كما قال هاملت في مسرحية شكسبير الشهيرة "هاملت": "أكون أو لا أكون. هذه هي القضية". الحياة أو الموت.. الوجود أو عدم الوجود. كيف

وصلت الأمور إلى هذه النقطة الحاسمة؟ أيمكن للعشق أن يوصل الإنسان إلى شعور كهذا؟

إنه الرابع من نوفمبر.. نوفمبر. عجيب أمره. تساقط أوراق الأشجار.. كآبة السماء.. حزن الجو. أيمكن أن يرتبط تساقط أوراق الأشجار، وكآبة السماء، وحزن الجو بالحبّ. شهر ينطلق منه التناقض بصورة عجيبة. نوفمبر الماضي كنت على موعد مع الحب الممنوع.. ونوفمبر الحالي فإني على موعد مع الحب الشرس..

أتخيّل لقائي معها.. أتخيّل جولة عشقية أخرى.. أتخيّل دفئًا عشقيًّا مسروقًا بين ذراعيها..

أرى بخيالي الشرس قُبْلة أسطورية لشفتيها.. قُبْلة تدخل بطون الكتب.. قُبْلة يفتح تاريخ العشق أبوابه لها مرحّبًا.. قُبْلة ترتسم حقيقة مشتعلة في صفحة الخيال.. قُبْلة تتعثر بحرائقها القصائد، ولا تحتوي عمق إثارتها الكتبُ..

تساءلتُ ماذا سأقول لها في لقائنا هذا، فقد قلت لها كل شيء. أهو لقاء لنفض المشاعر فقط؟ إنه كذلك، أو هكذا تصوّرته. إنه ليس لقاءً للكلام. إنه لقاء للاستسلام. الاستسلام للمشاعر.. للحبّ.

رحت أنتظرها عند أحد الفنادق وسط بيروت. وقد اتفقنا في وقت سابق أن يكون لقاؤنا في أحد المطاعم غربي بيروت، وذلك حفاظًا على سرّية اللقاء.

إني أنتظر حسب ساعتي العشقية. ساعة ليست بيدي. إنها ساعة تتحكّم بعقاربها نبضات قلبي. إني أنتظرها بلهفة في أحد الشوارع.. أنتظرها بصبر مغلّف بالاستعجال.

أتأرجح الآن بين دقائق الانتظار، ونبضات القلب المتسارعة رغبة في اللقاء.. لكنها، لم تأتِ. هي أخبرتني أنها ستصل بعد ربع ساعة. مضى الوقت سريعًا بطيئًا، بطيئًا سريعًا ساحقًا صبري. رحتُ أطلب رقمها كل عشر دقائق، لكنني لم أسمع إلاّ رنين الهاتف. رنين بلا كلمات، بلا ردّ. رنين جعلني أتسلّق جبلاً مِنَ الاحتمالات. ربما غيّرت رأيها.. ربّما أرادت أن تطعنني بمفاجأة جديدة، فهي امرأة المفاجآت.. ربّما أمر ما أرغمها على أن لا تأتي.. ربّما لا تجد في وجودها معي ما يستحقّ المغامرة. لم أدرِ.

صبري يحتضر. لم يعد يدرك مقاييس الزمن. مساحات لا متناهية من الانتظار كحرب مفتوحة. كيف تضع حدًّا لحرب مفتوحة؟ كيف توقفها؟

نبضات قلبي تتعثّر بخيبة الأمل، تمامًا كما يتعثر الوقت بمقاييسه. ما معنى انتظار يتعثّر بخيبة الأمل؟

شعرت كأنني أنتظر "ربما". ربّما تأتي وربّما لا تأتي، ولم أدرِ أي الاحتمالَيْن أقوى. أن تأتي أو أن لا تأتي.

عجبتُ لأمري.. عجبتُ لأمرها.. عجبتُ للزمن.. أنا الذي جئت من أجل لقاء يقين، أجد نفسي أنتظر "ربّما". أيعقل هذا؟

اجتاحني ظلام الأحزان مع مرور الوقت، واجتاحني ظلام الأفكار. وجدتُ نفسي أردّد في أعماقي بعض الأبيات الشّعرية من قصيدة "الظلام" للورد بايرون.

"كان لديّ حلم، الذي لم يكن كلّه حلم.

الشمس الساطعة انطفأت، ونجوم تهيم على وجوهها في الفضاء الأبدي.

بلا أشعّة، ولا طرق، والأرض الجليدية".

هكذا بدتْ الأشياء من حولي، مظلمة، غامضة كظلام وغموض قصيدة بايرون.

مرّت ساعة وأنا معلّق فوق نار الانتظار.. أحترق.. أتألم.. تحتضر لوعتي.

أنظر حولي بين الحين والآخر كأنني أتوقّع أن أراها في كلّ الاتجاهات. لكنها ليست هنا، ولا هناك.. ليست في ذلك الشارع، ولا في تلك المساحات.

فجأة انتابتني رغبة في العودة إلى المنزل، لكنّ "ربّما" استبقتْني.

بين رغبة في العودة ولهفة على "ربّما" انتظرتُ. مرّت الدقائق كما الساعات حسب توقيت العشق.. بدا الأمر غامضًا غريبًا. وجدتُ نفسي أنتظر لا أحد.. لا شيء، ولم أعد أشعر أنني أنتظر "ربما". فَقَدَ الانتظار معناه، وفقدتْ ساعة العشق حركتها وصوتها. قرّرت العودة إلى المنزل.

بينما كنت أهمّ بالعودة إلى منزلي، فإذا بهاتفي النقال يصعقني بذبذباته وصوته. إنه رقمها. اجتاحتني السعادة بسرعة البرق عندما سمعت صوتها. صوتها نسف "ربّما" وصرخ بيقين اللقاء.

قالت:

- أنا في سيارتي في نهاية الشارع، على الجهة الأخرى.

قلت:

- لا أدري في أي اتجاه أسير.

قالت:

- تقدّم، ثم أعبر الشارع.

راحت تحدّد لي اتجاه السير على الهاتف. سجاد من السيارات في ذلك الشارع كأن سيارات لبنان كلها كانت تسير فيه في تلك اللحظة. وفي منتصف لهفتي في الوصول إليها، وجدت نفسي واقفًا أنتظر الإشارة

الضوئية. انتظرتُ لمدة ساعة ونصف، والآن يستوقفني استفزاز الإشارة الضوئية، كأنّ ساعة ونصف الساعة لم تشبع شراهة الانتظار.

عبرتُ الشارع بلهفة، وتنفّست الصعداء عندما رأيتها تجلس خلف المقود في سيارتها على جانب الشارع.

حمّى الحبّ تسري في جسدي الآن. إني أجلس في المقعد الأمامي، إلى جوارها. لا أجمل من لحظات كتلك. أجلس إلى جوارها.. تصعقني ابتساماتها، صوت أنفاسها، كلماتها على الرغم من غموضها، ونظراتها على الرغم من تأرجحها بين الدفء والبرد.

قلت متذمّرًا:

- ساعة ونصف وأنا أنتظر؟ أيعقل هذا؟

ضحكتْ كأن احتراقي على نار الانتظار هو ثمن لقائنا.

قالت بعد صمت:

- كان تأخري اضطراريًّا.

قلت مبتسمًا:

- مواعيدك ليست دقيقة.

ابتسمتْ. هذه المرّة ابتسامتها متداخلة المعاني والدلالات. تداخلَ في ابتسامتها الغموض، اللامبالاة، والغرور.

قالت:

- أعتقد أننا لن نستطيع أن نذهب إلى غرب بيروت.

دثّرتني الدهشة. إنها تحدّد المكان ثم تحدّد مكانًا آخر، ولا يهمّها رأيي. إنها تجلس على كرسي اتخاذ القرارات وتتوقّعني صاغيًا، ثم مطيعًا. لم تعجبني فكرة تغيير المكان.

سألتُ مستاءً:

- ولماذا غيّرتِ المكان؟

أجابت بسرعة:

- لديّ ساعة ونصف فقط. إني مرتبطة بأمر ما.

اجتاحني الحزن. حزن انطلقت منه الصدمة كقذيفة. بعد كلّ هذا الانتظار؟ بعد كلّ هذه اللهفة؟ أيعقل هذا؟ وقتها معي يصعقه القِصَر، كأن وقتها حق لكل معارفها وأصدقائها وأقاربها. وقتها يستثنيني أنا، وتعمّ دقائقه وساعاته على كل الناس. على المرضى، والأقارب، والأصدقاء. ألا أستحقّ السّخاء في وقتها لأنني أعشقها؟

قلت وحزني يغطي وجهي كغيمة تغطي وجه السماء:

- مرتبطة بأمر ما؟ ألم تجدي غير هذا اليوم، وهذه الساعات لارتباطاتك؟

ضحكتْ، كأنها أرادتْ أن تظهر لي أن ارتباطاتها في هذه الساعات وفي ذلك الوقت لا يوجد فيها ما يزعجها. ولكنّ الأسوأ من ذلك، هو

شعوري بأنّ ارتباطها هذا الذي قَصَّ شريط لقائنا كان مُختلَقًا، وربّما متعمّدًا. هي في الحالتين قصّتْ لقاءنا. ولكن الذي حيرّني لحظتها هو سبب موافقتها على تناول العشاء معي. ما الذي أجبرها على لقائنا؟ أكانت تجاريني؟ ما الذي جعلها تجاريني؟ أليست مجاراة الآخرين نوعًا من إرغام النفس على فعل ما لا تريد؟ أليستْ هي التي قالت إنها تفعل ما تريد ولا يستطيع أحد أن يجبرها على أن تفعل شيئًا لا ترغب فيه؟ لم أعلم ما الذي كان يجري. ولكنّ ما لفت انتباهي، وأثار بعضًا من دهشتي هي تلك الابتسامات التي بدتْ غير مألوفة، كأنّ لينا ترغمها على الانطلاق. لم تنطلق كعادتها بتلك العفوية الدافئة التي اعتدتُّ عليها.

راحت تقود السيارة وسط بيروت.

قالت بعد صمت وبابتسامة كادتْ العين أن تراها، وكاد القلب أن يشعر بدفئها:

– لا يمكننا أن نذهب غرب بيروت. سنتناول طعام العشاء في أحد المطاعم هنا، وسط بيروت.

عادت إلى صيغة الأمر. ابتلعتُ بحزن قراراتها، ووجدتُ نفسي موافقًا على تناول طعام العشاء في أحد المطاعم وسط بيروت. ما أهمّني لحظتها هو أن أكون معها.

ركنتْ السيارة أمام أحد المطاعم. نزلنا من السيارة، وتوجّهنا إلى داخل المطعم. كان المكان هادئًا، جميلاً.

قلت مشيرًا بيدي إلى طاولة لاثنيْن في ركن بعيد عن الناس:

- لنجلس هناك.

نظرتْ حولها، ثم قالت وهي تشير بيدها إلى طاولة أخرى:

- لا، لا سنجلس هنا.

حتى اختيار الطاولة لم تتركه لي، ولم تكترث إن كان اختيارها يعجبني أم كان يغيظني. وجدت نفسي غارقًا في صمتي فلم أرفض اختيارها.

جلستْ على الكرسي مبتسمة، وجلستُ مبتلعًا غيظي.

قالت بابتسامة باردة:

- المكان جميل، أليس كذلك؟

لم أدرِ ما معنى سؤالها؟ أكانت تطلب رأيي؟

تُرى لو قلت لها إن المكان لم يعجبني، فهل كانتْ ستختار مكانًا آخر؟ حتمًا لا. هي التي اختارت المطعم واختارت الطاولة. لم يهمّها رأيي في شيء، فلماذا سألتْني؟ وجدتُ نفسي مرغمًا على مجاراتها.

قلت بابتسامة حزينة:

- جميل جدًّا.

قالت وهي تنظر إلى ساعة يدها:

- لنطلب العشاء.

سرعتها في طلب طعام العشاء طعنتْ أعماقي حزنًا. هل أتت من أجل أن تتناول الطعام فقط؟ لم تقل شيئًا، ولم تترك لي المجال كي أقول ما أردتُ. رأيتها تنظر حولها، ليس خوفًا من أن يكون أحد يراقبها، وإنّما لأنّها لم تجد ما تقوله، وربّما لأنها كانت شاردة الذهن. لم أشعر بلهفتها على ذلك اللقاء. وجدتُ نفسي أتناول جرعة القبول. قبول مكان المطعم، ومكان الطاولة، وقبول تناول طعام العشاء في الوقت الذي اختارته.

أحضر النادل قائمة الطعام. على عكس ما كنت أتوقّع، وجدتها تختار نفس الوجبة التي اخترتها. هي حدّدت يوم اللقاء، ووقته، ومكانه، وطاولته، وتركت اختيار الوجبة لي. لم أعلم لماذا؟

هل استطابت ذوقي في الطعام؟ أم وجدت نفسها تقرّر الكثير فأرادت أن تترك اختيار الوجبة لي استرضاءً؟ أم أنها وجدتْ في اختيار وجبة أمرًا صغيرًا محتقرًا لا يستحقّ تدخّلها؟ عندي مَيْل للاحتمال الثالث، فهي حتمًا لم يهمّها أن أكون راضيًا أو غير راضٍ. ولو كان الأمر غير ذلك لما اختارت مكان اللقاء، ووقته، وطاولته دون موافقتي مسبقًا. ولا يكون الاحتمال الأول لأنها تفضّل الأسماك وأفضّل اللحوم.

أحضر النادل الطعام، ووضعه على طاولة لم أعرف ماذا أسمّيها. أهي طاولة الأكل، أم العشق، أم الصمت، أم العمل؟ لم أعلم.

بينما كنّا نتناول الطعام، راحت تتحدث عن أشياء لم أكن أتوقّع أن أخوض في نقاشها يومًا ما، مثل رنّات هاتفها الخليوي، والحديث عن الناس الذين يجلسون حول الطاولات الأخرى، وفوائد تناول السمك، وفوائد تناول اللحوم. في لقائنا الأول تحدّثتْ عن مجرمي الحرب. وفي لقائنا الثاني تحدّثت عن مرضاها، وأما الآن فهي تتحدث عن ما هو أقلّ شأنًا. تتحدّث عن الأكل ورنّات الهاتف. هل جاءت من أجل أن تتحدّث عن هذه الأمور؟ أيعقل هذا؟ هي التي تنادي بالمنطق وتتغنّى به. أيّ منطق في أن تأتي مع رجل إلى مكان كهذا كي تتحدّث عن هذه الأمور؟ وما سرّ ابتساماتها التي شعرتُ أنها ترغمها على الانطلاق، ولم تنطلق من أعماقها بتلك العفوية.. بذلك الدفء.. بذلك الترحيب.. بذلك الجمال الأخّاذ؟

فجأة شعرتُ بالإصرار على معرفة ما يجول في أعماقها تجاهي. هي كعادتها لن تجيبني بطريقة مباشرة. فهي من أتباع الطرق الملتوية، والطرق المتعدّدة المسالك. وعليّ أن أقف مفكّرًا متأمّلاً كي أحدّد أي الاتجاهات هي تسير. على الرغم من ذلك شعرتُ بالإصرار على معرفة ما يجول في داخلها. حتى وإن لم تجبني بصدق، فربّما تسقط كلمة أو كلمتان من صندوق غموضها. كلمة تأخذني إلى الطريق الصحيح. فلا يعقل أن أبقى

واقفًا حائرًا عند مفترق العشق واللاعشق، مفترق المنطق واللامنطق، مفترق نعم ولا.

قلتُ بحزن:

- هل أتينا إلى هنا كي نتحدّث عن الطعام؟

قالت بابتسامة يغلّفها الاستفزاز:

- عن ماذا تريد أن تتحدّث إذًا؟

عجبتُ لسؤالها، كأنّ الطعام كان هدف لقائنا، كأنها لا تعرف شيئًا عن مشاعري تجاهها.

قلت:

- لو كان الأمر كما تقولين، أو كما تعتقدين لتناولنا طعامنا في بيتيْنا.

قالت:

- لسنا على صواب فيما نفعل.

قلت متعجّبًا:

- لسنا على صواب؟!

أجابت:

- أجل.

قلت:

- إن كنت أفرض نفسي أو مشاعري عليك، فلماذا لا تخبرينني. سأبتعد إذا كان وجودي معك يضايقك. قلتُ لك ذلك أكثر من مرّة. هل أفرض نفسي عليكِ؟

قالت بنبرة حسم وغرور:

- لا يستطيع أحد أن يفرض نفسه عليّ. ولا يستطيع أحد أن يجبرني على أن أفعل شيئًا لا أريده.

ما أعجبها! عدتُ أسبح في بحر غموضها، أتقوقع في متناقضاتها. كيف أفسّر كلامها؟ إن كانت تعتقد أن ما نفعله خطأ، فلماذا وافقت على المجيء إلى ذلك المكان؟ لا يستطيع أحد أن يفرض نفسه عليها. معنى ذلك أنها أرادتْني أن أكون معها، وأرادتْ لعلاقتنا أن تستمر. فما معنى أن تصف علاقتنا بالخطأ؟ لماذا أتت ولماذا أرادتني أن أكون معها؟ حتمًا إنه ليس الحبّ، لأنّ تعابير وجهها لم يكن فيها ما يشير إلى مشاعر الحبّ الرقيقة. لحظتها رأيت تعابير غريبة عجيبة. تعابير صلبة، قاسية، جارحة، متعالية.

حضرني قول قرأته وأنا أتأمّل تعابير وجهها: "إن لم تكن أحمق، فأنت لستَ عاشقًا".

قلت بحماقة عاشق:

- أحبّ أن أعرف مشاعرك تجاهي.

عجبتُ لكلامي بعد أن قلته. فمشاعر الحبّ تنطلق انطلاقًا، ولا تُنْتَزَع انتزاعًا. شعرتُ كأنني أستجوبها كما يُسْتَجوبُ المجرمون في غرف التحقيق. لا أغبى من إنسان يسأل إنسانًا آخر عن مشاعره، فكلّ ما يجول في الأعماق يظهر في تعابير الوجه بطريقة لا شعورية. فلماذا السؤال إذًا؟

قالت:

- لا أعتقد أننا يجب أن نناقش هذا.

قلتُ:

- ولكن يجب أن أعرف.

قالت كمن يتملّص من قبضة:

- نحن في مكان هادئ وجميل، نتناول العشاء. فما أهمية ما تقوله الآن؟

قلت:

- لا يهمّ أين نكون، ولكنّ المهمّ أن نعرف سبب وجودنا معًا.

لاذت بالصمت كأنّ كلامي أزعجها، أو جعلها لا تعرف ماذا تقول. نظرتْ إليّ وشعرتْ بانتظاري على الردّ.

قالت بعد صمت:

- لماذا تريد أن تفسد جمال اللقاء؟

كأنني اقتربتُ من هدفي الآن، وهو معرفة ما يجول في أعماقها تجاهي. هل معرفة ما يجول في داخلها تجاهي يُفْسد جمال اللقاء؟ يفسده إذا كان كلامها يضايقني أو يحزنني. معنى ذلك أن ما يجول في داخلها تجاهي ليس حبًّا. إنها كراهية، وربّما مقت. فالحبّ لا يفسد الجمال، بل يضاعفه. هي الأمور كذلك إذًا. هي حتمًا لم تتوقع أن أتلقّى سؤالها بهذا التحليل، ووجدتْ في سؤالها نوعًا من الردّ الموارب الذي سيزيدني حيرة. هي تصرّ على أن تبقيني معلّقًا في الهواء. فهذه طريقتها. خذلها ذكاؤها هذه المرّة. اعتقدتْ أن الردّ غير المباشر يُبْقيها في صندوق غموضها، ولم تدرك أن في الردّ الموارب أحيانًا دلالات ومعانٍ أقوى وأكثر وضوحًا من دلالات ومعاني الردّ المباشر. الكلمات.. الجُمَل.. المعاني.. الحروف. الكلمات لعبة الشعراء والكتّاب وليس الأطبّاء.

رحت أنتقي الكلمات بدقّة وحذر. وجدتُ نفسي في حرب مشاعر وكلمات فجأة. حرب لم أكن مستعدًّا لها. لم أضع لها التّرتيبات التي تسبق دائمًا إعلان الحروب. لكن كان عليّ أن أخوض المعركة بكلّ ذلك النقص في الاستعدادات، بكلّ ذلك الضّعف. أنا الذي كنت أمامها كالصّفحة البيضاء تلطّخني بكل هذا السّواد. إذا كانت لا تحبّني فلماذا تستبقيني؟ وماذا تريد مني؟ سنتان وعذاب العشق يصعقني. أفرد أوراقي أمامها في

الوقت الذي تخفي فيه كل أوراقها. غموضها الذي كانت تتباهى به هو الذي كشفها، وليس صراحتها.

قلت كأنني أردتُ أن أعرف المزيد:

- الحبّ شيء رائع..

قاطعتْني باندفاع:

- الحبّ حماقة وغباء.

ضربني زلزال الدهشة. أهذه طبيبة؟ الطبّ الذي يقدّر المشاعر ويسمو بها. أين هي من الطبّ؟

قلت:

- الطب يسمو بالمشاعر الإنسانية ولا يحقّرها. لا يعقل أن يكون هذا رأيك في المشاعر الإنسانية وأنت الطبيبة.

لاذتْ بالصمت، ربّما لأنّ كلامي أقنعها، وربّما أخجلها من نفسها، وربّما لأنها أرادت أن تبقى في صندوق غموضها. لم أدرِ ما معنى موافقتها على تناول طعام العشاء مع رجل هي تدرك تمامًا أنه يحبّها إذا كان رأيها في الحبّ هكذا.

قلت محاولاً استدراجها:

- في أكثر اللحظات قربًا من زوجتي أفكّر فيك. أحب زوجتي كثيرًا، ولكنّني أشعر أن شيئًا يشدّني نحوك.

هـي دائـمًا تفاجئـك بغـير المتوقّـع. توقّعـت أن تقـدّر مـشاعري ولـو بالكلام. توقّعـت أن تعـود إلى منطـق الخطـأ والـصواب وتقـول إن الـذي يحدث بيننا ينبغي أن لا يحدث. لكنها لم تقل شيئًا من ذلك كله. ربّـما كـان كلامها أقرب إلى التوقّع الثاني.

قالت:

- إني أحترم زوجتك كثيرًا.

تحترم زوجتي؟ تحترم زوجتي دون أن تعرفها. كيف ذلك؟

هي حتمًا أرادت أن تقـول: "إني أشـفق عليهـا، لأنهـا مخدوعـة فيـكَ." لكنها وجدتْ في كلمة "احترام" وسطيّة تحافظ فيها على إخفاء آرائها ومشاعرها. هي حذرة في اختيار كلماتها إذًا، ولم تدرك أن أمامها رجلاً لعبته الكلمات. كأنها أرادت أن تقول لي: "أحترم زوجتك وأحتقركَ أنتَ." على مدى سنتين لم تقل لي كلمة أحترمكَ، على الرغم من كل ما فعلت من أجلها. فكيف ستحترم زوجتي التي لم تعرفها؟ عرفت ما يجول في داخلها نحوي، ولم أردّ عليها بكلام مماثل.

سألتها:

- هل أنتِ سعيدة الآن، في هذا المكان؟

أجابت بسرعة وبنبرة حاسمة:

- أجل.

لم أصدّقها. لا يكون الإنسان سعيدًا مع مَنْ يحتقر. هي لم تعرف أنني عرفتُ ما يجول في داخلها تجاهي، لذلك أجابت بكلمة "أجل" في الوقت الذي صرخت أعماقها بكلمة "لا". اعتقدتْ أنها كانت تهزمني بكلامها الضمنّي، بينما كنت أهزمها بعدم رغبتي في الردّ. أردتها أن لا تعرف أنني عرفت مشاعرها تجاهي. عرفتُ مشاعرها بوضوح اخترق غموضها.

انتهينا من تناول الطعام، ثم جاء النادل نحونا كي يأخذ الأطباق. طلبتُ قهوة مرّة، وطلبتْ عصير ليمون. بعد دقائق جاء النادل ووضع القهوة والعصير على طاولة "عشيقيْن". هكذا رآنا، أو هكذا شَعَرَ. قد تجمع الطاولة الواحدة بين الأصدقاء، وقد تجمع بين الأعداء، وحتمًا تجمع بين العشاق. لم يعلم أنني وهذه المرأة لسنا كما نبدو. لسنا عشيقيْن. لم يدرك أن المشاعر التي جمعتْنا في هذا المكان الجميل الهادئ الذي كان يوحي بالحبّ هي ليست مشاعر الحبّ على الإطلاق، وإنّما مشاعر الاحتقار. أيمكن للاحتقار أن يجمع بين اثنيْن؟ ما أغرب هذه الحياة! وما أغرب ما تُنْجب من بني البشر!

لذتُ بالصّمت متألّمًا. شعرتُ بشفقة عميقة على نفسي. لا يوصل الإنسان شيء إلى هذا الشعور إلا الألم الحاد العميق المغلّف بالصدمة. وسبب ألمي وصدمتي ليس لأنني اكتشفتُ أنها لا تحبّني، بل لأنها لم تقدّر حبًّا عميقًا سخيًّا. أحببتها كما لم أحبّ نفسي. أحببتها كما لم أحبّ أحدًا في

حياتي قط. لكنها لم تدرك، ولن تدرك أبدًا، أن حبّ الشعراء يعظّم ولا يصغِّر.. يسمو بالمحبوب ولا يهبط به.. يخلّده ولا يمحوه. ألم تبقَ ليلى عالقة في الذاكرة فقط لأنها كانت عشيقة قيس بن الملوّح؟

رنّ هاتفها الخليوي. إنه زوجها. عرفتُ ذلك من طريقتها في الحديث معه. ولكن ما أثار دهشتي قولها له كلمة "حبيبي". ليس عجيبًا ولا مدهشًا أن تقول المرأة لزوجها "حبيبي"، ولكنّ شعوري بأنها قالت تلك الكلمة ليس رغبة، وإنما كي تثير غيظي وغيرتي عليها، هو الذي صعقني بالصدمة. لم تعلم أنها أطفأت مشاعري الآن، كما تطفئ الشمعة. هذا هو زوجها الذي كانت تشكو منه في لقائنا الأول، وتصفه بأنه سيء المعشر، سيء الطباع، عنيد. إذا كان زوجها حبيبها كما تقول، فما معنى وجودها مع رجل تدرك أنه يحبّها في هذا المكان؟

انتهت مكالمتها مع زوجها. وجدتْني غارقًا في الصمت.

سألتني:

- في ماذا تفكّر؟

قلت بعد صمت والحزن يسري في جسدي:

- لا شيء.

لم أرغب في الكلام. فالكلام لم يعد يجدي. لم أخبرها أنني أفكّر فيما كنّا فيه. أفكّر في ذلك الفراغ الذي ملأني في تلك اللحظة وقد جئتُ منتفخًا

بمشاعر الحبّ والأشواق. عرفتُ في تلك اللحظة أن تأخّرها لم يكن اضطراريًّا. لقد كان متعمّدًا. وعرفتُ أن ارتباطها الذي تحدّثتْ عنه كان متعمّدًا، وربما مُخْتلَقًا.

قالت بعد أن شربتْ العصير:

- سنتناول الطعام معًا عندما تصدر ديوانك الثالث.

تحدّثت عن ديوان لم أفكّر فيه بعد. ديواني الثالث وليس الثاني. معنى ذلك خمس أو ستُ سنوات قادمة. كأنها أرادت أن تخبرني بأن علاقتنا ستستمرّ سنوات طويلة.

قلت متسائلاً:

- وهل ستستمرّ علاقتنا إلى ذلك الحين؟

أجابت بإصرار:

- أجل.

لذتُ بالصمت. لم أشأ أن أخبرها أن علاقتنا كانت تحتضر في تلك اللحظة. لم أعد أرغب في أن أستمرّ في علاقة كتلك، ليس لأنها خطأ كما قالت، بل لأنّ عشق الشاعر، ليس كعشق الإنسان العاديّ. عشقه، كالجوهرة، لا تُهدى إلا لمن يقدّرها.

أردت أن أسألها. "وما نوع هذه العلاقة التي تريدينها أن تستمر لبضع سنوات قادمة؟ أهي علاقة حبّ؟ أم صداقة؟ أم عداء؟ أم غباء؟ أم فراغ؟ أم جنون؟ أم خداع؟

لا يا سيّدتي.. لا يا طبيبتي..

فالعلاقات العاطفية كما الحروب أحيانًا. يجب أن يعرف الإنسان كيف ومتى يُنهيها. حضرني في تلك اللحظة بيت من الشِّعر لسيلفيا بلاث قرأته في ديوانها الذي نشرته قبل انتحارها بفترة قصيرة: "هذه الأقدام وصلت بعيدًا. انتهت." سيلفيا بلاث تتحدّث عن نهاية حياتها في هذا البيت الشِّعريّ، ولكنني شعرت بنهاية حياة علاقة العشق تلك.

فرّغتني من كلّ مشاعر الحبّ في وقت قياسيّ لم تسجّله موسوعة "جينيس" لقياس الأرقام القياسية. فرّغتني من مشاعري تجاهها في ثوانٍ أو أقل. فرّغتني بقسوتها، وأنانيّتها، واستهانتها بالمشاعر الإنسانية.

أنا الذي كتبتُ.. وسافرتُ.. ومارست تمارين النسيان، ولم أقوَ على نسيانها.

أنا الذي ابتعدتُ.. واقتربتُ.. واعتزلتُ.. وصلّيتُ وصمتُ.. ودعوتُ.. ورجوتُ، ولم أنسها.

أنا الذي ذهبتُ.. وأتيتُ.. أتيتُ.. وذهبتُ.. لعنتُ.. وكذبتُ، ولم أنسَها.

والآن، الآن فقط أشعر أنني قادر على نسيانها. أنساها وهي تجلس قبالتي، تفصلني عنها بضعة سنتمترات. بضعة سنتمترات بدتْ كقارّة عظمى بيننا. أيّ قارّة هذه التي بيننا؟ وما اسمها؟ أهي قارّة الاختلاف الفكريّ؟ أم الاختلاف العاطفيّ؟ أيمكن لحبّ زلزلني لمدّة سنتين أن يموت هكذا وبهذه السرعة الخياليّة؟

جئت إلى هذا المكان ممتلئًا بها، ولكنني أشعر أنني فارغ منها الآن. جئتُ توّاقًا لدفئها، لإشراقة ابتساماتها. لكنها سيّدة غير المتوقّع.. سيّدة المفاجآت.. سيّدة طحْن المشاعر بطريقة دبلوماسية.

عُذرًا معشر الأطبّاء عذرًا..

فأنا لا أراود طبيبتي عن نفسها..

ولا أقتحم أخلاقيّات مهنتها..

لكنّني عشقتها.. عشقتها..

بجنون شاعر..

بقلب طفل..

بوضوح ورقة بيضاء..

ببساطة ساذج..

بصفاء سماء بلا غيوم..

الحبّ كما الطفل أحيانًا..
ينمو ويكبر في سنوات،
لكنّه في ثوانٍ يموت.

غادرنا المكان. عدتُ إلى منزلي يغلّفني الصّمت. عدتُ بصمت وظلام قصيدة لورد بايرون "الظلام".

***

مرّت أيام نوفمبر هادئة.. خالية من رعشة الحبّ، كأنّ نوفمبر عاد إلى طبيعته. الطبيعة الصفراء.. الجافّة.. القاسية.. المكفهرّة.

لم أعد أفكّر في لينا بتلك الطريقة العشقيّة. تفكيري فيها لا يتجاوز التفكير في أي إنسان عاديّ. أصبحت صفحة عشقية طويتها، ولم يعد يلزمني أن أقرأ ما فيها. ها أنا أفارقها وابتعد عنها دون أن أشعر بما كنت أخشى ولا أقوى عليه وهو ألم الفراق. فلا شيء يمزّقني ويؤلمني ويزلزلني كألم فراق إنسان أحببته. لم أشعر بذلك الألم في تلك اللحظة.

بدأتْ مشاعري تأخذ أماكنها الصحيحة بطريقة هادئة. مشاعري الآن يجذبها هذا الدفء. إنه دفء جسد زوجتي. فهي التي تستحقّ عشقي، وقصائدي وجسدي، وطفلي الذي أصبحتُ أحلم به.

رحتُ أعانقها بحرارة، وبرغبة ولم أرَ وجه لينا بيننا في تلك اللحظة. أصبحت قوّة لينا وجاذبيّتها أضعف من أن تخترق حتى العناق، وهي التي كانت تخترق أكثر اللحظات قربًا.. الاتصال الجسدي.

أحسستُ بحاجة قوية إلى حديث رجل. فقرّرت أن أذهب إلى عماد الذي أنجبتْ زوجته طفلاً قبل بضعة أيام.

وصلتُ منزل عماد الساعة السادسة مساءً. بدا عماد سعيدًا، ربّما بسبب طفله، وربما بسبب زيارتي له. كانت تلك هي المرّة الأولى التي اجتمع فيها مع عماد وأنا خالٍ من مشاعر العشق كالوعاء الفارغ.

قلت:

- أهنّئك على طفلك.

ضحك عماد وقال:

- شرف كبير لي أن أتلقّى تهنئة من شاعر.

قلت بتواضع:

- نحن أصدقاء، أليس كذلك؟

توجّه نحو حجرة مجاورة، ثم عاد وهو يحمل الطفل. وضع الطفل في حضني وقال:

- أتدري ماذا سمّيته؟

تساءلت مبتسمًا:

– ماذا سمّيته؟

أجاب:

– زهير. أنت بهاء. وهو زهير. عندما تجتمعان تكونان شاعرًا عملاقًا البهاء زهير.

ضحكتُ. أعجبني اسم الطفل، وأعجبني كلام عماد. اختياره لهذا الاسم دلّ على أنني خطرت بباله بطريقة أو بأخرى، وربّما فكّر في الشِّعر والشعراء، وهذا ما اعتبرته نوعًا من التقدير. نظرت إلى الطفل بين يديّ. كان جميلاً. درّتْ في أضلعي مشاعر أبوّة لم أجرّبها. اجتاحتني رغبة في أن أضع طفلي أنا في حضني.. أن أقبّل جبينه. رغبة قوّية في أن يكون لي طفل.. يوقظني من نومي.. يكسِّر أقلامي وأشيائي.. يمزّق أوراقي.. يلعب هنا.. وهناك. يلعب.. يقفز.. يصرخ، وفوق كل هذا.. فوق كلّ هذا يكون أملاً.. أملاً في العودة. العودة إلى دفء الوطن.

أسعدني أن يُرزق عماد هذا الطفل، لكنني حزنت على نفسي. سبب حزني هو شعوري العميق بالحرمان. اجتاحني الشعور بالحرمان من وقت لآخر. كان يذهب ويجيء كهبّات الرياح. أمّا هذه المرّة فإنني أشعر به يخترق أعماقي. إنه يتملّكني.. يسيطر عليّ.. يؤلمني..

ما أشدّ بخل هذه الحياة..

استكثرتْ عليّ وطنًا..

استكثرتْ عليّ عشقًا..

واستكثرتْ عليّ طفلاً..

لم أشعر برغبة في دفء طفل بين ذراعيّ كما شعرت به في تلك اللحظة. بكى الطفل، فأعطيته لوالده وفي داخلي رغبة في أن أبقيه بين ذراعيّ العمر كله. أخذ عماد الطفل منّي وذهب نحو الحجرة المجاورة.

عاد عماد بعد دقائق، ثم قال:

- هذا الطفل يبكي..

لاذ بالصمت فجأة، كأنه تذكّر حرماني من الأطفال. إنّ الحديث عن الأطفال لا يجرح مشاعري، وإنْ كان يذكّرني بحرماني. فأنا حُرِمتُ مما هو أكبر وأعظم من الأطفال.. حرمتُ من دفء الأوطان.

قلتُ محاولاً أن أظهر عدم مضايقتي:

- هم الأطفال هكذا.

سأل:

- ما هي أخبار ديوانك الشِّعري؟

تحدّث عن ديوان الشِّعر دون أن يذكر اسمه، على الرغم من أنه يعرف اسم الديوان. ألم يرغب في أن يذْكَر اسم الديوان كي لا يتذكّر الحزن الذي ينطلق منه؟

قلت مصرًّا على الاسم:

- أتقصد، "فهذا ديواني الأخير"؟

قال وقد غلّف الحزن وجهه.

- أجل.

أجبتُ:

- ما زلت أنظم قصائده الأولى.

قال:

- اعتقدتُ أنك أنهيته.

غرقتُ في الصمت. إنه يقارن بين ديواني الأول والثاني. لم يدرِ أن الديوان الأول صدر عندما كنت في حالة عشقية، وكان الحبّ هو القوّة الدافعة فيه. فلا أقوى من دافعية الحبّ للشِّعر. ولم يدرِ أيضًا أن الحبّ الذي كان يدفعني لتأليف القصائد قد ذاب كما يذوب الجليد، وأنني الآن فارغ من المشاعر العشقية. ماذا يُخْرج الإنسان من وعاء فارغ؟

قد يستهجن البعض كلامي. ألا يستطيع الشعراء أن يكتبوا دون حبّ؟ هل كلّ ما يُكتَب تنجبه العلاقات الغرامية؟ أيُعقل هذا؟ الكتابة تتناول قضايا عديدة، لا علاقة لها بالحبّ، كالموت، والحياة، والفلسفة، والسياسة والدين.

لا أدري لماذا تأخذ الأمور شكلاً آخر معي، ربّما شكلاً غريبًا. فالحبّ قوة دافعة للكتابة حتى وإن كان الأمر يتعلّق بالموت. فأصدق ما يُكتب هو الذي يغلّفه الحب.

قلت:

- سأنتهي منه عندما أجد ما يملأني.

رمقني بنظرات تعجّب وتساؤل. هو حتمًا لم يفهم ماذا قصدتُ، ولم أرغب أن أوضّح.

أردفتُ أقول:

- سأسافر غدًا.

تساءل:

- تسافر؟ إلى أين؟

أجبتُ:

- سأسافر إلى جنوب لبنان، إلى مخيّم عين الحلوة، حيث ولدتُ ونشأتُ.

لا أسافر هذه المرّة من أجل النسيان، بل من أجل الذاكرة. ذاكرة المكان والأشخاص، ذاكرة العودة..

سأل:

- ولماذا ستذهب؟

أجبتُ:

- سأزور عمتي هناك.

قال:

- لا أعتقد أنك ستبقى هناك. حتمًا ستعود إلى بيروت كي تنشر ديوانك الثاني. قلْ إنك ستعود.

قلتُ حزينًا وأنا أهزّ رأسي:

- سأعود، فالعودة تستحوذ على تفكيري، وتسكن في قلبي.

ابتسم عماد معتقدًا أنني قصدتُ عودتي إلى بيروت. شربنا الشاي الساخن بصمت، كأن الكلام نفد. رن هاتفي النقال. إنه رقم إلهام. ظل يرنّ دون أن أشعر برغبة في قتل رنينه.

***

من بيروت العشق.. من بيروت الفكر.. من بيروت الحرية.. أتيتُ.

إلى ذكريات المخيّم.. إلى زوايا بؤسه.. إلى حكايات وأحلام مَنْ فيه.. إلى أزقّته وصلتُ.

وصلت أنا وزوجتي منزل عمتي الذي يقع في وسط المخيّم الساعة الثالثة بعد الظهر. رحّبت بنا عمتي التي كانت في السبعين من عمرها.

ما أن يخترق لاجئ بؤس المخيّم يصعقه ذلك السؤال الذي يصرخ بالعتاب: "لماذا أيها التاريخ نسيتَ بؤس هؤلاء؟"

أزعج عمتي أن لا تكون زوجتي حاملاً بعد سبع سنوات من الزواج، ووعدَتْها بوصفة سحرية تساعدها على الحمل. قالت إن نساء المخيّم يتوجّهن إليها بعد ما يعجز الأطباء عن علاجهنّ. لم أدرِ ما سرّ هذه الوصفة "السحرية"، فهذه شؤون نسائية. كنت أستمع إلى عمتي وهي تحدّث زوجتي عن قدرتها على مساعدة النساء على الحمل، وفي أعماقي أدرك عبث وصْفَتِها التي وصَفَتْها بالسحرية. فمن لم ينجب على مدى أكثر من سبع سنوات من الزواج، لن ينجب بعد ذلك. هذا ما شعرتُ به. فماذا يتوقّع الإنسان من أيام عوّدته على شحّ عطائها. ولكنّ الأمل، وإن كان صغيراً لا يُرى بالعين المجرّدة، فهو موجود. هكذا أحسستُ لحظتها..

راحت عمتي تقطّع العجين، وتخبز الخبز وزوجتي تساعدها.

بينما كانت تخبز الخبز، تحدّثت عمتي عن القرية التي وُلِدتْ وعاشت فيها لمدة عشر سنوات قبل أن تتركها مع جدّي وجدّتي وأعمامي سنة 1948. إنها الآن في مخيّم عين الحلوة، تستعيد ذكرياتها التي لم يمحها الوقت.. لم تمحها السنوات على الرغم من طولها.. ولم تمحها كلمات التاريخ، ولا ذلك الشطب على الخرائط السياسية. فذاكرة الأوطان لا تُمحى.

تحدّثت عمتي عن قرية لفتا، وهي إحدى قرى القدس، وراحت تسمّي الفتيات اللواتي كانت تلعب معهنّ في القرية وهي في الثامنة من عمرها. تحدّثت عن شجرة لوز في الجهة الغربية للمنزل، وشجرة زيتون تَبْعد بضعة أمتار عن المنزل الذي كانت تعيش فيه مع جدّي وجدّتي. عجبتُ لذاكرتها. إنها تتحدّث عن قريتها، والمنزل الذي عاشت فيه، وتحدّد أماكن الأشجار كأنها تركتْ القرية قبل بضعة أشهر وليس قبل ستين سنة تقريبًا.

إنها تتحدّث عن شجرة اللوز.. عن تفاصيلها.. عن ثمارها.. عن أوراقها.. أغصانها.. جذعها.. وجذورها الممتدّة، كأنها تصف منظرًا تشتهيه ريشة رسّام. هي تتحدّث.. وتتحدّث بتفاصيل التفاصيل، وأنا أتخيّل شجرة اللوز شامخة كأحلام مَنْ هُجِّروا عن دفء ترابها.. عميقة الأصول كمعاناة مَنْ حُرِموا من ثمارها.

توجهتْ عمتي نحوي وهي تحمل رغيف خبز ساخن، وقدّمته لي. تفوح منه رائحة لفتا، وتفوح منه رائحة القدس العطرة. القدس.. القدس التي لم أرها في حياتي قط، أراها الآن في حكاية عمتي، وأشعر بدفئها في رغيف الخبز هذا.. أشعر بدفئها كأنني في أحضانها.. في تفاصيلها.. في أعماقها..

يا قدس..

من لبنان أعانقكِ..

وأشعر بدفئكِ،

أعانقكِ واحتضنكِ

لأنّ المسافة بين الأمّ وابنها

لا تُقاس بطول الكيلو مترات.

بل بامتداد وعمق الأشواق..

بدفء مَنْ يعيش فيكِ أعانقكِ..

وبألم من حُرِمَ من ترابكِ احتضنكِ.

يا قدس..

تستهويني حروفك..

ففي القاف قمّة..

وفي الدال ديمومة..

وفي السين سموّ..

قمّة وديمومة وسموّ..

ها هي حروف اسمكِ

تصرخ بالبقاء والارتفاع..

باقية أنتِ.. وباقون نحن..

باقية فينا.. وباقون فيكِ..

رحتُ أقضم رغيف الخبز.. رائحة الخبز المجبولة برائحة القدس تخترق أعماقي التي غدتْ مضمّخة برائحة القدس .. وعطر القدس.. وذاكرة القدس.

وبين ذاكرة القدس، وبين ذاكرة بؤس المخيّم، يلوح طيف النسيان.. طيف الحبّ.. طيف لينا. طيفها لم يعد يهيّض المشاعر المشتعلة.. لم يعد يخترق ثورة مفكِّر، ولا جنون شاعر.

يا حبيبتي.. يا طبيبتي..

أدخلي سكون بيت المنطق..

ودعي ثورة وجنون الفكر للشعراء!

(انتهت في 24 ديسمبر 2010)